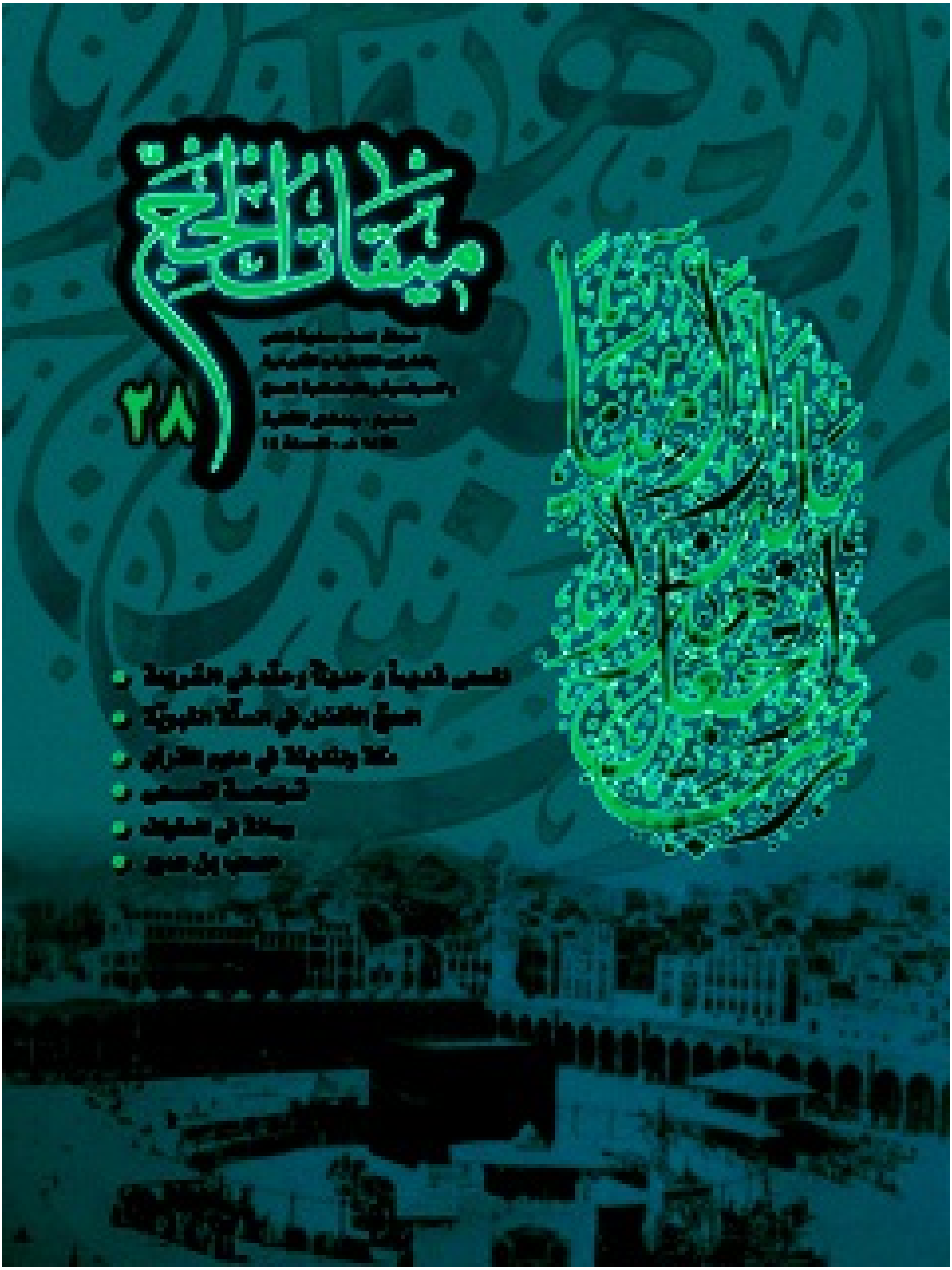


ميقات الحج
٢٨

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

كاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبیوتریة

الفهرس

میقات الحج–المجلد ۲۸

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ٣

ص: ۴

الاتّحاد والانسجام الإسلامی

ص: ۵

فی کلام قائد الثورهٔ الإسلامیهٔ الإیرانیهٔ

الأمر المهم الذی أودّ التأکید علیه هو مسألهٔ: الانسجام الإسلامی، حیث ذکرنا أنّ الانسجام الإسلامی یعنی عدم إثارهٔ العصبیات الدینیهٔ بین المذاهب الإسلامیهٔ، فعلیکم الابتعاد عن کل ما یحرک عصبیات المسلمین من غیر الشیعهٔ ضدکم، وفی المقابل فإنّ علی أولئک أیضاً أن لا یقوموا بأیّ عمل من شأنه أن یحرّک عصبیّاتکم ضدّهم، لأنّ ذلک هو ما یتمنّاه أعداؤنا، أنظروا إلی النزاع القائم بین فریقین کبیرین فی فلسطین .. أیّ شیء أفضل لإسرائیل من هذا؟! فالبندقیهٔ الفلسطینیهٔ بدلًا من أن تتوجّه إلی العدوّ الإسرائیلی باتت تستخدم فی صراع داخلی .. هذا الأمر مناسب جدّاً للإسرائیلیین وهم مستعدّون لإنفاق المبالغ الطائلهٔ فی سبیل حصول وضع کهذا.

ولنفترض أنّ هذا الأمر تکرّر فی لبنان أیضاً بحیث وجد فریق لبنانی یتبنّی إشعال حرب داخلیهٔ مع فریق لبنانی آخر ..

أیّ نعمهٔ ستکون أکبر من هذه بالنسبهٔ لإسرائیل وأمریکا؟ وهل هذا أفضل لهم أن یتقدم فریق مثل (حزب الله) ویسیر الجمیع خلفه- البعض عن اعتقادٍ وإیمان والبعض الآخر خوفاً من الرأی العام- لیکسر شوکهٔ إسرائیل ویلحق بها الهزیمهٔ؟ لاشک أنّ النزاع والفرقهٔ هی الوضع الذی یناسبهم.

وهذه هی مشکلهٔ العالم الإسلامی الیوم، فنحن بین خیارین: أحدهما أن تتضامن الشعوب الإسلامیهٔ، ومعنی ذلک أن تخرج الشعوب المسلمهٔ، فی مصر والأردن والهند وباکستان، تأییداً للجمهوریهٔ الإسلامیهٔ- مثلًا- فی قضیهٔ من القضایا المحقهٔ. والآخر أن تموت حالهٔ التضامن وتسکت هذه الشعوب عندما ترفع صرخهٔ حقٍّ من الجمهوریهٔ الإسلامیهٔ الإیرانیهٔ، بل وربما یتبنی البعض فیها موقف العدوّ نفسه، ولاشک أنّ أمریکا تسعی وراء تحقیق الخیار الثانی.

ولکن کیف لهم أن یصلوا إلی ذلک؟ .. الأمر سهل جدّاً، فما علیهم إلّا أن یحیوا الفتن والعصبیات بین السنّهٔ والشیعهٔ، لیقولوا للسنهٔ: إنّ الشیعهٔ یسبّون الصحابهٔ وأنهم یسیئون إلی مقدساتکم، کلّ ذلک بهدف بثّ روح الفرقهٔ بین المسلمین.

لقد أخذ دعاهٔ الوحدهٔ بین الشیعهٔ والسنهٔ، هذه السیاسهٔ بعین الاعتبار منذ بدایتها الأولی، فلماذا لایرید أن یفهم البعض ذلک؟!

إمامنا الخمینی الکبیر ١ کان من دعاهٔ الوحدهٔ الإسلامیهٔ، وکانت ولایته واعتقاده وتعلقه وحبّه للأئمّهٔ: أکثر من کلّ أولئک المدّعین.

هل الإمام الخمینی/ یفهم معنی ولایهٔ أهل البیت: بشکل أفضل، أم أولئک العوام الذین یرتکبون المخالفات ویتحدثون بشکل غیر مسؤول فی المجالس العامهٔ والخاصهٔ باسم الولایهٔ؟

حافظوا علی الوحدهٔ بین المسلمین، وإذا رأیتم فی المجتمع من یعمل علی خلاف ذلک، فاعزلوهم، وأعلنوا مخالفتکم لهم، لأنهم أناس مضرّون، یسیئون إلی الإسلام، ویسیئون إلی التشیع، ویسیئون إلی المجتمع الإسلامی ...

الوحدهٔ الإسلامیهٔ الیوم هی لمصلحهٔ النظام الإسلامی، ولمصلحهٔ الجمهوریهٔ الإسلامیهٔ، والتحرک ضد هذا التوجه هو لمصلحهٔ أمریکا ولمصلحهٔ الصهاینهٔ، ولمصلحهٔ أولئک النفعیین الذین یملأون جیوبهم من أموال النفط، ولا یرغبون بوجود عنصر کالجمهوریهٔ الإسلامیهٔ الإیرانیهٔ، وکالمجتمع الإسلامی فی إیران.

ص: ۶

نص کلمة ممثل الإمام الخامنئی فی الحج

فی ندوة «أهل‌البیت: وانسجام الأمة الإسلامیة»/ مکة المکرمة- ذی‌الحجة ۱۴۲۸

بسم الله الرحمن الرحیم

«عن مولانا أبی الحسن الرضا ۷ أنه قال: رحم الله عبداً أحیا أمرنا»

أرحب بالعلماء والمفکرین والمثقفین من أتباع مدرسة أهل البیت: فی هذه الندوة المبارکة التی تعقد سنویاً بجوار بیت الله الحرام؛ لإحیاء أمر أهل‌البیت:، وأسأل الله تعالی أن یشملکم وإیانا بدعاء ثامن الحجج:.

موضوع هام ینبغی أن نتداوله فی هذه الندوة وهو: ما المراد من أمر أهل البیت؟ وماذا یعنی إحیاؤه؟ وکیف یتم ذلک فی العصر الحاضر؟

وللإجابة علی هذه التساؤلات أقول: إن أمر أهل البیت هو تحکیم قیم الدین الحنیف بقیادة آل بیت الرسالة، کما ورد فی قوله تعالی: أَطِیعُوا اللهَ وَأَطِیعُوا الرَّسُولَ وَأُولِی الأَمْرِ مِنْکُمْ.

إذن، فالمراد من إحیاء أمرهم- سلام الله علیهم- فی عصر إمامة کل منهم هو التمهید ثقافیاً واجتماعیاً لتحقق إمامتهم وقیادتهم. فإحیاء أمر أهل‌البیت: فی العصر الحاضر، یعنی- بناء علی ذلک- التمهید للحکم الإسلامی العالمی بقیادة المهدی من آل محمد ۹.

من جهة أخری، إن التشتت والاختلاف بین المسلمین یشکّل أهم عائق یحول دون حاکمیة القیم الإسلامیة فی العالم، ویعرقل عملیة التمهید الثقافی لحکومة إمام العصر والزمان [العالمیة. ولذلک بذلت أجهزة الاستخبارات العالمیة منذ أمد طویل جهداً کبیراً لزرع بذور الشقاق فی صفوف المسلمین وصعّدت مؤامراتها بعد انتصار الثورة الإسلامیة فی إیران وانتشار مدّها فی العراق ولبنان وأفغانستان، حیث أصبحت هذه المؤامرات

ص: ۷

فی الآونة الأخیرة أكثر تعقیداً ووصلت إلی ذروتها، مما دعا قائد الثورة الإسلامیة سماحة آیةالله الخامنئی أن یسمّی العام الحالی عاماً للوحدة الوطنیة والانسجام الإسلامی؛ وذلک لمواجهة مؤامرات الاستكبار العالمی.

ولكن، یبقی السؤال: كیف یمكن فی هذا العصر إحیاء أمر أهل‌البیت: والتمهید للحكم الإسلامی العالمی بقیادة الإمام المهدی [؟

إن ما نقل عن الإمام الرضا ۷ فی مطلع الحدیث یتضمن الإجابة علی هذا السؤال، فالراوی یسأل الإمام ۷: وكیف یحیی أمركم؟ فیردّ الإمام ۷ قائلًا: یتعلّم علومنا ویعلمها النّاس؛ فإن النّاس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا.

وبما أن معارف أهل البیت: تتطابق مع العقل والفطرة الإنسانیة، فإن قول الإمام ۷ یدلّ علی أن التعرف علی هذه المعارف یمهّد الطریق أمام الناس لاتّباع أهل‌البیت: وتحقیق حكومتهم العالمیة.

ومن أبرز معارفهم ما یرتبط بتوحید كلمة الأمة الإسلامیة والتحذیر من خطر التفرقة.

وها هو أبو الأئمة أمیرالمؤمنین علی ۷ یقول فی كتابه الذی أرسله إلی أبی موسی الأشعری فی قضیة التحكیم: ولیس رجل- فاعلم- أحرص علی جماعة أمة محمد وألفتها منی.

وهنا أشیر إلی ثلاثة من جهود الإمام علی ۷ فی تحقیق الوحدة الإسلامیة لتشكل رسالة من هذه الندوة المباركة نوجهها إلی جمیع أتباعه ومحبّیه من جوار بیت التوحید فی هذا العام وهو عام الانسجام الاسلامی:

۱- جهوده فی الدعوة

إستثمر الإمام علی ۷ كل فرصة لبیان سلبیات التفرقة وخطرها علی أساس الحكومة الإسلامیة. وجاء فی ما روی عنه أنه خاطب المسلمین من معاصریه قائلًا: وأیم الله، ما اختلفت أمة قط بعد نبیها إلّا ظهر أهل باطلها علی أهل حقها.

فالإمام یری أن الباطل ینتصر باتحاد أهله والحق یهزم بتفرق أتباعه، حیث ورد فی الخطبة الخامسة والعشرین من نهج‌البلاغة قوله: والله لأظن أن هؤلاء القوم سیدالون منكم باجتماعهم علی باطلهم وتفرقكم عن حقكم.

كما وینقل الإمام ۷ للمسلمین فی خطبة القاصعة تفاصیل تجربتین تاریختین مهمتین لیلقنهم عبر التاریخ ودروسه:

«واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذمیم الأعمال. فتذكروا فی الخیر والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم. فإذا تفكرتم فی تفاوت حالیهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء له عنهم ومدت العافیة به علیهم، وانقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة علیه حبلهم من الاجتناب للفرقة، والتحاضّ علیها والتواصی بها.

وتدبروا أحوال الماضین من المؤمنین قبلكم ... فاعتبروا بحال ولد إسماعیل وبنی إسحاق وبنی إسرائیل. فما أشدّ اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال.

تأملوا أمرهم فی حال تشتتهم وتفرقهم لیالی كانت الأكاسرة والقیاصرة أرباباً لهم، یحتازونهم عن ریف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنیا إلی منابت الشیح، ومهافی الریح، ونكد المعاش.

فانظروا إلی مواقع نعم الله علیهم حین بعث إلیهم رسولًا فعقد بملته طاعتهم وجمع علی دعوته ألفتهم، كیف نشرت النعمة علیهم جناح كرامتها ...

فهم حكام علی العالمین، وملوک فی أطراف الأرضین. یملكون الأمور علی من كان یملكها علیهم. ویمضون الأحكام فیمن كان یمضیها فیهم. لا تغمز لهم قناة، ولا تقرع لهم صفاة ... فإن الله سبحانه قد امتنّ علی جماعة هذه الأمة فیما عقد بینهم من حبل هذه الألفة التی ینتقلون فی ظلها، ویأوون إلی كنفها، بنعمة لا یعرف أحد من المخلوقین لها قیمة؛ لأنها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر».

وبعد ذلک یحذّر الإمام من أن الوحدة تهدّدت وتعرّضت أواصرها للخطر فی عصره.

٢- جهوده قبل خلافته

رغم إيمانه بأن الخلافة بعد رسول‌الله ٩ من حقه، إلّا أن الإمام علياً ٧ كان يرى الخطر في تشتت صفوف المجتمع الإسلامي أكبر من خطر تركه للساحة السياسية. ولذلك قال ٧:

وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين وأن يعود الكفر ويبور الدين لكنّا على غير ما كنا لهم عليه.

وقال ٧ أيضاً:

ص: ۸

قد جرت أمور صبرنا عليها وفى أعيننا القذى تسليماً لأمرالله تعالى فيما امتحننا به ورجاء الثواب على ذلك، وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرق المسلمون وتسفك دماؤهم.

۳- جهوده بعد خلافته

ولقد بذل الإمام على ۷ بعـد خلافته كل الجهود لصـيانة وحدة الأمة الإسـلامية. وممّا يثير الانتباه فى هذا المجال أن الإمام ۷ فصل بين الإصلاحات الإدارية والاقتصادية وبين الإصلاحات الثقافية التى أجل قسماً هاماً منها حفاظاً على وحدة الأمة. وقال ۷:

لو قد استوت قدماى من هذه المداحض لغيرت أشياء.

وحول اهتمامه بتوحيد الكلمة بين أبناء الأمة الإسلامية يقول شريح القاضى:

بعث إلىّ علىّ أن اقض بما كنت تقضى حتى يجتمع أمر الناس.

وهناك الكثير ممّا ينبغى قوله فى هذا المجال، وهذا ما أوردناه بتفصيل فى موسوعة الإمام على ۷ عند ذكر سياساته ۷.

إن سـيرة هـذا الإمام العظيم وسائر أئمـة أهل البيت: من قول وفعل، ينبغى أن تكون النبراس لحركـة أتباعهم فى العصـر الراهن وللعمل على التقريب بين أبناء الأمة الاسلامية تمهيداً للحكومة الإسلامية العالمية بقيادة إمام العصر [.

اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ص: ۹

الاتحاد الوطنی والانسجام الإسلامی

الشیخ جعفر السبحانی

جعل الله الکعبة البیت الحرام قیاماً للناس وجعل الحج موسماً للعبادة وفرصة للقاء بین المسلمین من کل صقع وصوب لیتعارفوا ویطلعوا علی أحوال بعضهم بعضاً وهذا ما یشیر إلیه سبحانه بقوله: (لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) وأی منفعة بعد العبادة أکبر من أن یلتقی الأخوة فی الله فی مکان واحد بعیداً عن جمیع الاعتبارات الشخصیة والاجتماعیة والحواجز القومیة والاقلیمیة والعرقیة تغمرهم مشاعر المحبة والمودة وتجمعهم روح الأخوة الصادقة الصافیة.

وأی مسألة أهم من أن یتعرف المسلمون علی الأخطار والمشاکل المحدقة بهم ویتدارسوا حلولها المناسبة ویعملوا معاً بید واحدة وعزیمة صارمة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ قمنا بإلقاء کلمة حول الاتحاد الوطنی والانسجام الإسلامی شرحنا فیها ما للاتحاد والوحدة من المنافع وما للفرقة والاختلاف من المضار وأتینا بدلائل علی التلاحم الموجود بین السنة والشیعة فی الأزمنة السابقة.

الحدیث عن الاتحاد والوحدة لایحتاج إلی برهنة واستدلال، فکلّ إنسان- وإن کان یتمتع بمعلومات محدودة حول القضایا الاجتماعیة- یعرف أن تلاحم أمّةٍ ما وتضامنها سبب للکثیر من الفوائد والخیرات، کما أنّه یعلم أنّ الاختلاف والانشطار لا ینتجان سوی الإخفاقات المتزایدة.

إن ضرورة وحدة الأمّة- أیّ أمة- من القضایا التی قیاساتها معها حسب الاصطلاح المنطقی، أی أنها ادّعاءٌ یحمل دلیله معه، ومن ثم لا یحتاج إلی برهان أو دلیل.

ص: ۱۰

المقطع الأول من مقطعی العنوان أعلاه عبارة عن «الاتحاد الوطنی»، ومن الواضح أنّ الوحدة القومیة والوطنیة تختلف عن النزعة القومیة، فالقومیة مرفوضة فی الإسلام، وقد ذمّ القرآن بشكل واضح هذه النزعة، فقد جاء فیه قوله تعالی: (یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثی وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ). (۱)

وتحمل النزعة القومیة معها معطیات مرفوضة وسلبیة، إنها تعنی أفضلیة قومٍ علی آخرین؛ للغتهم أو دمهم أو أرضهم أو قومیتهم، إنهم یفتخرون بذلك، ویمارسون الإذلال والتحقیر بحق الشعوب الأخری.

إن هذا اللون من التفكیر مذموم من جانبی العقل والشریعة الإسلامیة المقدسة، فهو یمثل نوعاً من التفكیر الیهودی الذی یری بنی إسرائیل أمةً مختارةً، ولهذا فهم ینسبون إلی الله أشیاء لطالما ردّها القرآن، منها- علی سبیل المثال-: (وَقالُوا لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصاری) (۲)، و (قالَتِ الْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصاری عَلی شَیْءٍ وَقالَتِ النَّصاری لَیْسَتِ الْیَهُودُ عَلی شَیْءٍ) (۳) و (قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ) (۴).

إن هذه القومیة نوع من عبادة العِرق، ومع الأسف فقد تفشت هذه النزعة فی العالم فی القرنین الأخیرین وأفضت إلی نزاعات واضطرابات وحروب عدّة، بینما نری أن منطق الإسلام لا یعطی للقومیة والعِرقیة أیّ قیمة ولا یعیرها أیّ اهتمام.

والنتیجة أن النزعة القومیة مرفوضة قرآنیاً وعقلیاً؛ لما تحمله من مضمون سلبی.

أما الاتحاد القومی والوطنی، فهو مفهوم إیجابی لا یحمل فی طیّاته أیّ آثار سلبیة، إنّه یعنی أن الأمة التی تعیش علی أرضٍ واحدة وتشرب من میاه واحدة، تستفید منها طوال سنین، فإن لهذه الأرض حقاً علیهم، وهذا الحق یتمثل فی أن یتحد البشر الساكنین علی سطحها ویضعوا یدهم بید بعضهم بعضاً، یرفعون بذلك نقائص حیاتهم، ویتغلبون علی المشاكل والأزمات، دون أن یمارسوا تحقیراً للشعوب الأخری أو یقوموا بأذیتها والإضرار بها، إن الاتحاد القومی والوطنی بهذا المعنی الآنف الذكر فكرٌ فطری؛ فكل إنسان تربطه بوطنه علاقة عاطفیة.

عندما هاجر النبی الأكرم ۹ من مكة، وقعت هذه المدینة فی ذاكرته وهو فی وسط الطریق عند «الجحفة»، فلم یتمكّن من إخفاء مشاعره وحبّه لمسقط رأسه، فامتلأت عیناه بالدموع، وهنا نزل قوله تعالی: (إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلی مَعادٍ) (۵)

كذلك وعندما فتح النبی ۹ مكة بعد عشر سنوات من البُعد عنها ومفارقتها، وطهّر بیت التوحید من لوث عبادة الأصنام، نزل لدی دخوله إلیها نقطةً مرتفعة فیها تسمّی «أذاخر» وعندما وقعت عیناه علی الكعبة كما ورد فی كتب التاریخ: اجتاحت قلبه عاصفة من الهم والحزن، وقال: «إنی أحبك ولولا أنّی هُجّرتُ لما تركتك».

یتبین من هذا أنّ بین الاتحاد الوطنی والقومی والنزعة القومیة فاصلة كبیرة، بل لا یمكن- من الأساس- الجمع والمقارنة بینهما.

مدح القرآن للاتحاد وذمّه للانشطار والتشظی

كلّما وصل القرآن الكریم إلی الحدیث عن الوحدة والاتحاد أردفه بمدحهما، وكلّما مرّ بالحدیث عن الاختلاف والانقسام ذمّهما، یقول فی الاتحاد: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِیعاً وَلا تَفَرَّقُوا)، (۶) ولتحقیق هذا الاتحاد اعتبر القرآن المؤمنین إخوةً فیما بینهم، فقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (۷)، وفی الحقیقة فإنّ أقرب علاقة بین شخصین من مستوی واحد هی علاقة الأخوة، لهذا اعتبر المؤمنون إخوة، فعلاقة الأبوة والبنوة رغم كونها أقوی من علاقة الأخوة إلا أنّ طرفی هذه العلاقة لیسا بمستوی واحد، لهذا لم یوظف القرآن هذه العلاقة، وإنما استعاض عنها بعلاقة الأخوة.

أما لدی حدیثه عن الفرقة والانقسام، فنجده یقول: (قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلی أَنْ یَبْعَثَ عَلَیْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ یَلْبِسَكُمْ شِیَعاً وَیُذِیقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَیْفَ نُصَرِّفُ الْآیاتِ لَعَلَّهُمْ یَفْقَهُونَ) (۸)؛ فقد عرضت هذه الآیة المباركة ثلاثة أنواع من العذاب هی:

۱– العذاب من فوق، کحجارة السماء أو الصاعقة التی تحرق مدینةً کاملة.

۲– العذاب من أسفل، کالزلزلة المدمرة والبراکین.

۳– عـذاب الأمـة الواحـدة التی تتشـتت إلی فرق مختلفـة تعزف کل واحدةٍ منها علی منوال خاصّ بها، وهذا العذاب أسوأ من العذابین السابقین، بشهادة أنه بعد ذکر العذاب الثالث المشؤوم یذکر نتیجته ألا وهی تعذیب کل واحدٍ بالآخر.

وأُنهی هـذا القسم من الموضوع بتحلیل آیـة الاعتصام، حیث أن القرآن دعا إلی الوحدة والتمسّک بالحبل الواحد؛ فبدلًا من أن یقول: تمسّـکوا بالقرآن والإسـلام، نراه یقول: تمسّکوا بحبل الله، وکأن الهدف من ذکر (الحبل) الإشارة إلی أن الإنسان عندما یکون فی قعر البئر فإن سبیل نجاته الوحید هو أن یُلقی إلیه حبل إلی داخل البئر لیتمسک به ویصعد علیه، وإلا فإن موته فی الداخل یغدو محتماً، إن الأمـة المضـطربة التی یعزف کل واحـدٍ فیها علی منواله تشـبه ذاک الـذی سـقط فی البئر، ذلک أن موتها قطعی ونهایتها محتومـة، فما أروع أن نعمل علی أن تتوحّد هذه الإیقاعات ونمسک خیر إمساک بحبل الوحدة کی نحظی بالنجاة وننعم بالخلاص.

کانت هذه کلمات موجزة وإجمالیة حول المقطع الأول من العنوان (الاتحاد الوطنی)، ولننتقل الآن إلی شرح المقطع الثانی.

۱– الحجرات: ۱۳.

۲– البقره: ۱۱۱.

۳– البقرة، ۱۱۳.

۴– البقرة، ۹۴.

۵– القصص: ۸۵.

۶– آل‌عمران: ۱۰۳.

۷– الحجرات: ۱۰.

۸– الأنعام: ۶۵.

ص: ۱۱

الانسجام والتضامن الإسلامى

تعنى كلمـة الانسـجام النظم والانضـباط، وهو أحـد المحسّـنات البديعية فى البلاغة، فذاك الكلام الذى تتسم مفرداته بالجمالية وتخلو من التعقيـد يطلق عليه اسم الكلاـم المنسـجم. والانسـجام الإسـلامى يختلف عن وحـدة المـذاهب، وهو معـادل- بمعنى من المعـانى- للتقريب بين المذاهب، فوحدة المذاهب أمر غيرممكن التحقق؛ ذلك أن الاختلافات التى مضى عليها أربعة عشر قرناً لا يمكن بأسبوع واحد أو شـهر واحد أو سـنوات عدة أن تزول أو تتلاشـى، إلا أنه فى الوقت عينه الذى تختلف فيه المذاهب يمكنها استخراج مجموعة من المشتركـات الكثيرة فيما بينها لتنطلق منها فى تعاون ضـرورى وتحصل من خلال ذلك على نتائـج مبهرة، دون أن تمتنع فى الوقت عينه عن تـداول القضايا الخلافيـة فى المحافل العلمية- لا فى مقبرة البقيع (۱)- عبر حوارات مثمرة لتحـلّ العالق منها أو تجعل الأفكار متقاربة.

الانسجام الإسلامى فى ظلال المذاكرة والحوار

من المناسب أن أنقل هنا قصّـةً تتصل بموضوعنا، فقبل سـبعة وعشـرين عاماً انطلق مجلس الخبراء من هـذه النقطة بالذات، والتقى نيّف وسبعون شخصاً هنا، وكنت أنا آنذاك فى لجنة (الأحوال الشخصية)، التى تشكّل الفصل الأول من الدستور.

وقـد كـان فى لجنتنـا المولوى عبـدالعزيز؛ فسـألنى: هـل تقولون- أنتم الشـيعة- بالبـداء؟ فـأجبت: نعم، قال: والبـداء بمعنى الظهور بعد الخفاء، لا يمكن نسبته إلى الله فلا يقال: بدا لله؟

فأجبت: البداء كلمة تستخدم فى موردين:

۱- البداء فى مقام الثبوت.

۲- البداء فى مقام الإثبات.

أما الذى فى مقام الثبوت فيعنى أن كل إنسان يتمكن من تغيير مصيره بأعماله الصالحة والطالحة، وأن لا يظن بأنه ليس له سوى مصير واحـد، وإنمـا يرى أن له مصـائر عـدّة، كى يعرف كيف يحوّل مصـيره عبر العمـل، فمثلًا هنـاك عمر محـدود للإنسان فى لوح المحو والإثبات، إلا أن هذا المصـير غير حتمى، إذ بإمكانه تغييره عبر ممارسة صلة الأرحام، فيتمكن من زيادة عمره أو الإنقاص منه بالأعمال التى يقوم بها. وقد يُكتب فى مصير الإنسان بلاء أو مرض إلا أنه لايكون حتمياً، إذ يمكنه أن يرفع هذا البلاء عنه بالصدقة.

وهناك عـدة آيات وروايات تـدلّ على هذا النوع من البداء ذى البُعد الثبوتى، كما أن الآية الكريمة: (يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ) (۲) ناظرة إلى هذا الأمر. وقد أورد جلال الدين السيوطى فى تفسير «الدر المنثور» عدداً من الروايات بهذا المضمون.

إنّ أكبر أثر للاعتقاد بالبـداء متصل بعالم الثبوت، فى مقابل اليهود الـذين يعتقدون بعدم إمكان تغيير المصـير البشـرى حتى بالنسـبة لله تعالى، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) (۳)

أمـا البـداء فى مقام الإثبات، فيحمل معنى آخر، وهو أن يُخبر نبىّ أو ولى من أولياء الله بخبرٍ ما، غير أنه لا يتحقق، وهنا لابـد أن نعرف أن هـذا المخبر الإلـهى لم يكن كاذبـاً فى خبره، فقـد كـان مطلعاً على المقتضـيات التى تـدفع إلى تحقق الظاهرة أو الحـدث، دون أن يكون مطلعـاً على المـانع اللاـبث فى البَيْن، وفى هـذا المورد يقال: بـدا لله، تماماً كما فى قصـة قوم يونس، حيث أخبر بنزول العـذاب، وبـدت آثاره، وعبر ذلك ثبت قول هـذا النبى، غير أن قوم يونس سـلكوا سبيل التوبة بإرشاد من أحد العباد الزاهدين، وتمكنوا بذلك من إبعاد شبح العذاب الإلهى عنهم، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: (فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ) (۴)

وللبـداء فى مقام الإثبات موارد معدودة، أحدها ما جرى لقوم يونس، أما أنه لماذا يقولون: بدا لله، فيما كان سـبحانه وتعالى مطلعاً على تمام زوايا الحدث وأطرافه، أى أنه كان يعلم بتكذيب قوم يونس وبلعنة يونس عليهم وتهديد مظاهر العذاب لحياتهم وعمرانهم .. كما

أنه سبحانه یعلم بأنهم یسلکون سبیل التوبة، وتنزل الرحمة الإلهیة علیهم، وفی هذه الحالة لماذا یقال: بدا لله؟ فیما یفترض أن نقول: أبدی الله ما أخفاه؟ فالجواب: هو أن البشر یتحدثون عما یرونه، فحیث کان هذا الواقع بنظرهم ظهوراً بعد الخفاء، فإن الاستنتاج الأولی لهم یصوغونه فی جملة: بدا لله، وإلا لابد من القول– انطلاقاً من العقائد والأصول المسلّمة–: بدا من الله.

إن هذا النوع من الاستعمالات کثیر فی القرآن الکریم، ونذکر هنا مورداً واحداً؛ حیث یتحدث القرآن عن المنافقین، فیقول: (وَیَمْکُرُونَ وَیَمْکُرُ اللهُ وَاللهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ) (۵)؛ فمن المسلّم أن عمل المشرکین کان حیلةً، فیما لا یکون عمل الله حیلة والعیاذ بالله، وإنما یبطل سبحانه حیلهم، لکن حیث جری التعبیر عن عملهم بالمکر، بیّن فعل الله باستخدام الکلمة نفسها، کی یکون هناک نوع من التناغم والتناسق فی الحوار والمجادلة، وهذا ما یسمّی فی الاصطلاح البلاغی بالمشاکلة التی تعطی الکلام جماله ورونقه.

ومن هذا المنطلق، عندما تحدث رسول الله ۹ عن الأشخاص الثلاثة من بنی إسرائیل الذین کانوا یتعذبون: واحد بالقرع وآخر بالعمی، وثالث بالبرص، وأن الله رفع عن کل واحد منهم بلاءه؛ فأعطی الأول شعراً جمیلًا، والثانی عیوناً ناظرة مبصرة، والثالث جلداً نابضاً نضراً، وعندما لم یشکر بعضهم هذه النعمة الإلهیة أخذها الله منه؛ لأنه لم یکن لیقوم بواجباته ومسؤولیاته مقابل هذه النعم الربانیة، فی هذه القصة نجد رسول الله ۹ یعبّر: «بدا لله فی الأقرع والأبرص ...» (۶)، والعلّة فی هذا التعبیر هو ما قلناه قبل قلیل.

۱- إشارة إلی دعایات الوهابیین التی تطرح من قبل البعض فی مقبرة البقیع، علی أسماع حجاج بیت الله الحرام و زائری قبر رسول الله ۹ و أهل بیته:.

۲- الرعد: ۳۹.

۳- المائدة: ۶۴.

۴- یونس: ۹۸.

۵- الأنفال: ۳۰.

۶- صحیح البخاری ۲۰۸: ۴، کتاب الأنبیاء، الباب ۵۱.

ص: ۱۲

... عنـدما سـمع عبـدالعزیز هـذا البیان کلّه قال: آتنی بکتاب من قـدماء الإمامیة یفسّر البداء بهذا الشـکل الذی ذکرته الآن، وفی تلک الأیـام، أتیته بکتـاب «أوائل المقالات» مع «تصـحیح الاعتقاد» للشـیخ المفیـد، وذلک عاریـةً من مکتبـة مسـجد چهل سـتون (الأربعون عموداً)، فی طهران، وقدّمته له، وبعد ستة أیام أرجع الکتاب لی، وقال: إنّ البداء بهذا المعنی الذی یقوله (المفید) متفق علیه بین علماء أهل السنة کافة.

استـنتج من هـذا کلّه، أن الحوارات الحمیمـة الصادقـة التی تحکمهـا الصداقـة یمکنهـا أن تقلّص المسافات وترفع الکثیر من الستر التی تحجب رؤیة الحقیقة.

تعاون علماء الفریقین فی العصور السابقة

إن هـذا البُعـد والقطیعـة الموجودین الیوم بین علماء الشـیعة والسنّة کانا أقلّ حجماً فی الماضـی، وقـد ضاعفت العناصـر الخارجـة عن الأجواء العلمیة منها، ووسعت من الانشطار والتشظی، ونمرّ هنا علی تاریخ هذا التعاون بین علماء الفریقین:

عصر الصادقین ۸ المنیر والانسجام الإسلامی

یعـدّ عصـر الإمامین: الباقر والصادق ۸ عصـر الصـراع والتصادم بین الـدولتین: الأمویة والعباسـیة، فحینما کان رجال السـیاسة مشـغولین ببعضهم، کان الجو العلمی مفتوحاً أمام التعاون المعرفی، وقد استفاد منهما ۸ عدد کبیر من أعظم شخصیّات فقهاء ذلک العصر، نذکر بعضاً منها:

۱- أبوحنیفة (۱۵۰ ه-) إمام الحنفیة، فقد کان ملازماً للإمام الصادق ۷ لعامین کاملین فی المدینة المنورة، وهو بنفسه یتحدث عن تأثیر هذین العامین علیه، حیث یقول: «لولا السنتان لهلک النعمان» (۱)

۲- مالـک بـن أنس (۱۷۹ ه-) فقیه المالکیـة، حیث یقـول عن الإمـام الصـادق ۷: لقـد رأیت جعفر بن محمـد، وکانت الابتسامـة علی شفتیه، کان عنـدما یذکر اسم رسول الله ۹ یتغیر لونه ویصـفر، ولم ینقل حـدیثاً عن رسول الله ۹ إلا وکان علی وضوء، لقـد کنت لمدة أکرر الذهاب عنده والتردد علیه، فلم أره إلا علی إحدی ثلاث خصال: إما مصـلیّاً وإما صائماً وإمّا یقرأ القرآن، وکان من العبّاد الزهاد الذین یخشون الله تعالی (۲).

۳- سفیان الثوری (۱۶۱ ه-) صاحب مـذهب فقهی یُنسب إلیه، وقـد اسـتمرّ مذهبه قائماً حتی القرن الرابع الهجری، وقد نقل الکثیر من الروایات عن الإمام الصادق ۷.

۴- سفیان بن عیینة (۱۹۸ ه-) أحد رؤساء المذاهب التی انقرض أنصارها، وکان ینقل روایات عن الإمام الصادق ۷.

کانت هذه نماذج لما أردنا ذکره، وکتب الرجال والتراجم حافلة بالمزید (۳).

ولم تکن هـذه العلاقـة لتربـط الفقهـاء المعاصـرین للإمام الصادق والباقر ۸ وتجعلهم یحملون روایـاته وأحادیثه، وإنما امتـدّت لتشـمل الفقهـاء الکبار فی علاقتهم بتلامـذة هـذین الإمامین، حیث کانت بین الطرفین علاقات علمیـة وفکریـة، فابن أبی لیلی قصـد محمـد بن مسلم کی یطلع من خلاله علی فتاوی وآراء الإمام الصادق ۷، لیتمکّن عبر ذلک من حلّ مشکلاته الفقهیة (۴).

وفی سـفره من المدینة إلی مرو، کان علی مسیر نیسابور آلاف المحدّثین ینتظرون الإمام الثامن ۷ وفی أیدیهم القلم والکاغذ، وهناک بالذات سمعوا حدیث السلسلة الذهبیة حیث ألقاه الإمام الرضا ۷ علیهم.

ویشـیر الإمـام الفخر الرازی فی تفسیره لسـورة الکوثر إلی نسـل السـیدة الزهراء ۳، ویقول: فی أیّ أسـرة نجـد علمـاء کبـار مثل الباقر والصادق والکاظم والرضا؟! وفی المجلّد الأول من تفسـیره، ولدی بحثه عن جزئیة البسـملة من کل سورة ولزوم الجهر بها، ینقل الفخر الرازی رأی الإمام علی بن أبی‌طالب ۷ ویقول: «کل من اقتـدی فی دینه بعلی بن أبی‌طالب فقد اهتدی»، ودلیله علی ذلک قول رسول الله ۹: «اللهم أدر الحق معه حیثما دار» (۵).

أكتفى هنا بهذا المقدار للتدليل على التعاون المعرفى الذى كان قائماً بين المذاهب فى عصر الأئمة الأربعة، وأسعى- لاحقاً- لبيان هذا التعاون بين علماء الفريقين فى عصر الغيبة، منذ عام ۲۶۰ ه- فما بعد.

۱- الكلينى فى طرابلس

محمد بن يعقوب الكلينى، أحد المحدّثين الشيعة البارزين، ولد حوالى عام ۲۵۵ ه- وتوفى عام ۳۲۹ ه-، وقد كتب «الكافى» فى حوالى عشرين سنة، وأخذ عنه القميّون الحديث، ثم عزم السفر إلى بغداد، ليعرض هناك كتابه على المحدثين.

فى تلك الأيام، كانت بغداد والكوفة مركز التشيع، ومع ذلك لم يكتف الكلينى بما فعل، بل واصل سيره نحو دمشق وبعلبك، وهناك فى بعلبك بالذات نقل الحديث عن أستاذين هما: أبوالحسن محمد بن على السمرقندى، ومحمد بن أحمد الخفاف النيسابورى.

يكتب ابن‌عساكر فى تاريخه أن مشايخه ضبطوا الحديث عن الكلينى، ويعمد من ثم إلى نقل حديث عنه بسنده إلى أميرالمؤمنين ۷: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله» (۶).

۱- التحفة الاثنا عشرية: ۸.

۲- ابن شمسية، التوسل والوسيلة: ۵۲.

۳- لمزيد من الاطلاع انظر كتاب: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ۷۱: ۱- ۷۳.

۴- وسائل الشيعة، ج ۱۲، أبواب أحكام العيوب، الباب ۱، الحديث ۱.

۵- التفسير الكبير، للفخر الرازى، ۲۰۴: ۱.

۶- تاريخ ابن عساكر ۲۹۸: ۵۶.

ص: ۱۳

لقـد کان الجو فی بعلبک منفتحاً إلی حـدّ أن محدّثی الفریقین کانوا یتبادلون الحدیث فیما بینهم، وقد أخذوا الحدیث من هذا الشیخ الجلیل، دون أن یروا أن تشیّعه مانع من أخذ الحدیث عنه.

۲- الشیخ الصدوق فی بلاد ما وراء النهر

یمّم الشیخ محمـد بن علی بن بابویه (۳۰۶- ۳۸۱ ه-) المعروف بالشـیخ الصدوق، شـطره- لأخذ الحدیث- ناحیهٔ المشـرق الإسلامی، وأقام لسـنوات عدهٔ فی بلخ وبخاری، ونقل الحدیث عن ۲۶۰ شـیخاً من شیوخ الحدیث، وقد کان بعضهم من محدثی أهل السنّهٔ، مثل أبی نصر أحمد بن الحسین الضبّی المروانی (۱)، کما نقل عددٌ من محدّثی أهل السـنّهٔ عنه الأحادیث، وقد کان بعض مشایخ الخطیب البغـدادی، مثل محمد بن طلحهٔ النعّالی من تلامذهٔ الشـیخ الصدوق، لیس هذا الرجل فحسب، بل هناک آخرون من أهل السـنّهٔ أخذوا الحدیث عنه (۲).

۳- الشیخ المفید فی بغداد

محمـد بن محمـد بن النعمان العکبری المعروف بالشـیخ المفید (۳۳۶- ۴۱۳ ه-) أحـد العلماء المشـهورین فی بغداد، لقد کان مشـعلًا یضییء علی المحیطین به، وقد استفادت الفرق عامتها منه، یقول ابن‌الجوزی عن درسه: «کان له مجلس بداره بدرب رباح یحضره کثیر من العلماء من سائر الطوائف» (۳)؛ وما یرشد إلی عمق العلاقهٔ التی کانت تربط الفرق کافهٔ- من الشیعهٔ والسنّهٔ- به وحبهم له، ما یقوله عنه کل من الشـیخین: الطوسی والنجاشی، وهما من تلامذته، یقول النجاشی: «وکان یوم وفاته مشهوراً، وصلی علیه الشریف المرتضی بمیدان الإشـنان، وضاق علی الناس مع کبره» (۴). ویصف الشـیخ الطوسـی یوم وفـاته فیقول: «کان یوم وفاته یوماً لم یُرَ أعظم منه من کثرهٔ الناس للصلاهٔ علیه، وکثرهٔ البکاء من المخالف والمؤالف» (۵)

لقد کان الشـیخ المفید وکافهٔ علماء بغداد من الفرق المختلفهٔ یکرّمون العلم رغم اختلافهم فیما بینهم. وکانت تربطهم علاقات وطیدهٔ، فذرف شخص سنّی الدموع علی موت عالم شیعی کاشف عن عمق العلاقهٔ والارتباط الروحیین.

۴- الشریف المرتضی زعیم أهل العراق

یعدّ الشریف المرتضی، علی بن الحسین (۳۵۵- ۴۳۱ ه-) من أرکان العلم فی العراق، وقد اعترف الجمیع له بالإمامهٔ فی الکلام والفقه والتفسـیر والأدب، فابن بسام الأندلسـی یمتدحه فی أواخر کتاب (الذخیرهٔ) فیقول: «کان هذا الشـریفُ إمام أئمهٔ العراق بین الاختلاف والاتفاق، إلیه فزع علماؤها، وعنه أخذ عظماؤها» (۶).

۵- الشیخ الطوسی وکرسیّ التدریس

ومما أنتجته یراع الأستاذین البارزین: المفید والمرتضی، الشیخ محمد بن الحسن المعروف بالشیخ الطوسی (۳۸۵- ۴۶۰ ه-)، إننا نجده ینقل فی أسانیده عن عالمین سنیین أخذ عنهما الروایهٔ، وهما: أبوعلی بن شاذان، وأبو منصور السکّری (۷).

ویصف الذهبی بیته بمعقل السبّاقین إلی العلم، ویکفینا للإشارهٔ إلی عظمته العلمیهٔ أن أعطاه الخلیفهٔ العباسـی (القائم بأمر الله) کرسـی الکلام الإسلامی (۸).

۶- ابن‌إدریس الحلّی والتعاون مع الفقیه الشافعی

یخبرنا محمـد بن منصور الحلی، المعروف بابن إدریس (۵۴۳- ۵۹۸ ه-)- وهو عالم بارز مرموق صاحب رأی ومدرسـهٔ فی الفقه- فی کتابه القیّم (السـرائر) عن علاقته وتعاونه مع أحد فقهاء الشافعیهٔ: «کتب إلیّ بعضُ فقهاء الشافعیهٔ، وکان بینی وبینه مؤانسهٔ ومکاتبهٔ: هل یقعُ الطلاق الثلاثُ عندکم؟ وما القول فی ذلک عند فقهاء أهل البیت؟ فأجبته ...».

لقـد عاش ابن‌إدریس فی مدینـهٔ الحلّهٔ فیما کان مسـکن هـذا الفقیه الشافعی هو بغداد أو شـمال العراق، إلا أنّ بُعد المسافهٔ لم یشـکل مانعاً من استفادهٔ هذین الفقیهین من بعضهما، لیرجّحا المشترکات علی نقاط الخلاف.

۷- الشیخ منتجب الدین الرازی ومدیح الرافعی القزوینی

منتجب الـدین أحـد علماء القرن السادس، وقـد کتب تکملـةً علی فهرست الشیـخ الطوسـی، وفی الحقیقـة فقـد أکمل فهرست الشیخ الطوسی شخصان فی وقتٍ واحد: منتجب الدین فی الری، وابن‌شهر آشوب فی بغداد أو دمشق.

یعـدّ الرافعی القزوینی- صاحب کتاب (التـدوین)- من المحـدّثین الرفیعین لأهل السـنّة، ومن مؤرخی القرن السادس، وقد لازم الشیخ منتجب الـدین وظل فی خدمته فترة طویلة، وأخذ عنه الحدیث والعلم، ومن المناسب هنا أن نطالع مکانة هذا العالم الشیعی علی لسان تلمیذه، إنه یعرّف أستاذه فی کتاب (التدوین) کما یلی: «شیخ ریّان من علم الحدیث سماعاً وضبطاً، یکتب ما یجد ویسمع ممن یجد، ویقلّ من یدانیه فی هذه الأعصار فی کثرة الجمع والسـماع والشیوخ الذین سـمع منهم وأجاز لهم، وله کتاب الأربعین، وقد قرأته علیه بالریّ سنة ۵۸۴ هـ» (۹).

۸- فخر المحققین ومدیح صاحب القاموس

۱- انظر: علل الشرائع.7

۲- الصدوق، کمال الدین: ۱۷۰.

۳- المنتظم ۱۵۷: ۱۵.

۴- رجال النجاشی، الرقم: ۱۰۶۷.

۵- الفهرست للشیخ الطوسی، الرقم: ۷۱۱.

۶- وفیات الأعیان ۳۱۳: ۳، الرقم: ۴۴۳، نقلًا عن ابن بسام.

۷- مقدّمة التبیان: ۷.

۸- سیر أعلام النبلاء، للذهبی ۳۳۴: ۱۸.

۹- التدوین فی أخبار قزوین ۳۷۲: ۳.

ص: ۱۴

فخر المحققين محمـد بن الحسن بن يوسف، أحـد فقهاء القرن الثامن الكبار، إنه ابن الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلّى، وقد كان هـذا الولـد عزيزاً ومحترماً جـداً عنـد والده، لهذا كتب الوالدُ جملةً من مؤلفاته بناء على طلبٍ منه ورغبة، وفى آخر كتاب (قواعد الأحكام) سجّل وصيّته لولده وهى وصية تحوز على قدر عالٍ من الأهمية من الناحية الاجتماعية والأخلاقية.

هـذا من جـانب و من جـانب آخر، يصـنّف الفيروزآبـادى، صـاحب كتـاب (القـاموس المحيـط) من الأدبـاء اللامعين فى القرن الثامن الهجرى، ويصنّف كتابه هذا مرجعاً لكتّاب القواميس اللغوية الذين جاؤوا بعده.

أجاز الفيروزآبادى لأحد تلامذته- المعروف باسم ابن‌الحلوانى- نقل كتاب (التكملة)، ويخبره بأنه أخذ هذا الكتاب عن أسـتاذه ورواه عنه، ذاكراً سنده لمؤلّف التكملة.

وفى هذه الحال، يصف الفيروزآبادى فخر المحققين بالقول: «بحر العلوم وطودُ العلى، فخر الدين محمد بن الشيخ الإمام الأعظم برهان علماء الأمم، جمال الدين أبى منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر بحقّ روايته عن والده».

هل هناك تبادلًا علمياً وتعاوناً معرفياً أكثر من هذا؟ وهل يمكن أن يكون هناك أوضح من هذا فى واقعية تقييم الآخرين؟

۹- الخواجه نصير الدين الطوسى ونجاة العلماء

نفـذ المغول من المشـرق إلى داخل البلاد الإسـلامية، وشـرعوا بحملتهم عام ۶۰۶ ه‍-، واحتلوا بغـداد عام ۶۵۶ ه‍-، ومنـذ بداية الحرب خربوا المدن والقرى التى مرّوا بها وارتكبوا فيها المجازر الجماعية، وعلى امتداد مسيرهم أبادوا مظاهر الحضارة الإسلامية، ولذا اختفى الكثير من العلماء والمفكرين ولجأوا إلى أماكن ونقاط بعيدة قاصـية، وعندما وصل المغول إلى بغداد لم يرحموا الصغير ولا الكبير ولا السـنى ولا الشـيعى، ولم تمض أيام إلا وغرقت المنطقـة فى مسـلسل إعدامات واسع النطاق، ورموا بكتب علماء الإسـلام فى نهر دجلة حتى غدا ماؤه أسود.

وفى هذه الفترة كان نصـير الدين الطوسـى أسيراً فى يد الإسماعيليين عند فتح قلعة أَلَمُوتْ، وسقط أسيراً فى يد المغول، وحيث بلغهم علمه بالنجوم والرياضـيات، وكانت هـذه العلوم مرغوبـة لدى هولاكو، حفظوه تحت أيديهم فى بغداد، وقدّموا له الاحترام، وقد تمكّن بخبرته ودرايته من دعوة الكثير من العلماء من أماكن اختبائهم، وأعاد بناء الحضارة الإسلامية بتأسيسه مرصداً فى مراغة.

لم يكن نصـيرالدين يعرف فى العلاقـات العلميـة والفكريـة سـنياً ولاـ شـيعياً، لأنه كان لا يميّز بينهما، فقـد أخـذ العلم من أسـتاذٍ سـنّى المذهب اسمه: كمال الدين بن موسى، كما تعلّم العديد من علماء أهل السنّة على يديه فبلغوا مكانةً مرموقة فى سماء المعرفة، ويكفينا أن نعرف أن قطب الـدين الشـيرازى، وشـهاب الدين الكازرونى، وأبا الحسن على بن عمر الكاتبى القزوينى- مؤلّف كتاب الشمسـية- من خريجى مدرسة الطوسى.

وقـد حظى كتابه «تجريد الاعتقاد» باهتمام مختصّي علم الكلام الإسـلامى، وبعد العلامة الحلى الذى يعدّ أوّل شارحٍ لهذا الكتاب، قام عدد من العلماء السنّة بشرحه أيضاً، مثل شمس الدين البيهقى، وشمس الدين الإصفهانى، وعلاء الدين القوشجى.

ويكتب ثـالث هؤلاـء الشـراح فى مقدّمـة شـرحه يحـدّثنا عن هـذا الكتـاب بشـكل مثير للدهشـة، مما يجـدر بطلاب المعرفـة والراغبين مراجعته، وهذه بعض كلماته.

يقول: «تصـنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشـحون بالغرائب، فهو وإن كان صـغير الحجم وجيز النظم، لكنه كثير العلم، عظيم الاسم، جليـل البيـان، رفيـع المكـان، حسن النظـام، مقبول الأئمـة العظـام، لم يظفر بمثله علمـاء الأعصـار، ولم يـأت بمثله الفضـلاء فى القرون والأـدوار، مشـتمل على إشـارات إلى مطـالب هى الأمهـات، مشــحون بتنبيهـات على مبـاحث هى المهمـات، مملوّ بـالجواهر كلّها كالفصوص، ومحتوٍ على كلمات يجرى أكثرها مجرى النصوص، متضمّن لبيانات معجزة فى عبارات موجزة ...» (۱).

۱۰- العلامة الحلى ومختصر ابن‌الحاجب

یصنّف ابن‌الحاجب (۶۴۶ ه‍–) من أدباء القرن السابع ومن أَصولیی عصره، وقد غدت ثلاثة من کتبه محاور للتدریس والشرح، وهی:

۱– الشافیة، فی الصرف.

۲– الکافیة، فی النحو.

۳– مختصر الأصول، فی علم أصول الفقه.

وقد شرح الکتابین الأولین رضی الدین الاسترآبادی، وکان شرحاه لامعین فی سماء اللغة والأدب، یقول جلال الدین السیوطی: بعد الرضی کل من جاء کان یعتاش علی فتاته.

أما الکتاب الثالث لابن‌الحاجب فقد ظل کتاباً دراسیاً فی الحوزات الشیعیة، وقد درّسه المغفور له المحقق الأردبیلی لتلمیذیه: صاحب المدارک، وصاحب المعالم، ووقع الکتاب موقع القبول والترغیب من جانب علماء أصول أهل السنّة، وتعدّت شروحاته الأربعین شرحاً. ومن الوسط الشیعی

۱– علاء الدین القوشجی، شرح التجرید: ۱.

ص: ۱۵

کانت للعلامـة الحلی مساهمـة علمیة کریمة، فقد کتب شـرحاً علمیاً تحقیقیاً علیه، یقول فیه ابن‌حجر: «فی غایة الحسن فی حلّ ألفاظه، وتقریب معانیه ...» (۱).

إلی هنا، نکون قـد مررنا سـریعاً علی بعض جوانب التعاون العلمی بین الفریقین، حتی القرن السابع، وقد کان هذا التعاون علی مستوی العلماء والمفکرین، رغم أنه علی مستویات أخری ثمة من أوقد نار الفتنة فأوجد المشکلات للعلماء أنفسهم.

ونکون بما عرضـناه قـد عرضـنا جانباً من مشـهد التعاون بین علماء السنّة والشـیعة، إلا أن شـرح حال هـذه العلاقة المتبادلة فی القرون اللاحقة یطیل بنا المقام ویزید فی الکلام، لهذا نصرف- فعلًا- النظر عنه؛ لنطلّ علی هذا التعاون المعرفی بین الفریقین القرن الرابع عشر الهجری، وبشکل موجز.

شرف الدین العاملی والشیخ سلیم البشری

من مظاهر التعاون علی مستویات عالیة بین الفریقین ... اللقاءات والحوارات العلمیة بین زعیمین: شـیعی وسنّی، فالمرحوم عبدالحسین شرف الدین العاملی (۱۲۹۰- ۱۳۷۷ ه-)، سافر إلی مصـر أواخر عام ۱۳۲۹ ه-، وکانت رئاسة الأزهر فی ذلک الزمان بید الشـیخ سلیم البشـری، وبعـد تعارف وتـذاکر خاص، قرّرا القیام بسلسـلة من الحوارات المنتجـة والأساسـیة، وذلک کی تتحدّد للزعیم السنّی مکانة الشـیعة من وجهـة نظر الکتاب والسنّة، وقـد جمعت حصـیلة الحوارات التی وقعت بین الزعیمین الدینیین فی ۱۱۰ مراجعة، لیقرّ الشـیخ البشری الجلیل باتباع الإمامیة لمذهب أهل البیت:، وهذه المکاتبات برمتها تشکل مادة کتاب (المراجعات).

دار التقریب ودورها فی تقارب المذاهب

وفی القرن الرابع عشـر، برزت بشـکل واضـح مظاهر هذا التعاون، وفکّر الفریقان: السـنی والشـیعی منذ عام ۱۳۲۵ ه-/ ۱۹۴۶ م بمسألة التقریب، وهـذا ما أبرز مقولـة الانسـجام الإسـلامی، وکان أعمدة هذا المشـروع کل من المرحوم آیة‌الله الشـیخ محمدحسـین کاشـف الغطاء فی العراق (۱۲۹۴- ۱۳۷۳ ه-)، والمرحوم آیة‌الله البروجردی (۱۲۹۲- ۱۳۸۰ ه-) فی إیران، من الطرف الشیعی، وأما من الطرف السـنی فکان الشیخ عبدالمجید سلیم، شیخ الأزهر، والشیخ محمود شلتوت، لقد رفع هؤلاء الأساطین فی المعرفة شعار التقریب، وکانوا من رجال الإصـلاح، ودعوا عبر تأسیس «دارالتقریب بین المـذاهب الإسـلامیة» العلماء والکتّاب إلی التمسّک بالمشترکات، وقـد کرر هؤلاء الرواد أنه لیس هـدفهم توحیـد المـذاهب أو دمجها، وإنما التقریب بینها فی الرؤی ووجهات النظر، وقـد أدی رجال العلم هؤلاء رسـالتهم بإخلاـص تـام وخطوا خطوات کبیرة فی مجـال التقریب، إلی أن طبع ونشـر فی القـاهرة کتـاب «مجمع البیان» بتصـحیح قلیل النظیر، وکذلک کتاب «المختصر النافع» للمحقق الحلی، حتی أن الکتاب الثانی قد نفد من الأسواق خلال شهرین.

لقـد خطت دارالتقریب فی القاهرة خطوات کبیرة علی طریق تقریب المـذاهب من بعضـها، کانت من إفرازاتها الفتوی التاریخیة لشـیخ الأزهر فیما یخصّ الفقه الجعفری، وأنّ هذا الفقه معتبرٌ ورسمی وشرعی کسائر المذاهب الفقهیة.

وهذا هو نصّ الفتوی الشهیرة:

«قیـل لفضـیلته: إن بعض النـاس یری أنه یجب علی المسـلم- لکی تقع عباداته ومعاملاته علی وجه صـحیح- أن یقلّـد أحـد المـذاهب الأربعة المعروفة، ولیس من بینها مذهب الشیعة الإمامیة ولا الشیعة الزیدیة، فهل توافقون فضیلتکم علی هذا الرأی علی إطلاقه فتمنعون تقلید مذهب الشیعة الإمامیة الاثنا عشریة مثلًا؟ فأجاب فضیلته:

۱- إن الإسـلام لا یوجب علی أحد من أتباعه اتّباع مذهب معین، بل یقول: إنّ لکل مسـلم الحق فی أن یقلّد بادی ذی بدء أیّ مذهب من المـذاهب المنقولـة نقلًا صـحیحاً والمدوّنـة أحکامها فی کتبها الخاصة، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ینتقل إلی غیره- أیّ مذهب کان- ولا حرج علیه فی شیء من ذلک.

۲- إن مذهب الجعفریة المعروف بمذهب الشیعة الإمامیة الإثنا عشریة، مذهب یجوز التعبد به شرعاً کسائر مذاهب أهل السنّة.

فینبغی للمسلمین أن یعرفوا ذلک، وأن یتخلّصوا من العصبیة بغیر الحق لمذاهب معیّنة، فما کان دین الله وما کانت شریعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة علی مذهب، فالکلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالی، ویجوز لمن لیس أهلًا للنظر والاجتهاد تقلیدهم والعمل بما یقرّرونه فی فقههم، ولا فرق فی ذلک بین العبادات والمعاملات» (۲).

وقام المغفور له آیة الله البروجردی، بطبع کتاب (الخلاف) للشیخ الطوسی، وأثبت عبر ذلک أنّ ۹۹ من المسائل الفقهیة یوافق فیها الرأی الشیعی رأی أحد المذاهب الفقهیة السنّیة، ولیست سوی مسائل معدودة تلک التی تفرّد الشیعة بها، تماماً کما هو الحال فی کل مذهب حیث له متفرّداته.

وما زلت أذکر عندما وردت إلی مدینة قم هیئة من علماء مصر، أذعنوا بأن ما نقله الشیخ الطوسی فی هذا الکتاب عن علماء المذاهب کان صحیحاً تماماً.

ومن النتائج ذات البرکة التی أفرزتها دارالتقریب أن الفقه الشیعی أثرّ فی وضع بعض القوانین فی مصر ممّا یرجع إلی الأحوال الشخصیة، کما أثر فی الآراء الفقهیة لبعض المفتین، کما هو الحال فی المسائل التالیة:

۱- الدرر الکامنة ۷۱: ۲.

۲- مجلّة رسالة الإسلام، السنة الحادیة عشرة، العدد الثالث.

ص: ۱۶

۱- إن الطلاق المتعدد فی مجلس واحد ولو بلغ الثلاث یکون فی حکم طلاق واحد.

۲- عدم صحّة الطلاق الذی یقع فی طهر قارب الزوج زوجته فیه، کما أن الطلاق فی حال الحیض غیرصحیح.

۳- لزوم وجود شاهدین عند إجراء صیغة الطلاق.

نعم، من الممکن أن تکون السیاسات اللاحقة قد تلاعبت فی هذه القوانین فأخرجتها عن حالتها السابقة.

وفی الوقت الذی کان فیه المرحوم آیةالله البروجردی یمسک بزعامة الشیعة کان الشیخ عبدالمجید سلیم رئیساً للأزهر، وعندما اطلع الأخیر علی مرض البروجردی أرسل إلیه رسالة ملیئة بالأدب ممهورةً بالإخلاص والصدق، وهذا نصّ ما جاء فی هذه الرسالة:

حضرة صاحب السماحة آیة الله الحاج آقا حسین بروجردی:

سلام الله علیکم ورحمته

أمّا بعد: فقد بلغنا- عن طریق المذیاع- أن صحتکم الغالیة قد ألمّ بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلک أشد الأسف لما نعرفه فیکم من العلم والفضل والإخلاص للحق، وإنا لنسأل الله جلت قدرته أن یعجل بشفائکم، ویلبسکم لباس العافیة، حتّی تتمکنوا من العود الحمید إلی نشاطکم المعهود فی خدمة الإسلام والمسلمین.

ولقد شاءت إرادة الله أن أکون أنا أیضاً فی هذه الفترة مریضاً معتکفاً فی بیتی أحمل همّین ممّضین: همّ نفسی وهمّ قومی، وأطیل التفکیر خالیاً فی حال أمتنا العزیزة، فیأخذنی من القلق والحزن ما الله به علیم، فأرجو أن تسألوا الله لی العافیة کما أسأله لکم، والله یتولانا جمیعاً برحمته.

إن الأمة الإسلامیة الآن أحوج ما تکون إلی رجال صادقی العزم، راجحی الوزن، یجاهدون فی الله حق جهاده، لیدرءوا عنها غوائل الفتن، ونوازل المحن، فقد تألبت قوی الشر، وتجمعت عناصر الفساد، وزلزل المؤمنون فی کل قطر من أقطارهم زلزالًا شدیداً، وکأن قد أتی الزمان الذی أنبأ الصادق الأمین:- صلوات الله وسلامه علیه وعلی آله وصحبه- أن القابض فیه علی دینه کالقابض علی الجمر، وإنما مثل أهل العلم من المؤمنین الصادقین کأطواد راسیة أو حصون منیعة ألقاها الله فی الناس أن تمید بهم الأرض من فتنة أو جهالة، أو کنجوم ثاقبة فی لیل داج، ترشد السارین، وتهدی الحائرین. فادع الله معی أن یحفظ هؤلاء ویکثر فی الأمة منهم، وینشر علیهم رحمته، وینزل علیهم سکینته، ویؤید بهم الحق والدین، ویهزم بهم المبطلین والملحدین والمفسدین، إنّه علی ما یشاء قدیر، وبالإجابة جدیر.

والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته

۱۴ من شعبان سنة ۱۳۷۰ ه-

وقد تأثر صاحب السماحة العلامة الأکبر بهذا الکتاب الذی یدل علی ما تنطوی علیه نفس فضیلة الأُستاذ الأکبر شیخ الجامع الأزهر وکبیر علماء السنة من عواطف کریمة نحو إخوانه المؤمنین، وحرصٍ علی نهوض الأُمة الإسلامیة نهضة تعید إلیها سابق مجدها وعزها، فأجاب بهذا الکتاب:

حضرة صاحب الفضیلة الأکبر الشیخ عبدالمجید سلیم شیخ الجامع الأزهر- دامت إفاضاته.

السلام علیکم ورحمة الله وبرکاته

أما بعد- قد بلغنا کتابکم الکریم الحاوی للعواطف الإسلامیة السامیة، یحکی لنا أنّه لما بلغکم عن طریق المذیاع أن صحة هذا العبد قد ألمَّ بها طاریء من المرض، أسفتم لذلک، ودعوتم الله تعالی أن یعید له الصحة.

فأشکرکم علی ذلک، وأسأل الله تعالی أن یبدّل التعارف والتعاطف بین المسلمین، مما کان بینهم من التناکر والتدابر والتقاطع، إنّه علی ما یشاء قدیر.

ویحکی کتابکم أیضاً، أنّه قد ألم بصحتکم الغالیة طاریء من المرض، کما ألم بی، فاعتکفتم فی البیت حاملین لهمین ممضین: همّ نفسکم، وهمّ قومکم، وأن إطالة التفکیر فی حالة الأمة، توجب لکم من القلق والحزن، ما الله به علیم.

هکذا ینبغی أن یکون رجال العلم ورجال الإسلام، مهما حاقت بالمسلمین زلازل الفتن، وأحاطت بهم نوازل المحن، فأسأل الله عز سلطانه، أن یلبسکم لباس العافیة، ویوفقکم لخدمة الإسلام والمسلمین، ولما یوجبه الاهتمام بأمر الأمة فی مثل هذا الزمان، من أمثال جنابکم الذی وقفوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة، ودرء عوادی المفسدین والملحدین عنها. إنّه قریب مجیب.

إنّ هنا أموراً کنت أحب إبداءها لکم، لکن حالی لا تساعدنی علی ذلک.

والسلام علیکم وعلی من أحاط بکم من المؤمنین الصادقین ورحمة الله وبرکاته.

ص: ١٧

١٧ من رمضان سنة ١٣٧٠ ه-

رسالة العلامة الآلوسى إلى الشيخ الزنجانى

إنّ السيد محمود الآلوسى هو أحد أعلام عصره فى بغداد وهو حفيد مؤلّف «روح المعانى» فى تفسير القرآن الكريم، وقد كتب رسالة إلى العلامة الشيخ أبى عبدالله الزنجانى مؤلف «تاريخ القرآن الكريم» المطبوع بمصر، والذى قدّم له الدكتور أحمد أمين. وهذه الرسالة تعرب عن مدى العلقة الأخوية بين العلمين فى عصرهما، وإليك نصّ الرسالة.

إلى فخر العلماء وعمدة الفضلاء حضرة الشيخ أبى عبدالله الزنجانى

أمدّه الله بفيض لطفه الربّانى

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد فقد شرّفنا كتابكم، وسرّنا خطابُكم، وحمدنا الله على بشرى سلامتكم وكمال صحتكم، لازلتم كذلك على الدوام موفورى الآلاء والانعام، وقد ابهجنى ما أخبرتم عنه من فحصكم عن كتاب النبات، ووعدكم بتبشيرنا بالعثور عليه، حقق الله تعالى ذلك بمساعيكم المشكورة وهممكم المذكورة.

وقد سرنى أيضاً ما تفضلتم به من أسماء نوادر الكتب والمصنفات السلفية التى هى من تحف الزمان ونوادره وفى الحقيقة أنّه لا غنى لطلاب العلم عن جميعها غير أنّها مما لا يلقاها إلّا ذو حظ عظيم ونحن نكتفى منها إذا أمكن باستكتاب مقاييس اللغة فقط بواسطة كاتب مجيد على شرط أن نقدم ما يصرف عليه من الأجرة وإن كان فى ذلك كلفة على ذلك الجناب وإتعاب لفكركم.

وأمّا ما أخبرتم به أنّكم بذلتم السعى لإلقاء محاضرات فى شؤون القرآن العظيم وإنكار التحريف، فجزاكم الله عن ذلك خير الجزاء وأمدّكم بالتوفيقات الإلهية عسى أن يكون فى مجاهدتكم هذه جبران لما تركه كتاب «فصل الخطاب» فإنّه أضحى مدار مطاعن أعداء الإسلام من البروتستان وغيرهم، فإنّ جمعيتهم التى فى مصر نشرت كتاباً فى المطاعن مستندة إليه، وسمعت أنّ بعض أفاضل النجف ردّ عليه أيضاً.

وكتاب الجمعية المصرية قد ردّ عليه بعض أفاضل مصر بكتاب سمّاه «تنزيه القرآن الرشيف عن التغيير والتحريف» وقد عثرت على نسخة منه، وها هى مقدّمة إليكم صحبة الكتاب مع الفائدة السادسة من الفوائد التى فى مقدمة تفسير روح المعانى، ورأيت المجلد الثانى من كتاب تاريخ أدب العرب لأبى السامى مصطفى صادق الرافعى، مشتملًا على شؤون القرآن من أوّله إلى آخره، والكتاب مطبوع فى مصر يمكنكم أن تستجلبوا منه نسخة فإنّ نسخه التى وردت إلى بغداد نفدت، ولو كنت عثرت على نسخة منه لاشتريتها وقدّمتها إليكم وهو ممّا يلزم احضاره بين يديكم.

وأختم الكلام بتقديم وافر الاحترام، وعليكم منا التحيّة والسلام.

۶ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١

محمود شكرى الآلوسى

وبهذا نكون قد أطللنا إطلالة سريعة وواضحة على تعاون زعماء الطائفتين، وهو ما يمكنه أن يشكّل أنموذجاً واضحاً لما أشرنا إليه، ويستطيع الباحث أن يعثر على الكثير من النماذج الأخرى.

إلا أن الشيء الذى نئنّ منه اليوم هو ذاك النوع من الإفراط المسمى بالسلفية، والذى تجلّى فى «الوهابية»، وهو اتجاه خدش صورة السلف من جهة وعذّب الخلف من الناحية الأخرى.

السلفية الوهابية

رسم أحمد بن تيمية فى القرن الثامن الإسلامى مدرسةً فى أرض العلم والمعرفة، أرض الشام، كانت نتيجتها تقليص مقامات الأنبياء

والأولياء، وإفناء الآثار الباقيـة عن المسـلمين السابقين، وقد دفنت هذه المدرسة بموت مؤسّسـها عام (۷۲۸ ه-) فی مسـقط رأسه، حيث شنّ علماء الشام ومصـر الكبار من الـذين كانوا يتمتعون بمكانـة رفيعة فی الحديث والكلام والتفسـير ... شـنّوا عليه هجوماً نقدياً جاداً، ووقف الجميع على اشتباهاته وأخطائه.

لكن، ومرةً أخرى، جدّدت هذه المدرسة بعد عدة قرون، عام ۱۱۶۰ ه- على يد محمد بن عبدالوهاب، وتمكنت من بسط نفوذها على قطرٍ معين من أقطار المسـلمين، والسـرّ فی هذا الأمر حرمان مسـقط رأسه عن حواضـر العلم والمعرفة، فقد كان سـكان منطقته من أبناء الصحراء وأهل البادية، لذا وقعوا فی خداع كلماته التی كانت تبدو فی ظاهرها جميلة رشيقة، فأعلنوه حاملًا للواء التوحيد.

فی هذه الأثناء، كتبت ضدّه ردود مفصّـلة فی بلاد نجد والحجاز وسوريا والعراق، وقلّصت من نفوذه وتناميه، لكن مدرسـته اسـتطاعت بعـد الحرب العالميـة الأولى- بالتعاون والاتفاق مع الامبرياليـة العالميـة- أن تطيـح بحكومة الأشـراف فی مكة والمدينة، وهی حكومة اسـتمرّت قرابـة الألف عام، ليتسـلط أنصاره على الحرمين الشـريفين، وفی هذه الفترة شـهدت سياسـته صـعوداً وهبوطاً، فكانوا يظهرون الرفق والعاطفة حيناً وأخرى يردون الميدان بالخشونة والعنف.

ص: ۱۸

وفی السنتین الأخیرتین، بلغت خشونة الوهابیة حدّها الأعلی، فأهانت الزوار، فحوّلت المقبرة التی یفترض بها أن تکون محیطاً هادئاً لقراءة الفاتحة والقرآن وزیارة أولیاء الله الإلهیین وأنصار رسول الله ۹ وأصحابه، إلی مرکز للدعوة إلی الوهابیة، دعوة من طرف واحد بحیث لو أجاب أحد أو ناقش یجازی ویعتقل ویضرب ویشتم، أفهل یتّبع هؤلاء السلفَ وسیرتهم؟! حاشا أن یکون السلف کذلک؟ فأحمد بن حنبل (۱۸۶ – ۲۴۱ ه–) غسل قمیص الشافعی (۲۰۴ ه–) عندما مات وأخذ یتبرّک بمائه، أفهل یتبرّک إمامهم بقمیص الشافعی وهم لا یتبرکون بضریح النبی ۹ بل یرون ذلک ممنوعاً ومحظوراً؟!

إن زوّار بیت‌الله یدخلون السعودیة بتأشیرة دخول رسمیة ویفترض أن یکونوا محل احترام الدولة الحاکمة، إلا أن أغلب هؤلاء الزوار یخشون علی أنفسهم وأموالهم، ویقومون بالواجبات والمستحبات بقلق واضطراب وخوف، بل یتعرّض أکثرهم لإهانة رجال الشرطة الدینیة.

إن الحرمین الشریفین حرم آمن لله تعالی، فکل الطوائف الإسلامیة من حقها أن تقوم بأعمالها فی حریةٍ تامة فی الوقت عینه الذی تکون فیه الأمور التنظیمیة والإداریة بید الدولة. فالنظم والانضباط مسألة، وإرغام الجمیع علی اتباع مذهبٍ واحد ظهر فی القرن الثامن الهجری، واتهام الناس– عبر ذلک– بالکفر والشرک .. ذلک کلّه أمرٌ آخر.

إن أعمال العنف التی یقوم بها هذا الفریق سبّبت عرض الإسلام فی الغرب بشکل دین العنف، وأعاق مجال التبلیغ لدی الطبقة الشابة عند هؤلاء أنفسهم.

من الجید أن تستفید هذه الشریحة من الملک السعودی الثانی (سعود بن عبدالعزیز)، ذلک أنه استضیف فی إیران عام ۱۳۳۴، وقد أهدی– احتراماً– عدة نسخ من القرآن الکریم وبعض القطع من ستائر الکعبة، وعدد آخر من الهدایا عبر السید یوسف أبوعلی للسید آیة‌الله البروجردی. وقد قبل السید البروجردی القرآن وقطعة ستار الکعبة وأهدی بقیة الهدایا إلی حاملها له، وقد کتب رسالة أشار فیها: الیوم والحج فی ید جناب الملک أرسل إلیکم حدیثاً حول حج رسول الله، ونقله البخاری فی صحیحه وأبو داوود فی سننه، فاسعوا أن یطابق الحج مفادَ هذه الروایة (۱).

من المؤسف جداً أن تباد بالجرافات تمام الآثار الإسلامیة التی هی علائم علی أصالتنا وجذورنا، عبر حدیث واحد لایدل أبداً علی مقصودهم، والیوم غدت مکة والمدینة مدینتان غربیّتان لا مظاهر تعرّف بهما مدینتان شرقیتان، أما ذاک الحدیث وکیف دلّ علی مقصودهم فنوضح أمره باختصار، حیث روی مسلم فی صحیحه عن أبی الهیاج الأسدی عن علی ۷ أنه قال له: «ألا ـ أبعثک علی ما بعثنی علیه رسول الله ۹: أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّیته» (۲).

لا نتحدّث فعلًا عن سند هذا الحدیث، حیث لا یخلو بعض رواته من الإشکال والخدشة؛ إنما المهم هو إیضاح مدلوله، ولا بد من التذکیر أن فعل «سوّی» فعلٌ متعدٍّ، ویتطلّب مفعولًا واحداً فقط، تماماً کما فی قوله تعالی: (فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ) (۳). إلا أنها قد تأخذ أحیاناً مفعولین اثنین، فتحتاج فی هذه الحال إلی حرف جر، تماماً کما یقول تعالی: (إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ) (۴)، وکلّما أخذت مفعولًا واحداً تکون التسویة صفة لذلک الشیء، تماماً کما جاء فی الآیة بمعنی: عندما أکمل خلق الإنسان، لکن عندما تأخذ مفعولین وینال المفعول الثانی حرف الجر، فلا تکون التسویة صفةً للشیء نفسه، بل صفةً قیاساً وإضافةً إلی شیء آخر، تماماً کما جاء فی الآیة الثانیة: إننا نعدّکم– أیّتها الأصنام– شیئاً واحداً مع الله.

وانطلاقاً من هذا المبدأ لابد أن نری أن فعل «سوّیت» فی الحدیث له مفعول واحد أم مفعولان؟ الوارد فی تعبیر الإمام علی ۷– علی تقدیر صحة الحدیث-: «ولا قبراً مشرفاً إلا سوّیته»، وفی هذه الحال تکون التسویة صفة للقبر نفسه، لا صفةً له بالنسبة إلی شیء آخر، وإذا کانت صفةً للقبر نفسه فالمقصود منها جعل القبر مسطحاً غیر مسنّم، وإلا فإذا کان المراد تخریب القبور کان لا بد من مفعول ثانٍ بحرف الجر، إذ یقول: «إلا سویته بالأرض».

والنتيجة أنه لابد في متن الحديث من إعمال الدقة لمعرفة هل هذه التسوية صفة للقبر نفسه أو صفة له بالنسبة إلى شيء آخر؟ ونص الحديث يعطي شهادة على كون التسوية صفةً للقبر نفسه، بمعنى إخراج القبر من حالة الإعوجاج وعدم الانتظام أو التسنيم أو الانحناء، لا أن المراد تخريب القبر وتسويته بالأرض.

كيف يمكن أن يكون المعنى الثاني صحيحاً والحال أن تمام فقهاء الإسلام يفتون باستحباب أن يرتفع القبر عن الأرض بمقدار أربعة أصابع؟! ومن حسن الحظ أن شرّاح صحيح مسلم فسروا الحديث المذكور بالمعنى الذي ذكرناه (۵).

إننا نصرف النظر عن تمام هذه الأمور ونفترض تمامية دلالة الحديث إلا أنه يقول: سوّوا القبور بالأرض، لكنه لا يتحدّث عن حرمة البناء على القبر ورفع القباب عليه وتدمير الصروح المشادة عليه، فبورك هذا الاجتهاد الذي لا يقوم لا على كتاب ولا على حديث ولا على اتفاق العلماء!!

وأوضح شاهد على جواز البناء على القبور هو قبر الرسول الأكرم ۹، فمنذ اليوم الأول دفن ۹ في بيته، وللبيت بناء، وقد حفظ هذا البناء عبر القرون كلّها إلى يومنا هذا.

حفظ الأصالة

إن حفظ التراث والأصالة من الوظائف الإسلامية الملقاة على عاتقنا، والمقصود منها الأشياء التي تحكي عن واقع الإسلام واستمراره عبر العصور. فالدين الإسلامي دينٌ عالمي، وسيظل إلى يوم القيامة أكمل الأديان السماوية، حيث من الممكن أن تفصلنا عن القيامة آلاف السنين، فنحن ملزمون بحفظ ما يدلّ على أصالة الإسلام من غدر الزمان وتخريبه، لنحفظه سالماً إلى الأجيال اللاحقة.

۱- رسالة الإسلام، السنة الثامنة، العدد الأول.

۲- صحيح مسلم ۶۱: ۳، كتاب الجنائز؛ وسنن الترمذي ۲۵۶: ۲، باب ما جاء في تسوية القبور؛ و سنن النسائي ۸۸: ۴، باب تسوية القبر.

۳- الحجر: ۲۹.

۴- الشعراء: ۹۸.

۵- شرح النووي على صحيح مسلم ۳۶: ۷، الطبعة الثالثة، طبعة دار إحياء التراث العربي.

ص: ۱۹

إن وجود المسيح وديانته أمرٌ قطعى اليوم عند المسلمين وفى نظرهم، إلا أن ذلك بدأت تغلب عليه الحالة الأسطورية فى رؤية الشباب الغربى، إذ لا ـ يوجد أثر ملموس للمسيح ۷ بين أيديهم، فكتابه طالته التحريفات، ولم يبق لديهم شىء عنه ولا ـ من أثر لأمه ولا لحواريّيه، لهذا يقلص مرور الزمان من قطعية هذا الدين ويذره فى هالة من الإبهام والترديد. وهكذا فإن وجود الآثار والمآثر الإسلامية التى منها مرقد النبى ۹ حاكية عن واقعية وجوده وأصالة مدرسته، كما أن تدمير الآثار يعرّض أصالة الإسلام واعتباره وقادته وأئمته لخطر الضياع أيضاً.

من هنا، ولكى يحول المسلمون دون هذا الخطر الكبير، لابد لهم من حفظ كل الآثار المتصلة بالرسالة، والتذكير بها دوماً، كما يجب عليهم زيارة مراقد هؤلاء المعصومين حفاظاً عليها من الفناء التدريجى، وفى هذه الحال لا يمكن التغاضى عن هذه المزية الكبيرة، وإقفال باب اللقاء الروحى والمعنوى مع هؤلاء العظماء أمام المسلمين.

نعم، الحديث عن موضوع هدم الآثار كبير وطويل، لكننا نكتفى بهذا المختصر ونحيل التفصيل إلى فرصةٍ أخرى.

ص: ۲۰

ص: ۲۱

تجليات الأمّة الواحدة فى مشاهد الحج

الشيخ محمّدمهدى الآصفى

واحـد من أعظم منافع الحج لِيَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ (الحج: ٢٨) ولا نعرف مشهداً للأمّة الواحدة أعظم وأروع من مشاهد الحج.

هنالك يشهد المسلم الأمة الواحدة بكل تجلياتها.

من إسقاط الفوارق وملأ الفواصل والفجوات والوقوف جميعاً فى موقف واحد وفى وقت واحد.

وهذه المشاهد التى تكرر كلّ سـنة ويحضـرها نخبة من المسـلمين من كلّ فجّ عميق ... تعتبر أفضل تجسـيد للأمة الواحدة، التى تضـيع أحياناً وتختفى بسبب تراكم الخلافات المذهبية والوطنية.

وأوّل ما يتجلّى هـذا المشـهد التوحيـدى والوحـدوى العظيم فى (الميقات) حيث ينتزعهم الميقات من أزيائهم الوطنيـة ويلبسـهم لباسـاً موحـداً فى غايـة البساطـة، وبعيـداً عن مظـاهر الترف، ثمّ يوحّـِد الميقـات خطـابهم الربانى: «لبّيك اللهم لبّيك، لبيك لا شـريك لك لبّيك». وهذا هو الخطاب التوحيدى والوحدوى الذى يرفعه الحجاج جميعاً فى الميقات ...

ص: ۲۲

يوحّد الميقات خطابهم الذى هو جوهر هذه العبادة وهى (التوحيد) ويوحّد مظهرهم، وينتزعهم من حالة التشتت فى الخطاب، وتمايز المظاهر والأزياء، فيكون مثل الميقات مثل جداول متمايزة من أقاليم شتى، تدخل فى الميقات على شكل نهر عظيم من الحجاج، يقبلون على الله بمظهر واحد وخطاب واحد وغاية واحدة حتّى يَصُبّ هذا النهر فى بحر عظيم من البشر بجوار بيت الله الحرام لا تكاد تميز فيه العراقى عن اليمانى واليمانى عن الحاج الجزائرى والحاج الجزائرى عن الإيرانى والتركى.

ثم يأتى دور الكعبة الشريفة فى توحيد هذه الأمة وإخراجها إخراجاً واحداً.

وللكعبة المعظمة دوران فى توحيد هذه الأمة: (القبلة والطواف)، وكلّ واحد من هذين الدورين يوحّد وجهة هذه الأمة العظيمة، المتفرقة فى بلاد شتّى من القارّات الخمس.

(القبلة) توحّد جهة حركة المسلمين فى كلّ مناطق الأرض (الطواف)، يوحّد حركة الحجّاج إلى الله حول الكعبة، وكأنّ الطواف حول الكعبة يرمز إلى حركة التوحيد فى التاريخ والمجتمع حول مركز واحد منه يتحرك الإنسان وينطلق فى آفاق الحياة، وإليه يعود مرة أخرى إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ وتبقى هذه النقطة هى مركز كلّ نشاط الإنسان وحركاته وخطابه ومواقفه وجهده فى الحياة قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. ليس فقط فى صلاته ونسكه، وإنّما فى محياه ومماته أيضاً ...

والأثر الآخر للطواف توحيد مسيرة الحجاج فى هذه الدائرة التوحيدية الكبرى ... كل من الحجاج يأخذ نفس المسير وينطلق من الحجر الأسود كرمه الله، وينتهى إليه فى حركة منظمة رائعة، من أروع مشاهد توحيد الأمّة الواحدة فى مسار الحركة إلى الله.

ثم ينطلق الحاج من الطواف إلى السعى فى حركة مستقيمة واحدة غادياً ورائحاً من الصفا إلى المروة، وبالعكس.

وهكذا تتصل تجليات الأمة الواحدة فى مشاهد الحج الكبرى من الميقات إلى الطواف، ومن الطواف إلى السعى، ومن البيت الحرام إلى عرفة حيث يجتمع ملايين المسلمين فى وادى عرفة، توحدهم عرفة، وتوجههم إلى الله تعالى بالدعاء والصلاة، وتصفيهم من كلّ ذنوبهم، بلا استثناء إلا الشرك والقتل وحقوق الناس، والبدعة فى دين الله فإنّها لا تغتفر.

ويفيض الحجاج من عرفة إلى المشعر الحرام وقد تركوا وراءهم ركام ذنوبهم ومعاصيهم فى هذا الوادى الشريف.

ثم مشهد المشعر الحرام ومشاهد رمى الجمرات فى وادى منى، وهو يرمز إلى جهد جمعى من جانب الحجاج كلهم لإقصاء الشيطان عن حياتهم ورجمه وإبعاده منهم.

ثمّ يأتى فى نهاية هذه الجولة الصعبة من الميقات إلى منى العيد الأكبر الذى يحتفل به الحجاج جميعاً فى منى وفى رحاب بيت الله، وهو عيد الأضحى المبارك.

يوحّد فرحتهم بنجاحهم فى إقامة هذه الفريضة الصعبة فى هذا البلد القفر الذى اختاره الله لبيته الحرام.

إن أبرز شىء فى الحركة العظيمة من الميقات إلى منى أمران: (توحيد) الله تعالى بالعبادة و (توحيد) حركة الأمة على خط توحيد الله.

ولا يحسّ الإنسان بهذه الأمة المباركة العظيمة، كما يحسّ بها فى مشاهد الحج العظيمة، وكما يوحّد الحج خطاب هذه الأمة وحركتها ومظهرها ومضمونها، كذلك يوحّد جهد هذه الأمة فى مكافحة العوامل المعيقة لوحدة الأمة، والفتن الطائفية التى تجعل من هذه الأمة الواحدة، أمماً شتى متقاطعة ومتنافرة، على خلاف ما يريده الله تعالى من عباده المؤمنين.

الإضاءات الثلاث فى طريق وحدة الأمة

إن مكافحة الفتن الطائفية والسعى إلى التقريب والتفاهم والتضامن والتعاون بين المسلمين من ثوابتنا السياسية والحضارية والاقتصادية.

وتدخل فى تكوين الأمة الإسلامية الواحدة. ومن دونها لا تتحقّق الأمة الواحدة التى جعلها الله أمة وسطاً، وشاهدة على سائر الأمم.

ويتوقف عليها انتصارنا فى المعترك السياسى والحضارى والثقافى والعسكرى ومن دونها لا يتحقق النصر الذى نسعى إليه فى مسيرتنا السياسية والثقافية.

وتتوقف عليها حركتنا الثقافية والعلمية .. فإن التقاطع الطائفى والعزلة والانكفاء على الذات يؤدى بالضرورة إلى الضمور الثقافى والعلمى، وبعكس ذلك التواصل واللقاء والحوار الإيجابى يؤدى إلى التكامل العلمى والثقافى فى حوزاتنا وجامعاتنا العلمية.

إنّ هناك ثلاث قضايا رئيسية، لابد فيها من الوعى والوضوح:

ولابد من السعى لنشر وعى سياسى- ثقافى، تجاه هذه النقاط فى أوساط الجمهور.

وهذه النقاط هى:

ص: ٢٣

١- وعى الأمة الواحدة.

٢- الصراع الحضارى الذى تخوضه هذه الأمة.

٣- وعى ضرورة الترافد الثقافى والعلمى فى حياة هذه الأمة.

واليك إيضاحاً سريعاً لهذه النقاط الثلاث:

١- الأمة الواحدة

هذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى.

وقد ورد هذا المعنى بصراحة فى آيتين من القرآن يقول تعالى:

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (١).

وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٢).

وليس معنى وحدة الأمة التطابق الكامل فى الرأى والاجتهاد، فإن ذلك مما لا يكون .. وإنما معنى ذلك الاتفاق والتفاهم على الأصول والانسجام والتفاهم والتعاون على المواقف السياسية، وتوحيد الولاء والبراءة والطاعة والنصرة.

٢- الصراع الحضارى

سواءًا أردنا أم لم نرد، نحن ندخل اليوم فى صراع حضارى عسير ... والمواجهة العسكرية شكل من أشكال التعبير عن هذا الصراع.

وهذا الصراع صراع شرس .. وخصومنا فى هذا الصراع جبهة واحدة، مهما تعددت توجهاتهم.

وليس من الصدفة أن تتفق أمريكا والاتحاد الأوروبى على دعم إسرائيل فى كل أعمالها العدوانية تجاه المسلمين، وأن تقف إلى جانبها من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار حاجتها إلى المسلمين وعلاقاتها الاقتصادية الواسعة بالعالم الإسلامى.

نحن نواجه اليوم صراعاً حضارياً، سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً، من أشرس ما يكون الصراع، وإذا خسرنا الحرب فى هذه المعركة المصيرية، فسوف نعود مرة أخرى إلى دورة جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للغرب التى طالتنا من بعد سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم.

والانتصار والهزيمة فى هذا الصراع- فى كل أبعاده- قضية مصيرية فى حضارتنا وتاريخنا. ولا نشك أننا نكسب هذا الصراع إذا واجهنا خصمنا أمة واحدة، وصفاً واحداً، وموقفاً واحداً، وذلك أن يد الله تعالى مع الجماعة وعلى الجماعة، وإذا كانت يد الله معنا فلا يتخطانا النصر بإذن الله.

ولا نشك أنّا إذا واجهنا خصومنا مقتسمين على أنفسنا، متقاطعين فى مواقفنا وإرادتنا، متخالفين فى توجهاتنا، فلا نكسب هذا المعترك الحضارى الصعب.

٣- الترافد الثقافى

الترافد الثقافى من نتائج التقريب بين المذاهب الإسلامية ومن عوامله فى نفس الوقت ...

وقد كان علماء المسلمين وطلبة العلم يتوافدون على مدارس فقهية من مذاهب واتجاهات مختلفة، وكانوا يتبادلون الإجازات فى رواية الحديث. فكان طلبة العلم من العراق- ومعظمهم من الشيعة- يفدون إلى الحجاز ومصر والشام ومعظمهم من أهل السُنة، وكان يفد إلى العراق، على مدرسة الحلة، وهى حوزة شيعية عريقة طلبة من الحجاز ومصر والشام والمغرب العربى للدراسة، كما كان لعلماء المسلمين زيارات للأقاليم الإسلامية وكان طلبة العلوم الدينية يلتمسون منهم أن يلقوا عليهم دروساً فى الفقه والأصولَين: (أصول الفقه وأصول العقائد).

واليوم تحتضن الحوزة العلمية فى قم، وهى حوزة علمية عريقة تابعة لمدرسة أهل البيت طلبة العلوم الدينية من أكثر من مائة قطر فى

العالم من القارات الخمس، وجملة من هؤلاء الطلبة الوافدين إلى هذه الجامعة من أهل السنّة، ولا يجدون حرجاً فى الدراسة فى حوزة شيعيـة، كمـا لاـ تجـد هـذه الحوزة حرجاً أن تحتضن طلبـة من المـدارس والاتجاهات الفقهيـة الأخرى، وتجرى دراسـة فقه المـذاهب الإسلامية الأربعة فى هذه الحوزة كما تجرى دراسة الفقه الإمامى.

ولهذا الترافد الثقافى والعلمى أثر بالغ فى التكامل العلمى والثقافى فى المراكز العلمية الإسلامية.

۱– الأنبياء: ۹۲.

۲– المؤمنون: ۵۲.

ص: ۲۴

فإن الجهود العلمیهٔ والثقافیهٔ المختلفهٔ عندما تلتقی مع بعض علی صعید موضوعی علمی، غیر متشنّج، یکون هذا اللقاء سبباً للإثراء والتکامل العلمی والثقافی لکل من هذه الروافد العلمیهٔ والثقافیهٔ. ویؤدی هذا الترافد إلی التقارب والتعارف بین المذاهب المختلفهٔ، کما أن التقارب والتعارف بین هذه المذاهب یؤدی بالضرورهٔ إلی الترافد العلمی والثقافی.

إن ظاهرهٔ الترافد تؤدی إلی مکافحهٔ وإبطال الفتن الطائفیهٔ .. والعکس أیضاً صحیح، فإن الفتن الطائفیهٔ تقلل من فرص الترافد الثقافی، وتحوّل الثقافهٔ والعلم إلی دوائر مغلقهٔ غیر مترابطهٔ، وهذه الحالهٔ من أسباب ضمور العلم والمعرفهٔ دائماً.

وعلی کل حال، ظاهرهٔ الترافد الثقافی ظاهرهٔ مبارکهٔ فی حیاهٔ هذه الأمهٔ یجب أن نستعیدها ونجدّدها ونشجعها وندعمها، وهی من أفضل وسائل علاج الفتنهٔ.

وفیما یلی سوف نتحدث إن شاء الله عن أبرز النقاط التی تساهم فی علاج الفتنهٔ الطائفیهٔ وإخمادها. وهذه النقاط الثلاث هی:

۱- الوعی والخطاب.

۲- اللقاء والحوار.

۳- العمل المشترک.

وإلیک تفصیل هذه النقاط:

أولًا: الوعی والخطاب

الفتنهٔ الطائفیهٔ، کأیهٔ فتنهٔ أخری، تنشأ وتنمو فی غیاهب الجهل والجهالهٔ .. والفتن فی حیاهٔ الناس کثیرهٔ، وکلها تتکون وتظهر وتنمو فی ظلمات الجهل.

وأفضل العلاج لها ولأمثالها من الفتن هو المعرفهٔ والوعی، فإن النور یکسح الظلمهٔ، والمعرفهٔ والوعی نور یزیل ما یعترضه من الظلمات، والفتن تراکم من الظلمات بعضها فوق بعض.

الوعی والتقوی

إن تحصین المجتمع من الفتن یتم بعاملین اثنین مع بعض، وهما: عامل التقوی والمعرفهٔ، فإذا اجتمعتا فإنهما یحصّنان المجتمع من أمثال هذه الفتن.

ومهما واجهنا فتنهٔ من هذه الفتن التی تمحق دین الناس، وتثیر الشغب والفوضی، وتحرق الأخضر والیابس فلابد أن یکون من وراء هذه الفتنهٔ عجز فی (التقوی) أو (الوعی) أو فیهما معاً.

فهما یحصّنان المجتمع من کل فتنهٔ، ویمنحان صاحبهما بصیرهٔ وفرقاناً، إذا ادلهمت الخطوب والظلمات علی الناس.

الوعی السیاسی

ومن أهم وجوه الوعی الیوم الوعی السیاسی، فإن عامل الاستکبار العالمی والمخابرات والمنظمات الجاسوسیهٔ العالمیهٔ تکمن خلف هذه الفتن.

والمؤسسات الإعلامیهٔ (الصحف والفضائیات ودور النشر) تبثّ هذه الفتن بین الناس، وتقوم بتأجیج حرائق الفتنهٔ الطائفیهٔ بین المسلمین.

وتجد أنظمهٔ الاستکبار العالمی فی هذه الفتن الطائفیهٔ فرصهٔ ذهبیهٔ لبسط نفوذها فی العالم الإسلامی، وتمکّنها من أسواق المسلمین ومصادر الثروهٔ النفطیهٔ والمعدنیهٔ والمائیهٔ والزراعیهٔ فی العالم الإسلامی ... وسوف نبسط الحدیث فی هذا الجانب إن شاء الله.

والأداهٔ المفضّلهٔ لمواجهة هذه الفتن هی الوعی السیاسی الذی یمکّن الناس من معرفهٔ خلفیات هذه الفتن وجذورها، والمنظمات الجاسوسیهٔ التی تخطط لها هناک فی الغرب عبر المحیطات.

ومن واجب العلماء والخطباء والمثقفين الإسلاميين نشر الوعى السياسى بين الناس، وتمكين الناس من اختراق الغطاء الإعلامى وتمكينهم من الدرك الصحيح لما يحصل فى الساحة العالمية من فنون اللعبة السياسية، وتحذير الناس من أن يكونوا ضحايا هذه اللعب والخطط التى تنتجها باستمرار العقلية الغربية تجاه العالم الإسلامى.

وعى الجمهور

ص: ۲۵

ولست أعني ب- (الوعي السياسي) هنا وعي النخبة، ولست أنفي ضرورة الوعي السياسي عند النخبة، وأهميتها، ولكن وعي النخبة لا يغني عن وعي الجمهور، وإذا حلّ الوعي في الشارع الذي يتحرك فيه الجمهور وتسلّح الجمهور بالوعي، لم تعد هذه اللعب السياسية والفضائيات المضللة قادرة على تضليل الناس، وتفجير الفتن في وسط الناس، كالذي يحصل اليوم في العراق وفي بعض الأقطار الإسلامية.

فإن الوعي عندما ينزل إلى مستوى الشارع ويثقف الجمهور يحصّنه من أمثال هذه الفتن ... والجمهور الذي يمتلك درجة عالية من الوعي السياسي يمتلك درجة عالية من الحصانة تجاه العوامل الإعلامية والسياسية المضللة، ولا تحتوشه الفتن.

والجمهور غير الموجّه، وغير الراشد، هو الوسط الخصب، والتربة الصالحة لأمثال هذه الفتن. وعن طريق التوعية والتثقيف السياسي يمكننا أن نحافظ على سلامة الجمهور ورشده.

والجمهور كما هو تربة صالحة للفتن والضوضاء، كذلك هو وعاء صالح للوعي والعقل والسداد والتقوى .. ويمتلك أعماقاً سليمة من الفطرة لم ينفذ إليها الفساد، والقادة الحقيقيون هم الذين يدركون هذا العمق الفطري السليم للجمهور، ويقودون الجمهور إلى صراط الله المستقيم والتقوى، ويحذرونه من مغبّة الوقوع في أمثال هذه الفتن، ويفلحون في ذلك.

إن الثقة بالجمهور، وكفاءاته الكثيرة، وسلامة فطرته، هو رأس مال أولئك القادة الذين يعرفون كيف يخاطبون الجمهور، وكيف يكسبونه .. بعد الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه والاطمئنان إلى وعده بالنصر وتأييده للقلّة المؤمنة في مواجهة أمثال هذه الفتن والتحديات.

الوعي والخطاب

ولابد للوعي من خطاب، كما أن للتضليل السياسي خطاب، ولإثارة الفتنة بين الناس خطاب، ولتغرير الناس وتجهيلهم خطاب، كذلك للوعي خطاب.

ولغة هذا الخطاب لغة العقل، وهي اللغة المفضّلة في خطاب الوعي ... إن العاطفة جزء ضروري من خطاب الجمهور لاشك في ذلك، ولكن من الخطأ الاقتصار على العاطفة في خطاب الجمهور .. ولابد من استخدام لغة العقل في خطاب الناس، إلى جانب لغة العاطفة، ولابد أن تكون لغة العقل هي الحاكمة وهي الأصل، ولغة العاطفة تأتي في امتداد لغة العقل، ولإسناد العقل عندئذ يكون الخطاب العاطفي خطاباً صالحاً للجمهور ... وأمّا عندما يتمحّض خطاب الجمهور في الخطاب العاطفي فلا يكون مثل هذا الخطاب خطاباً راشداً أميناً غالباً، ولا يكون قادراً على توجيه الجمهور إلى الوجهة الصحيحة ...

إن مشكلة الخطاب الإسلامي المعاصر لدى أصحاب التوجهات الطائفية المعاصرة هي الحالة العاطفية الطاغية على هذا الخطاب والحالة الشعارية، ورفض لغة العقل، وحالة الانغلاق على الرأي الآخر، ورفض الطرف الآخر، رفضاً مطلقاً إلى حدود التكفير واستباحة الدماء التي حرّمها الله تعالى إلا بحقها، وقد يكون استجابة الجمهور أحياناً إلى الخطاب الشعاري والعاطفي أسرع من استجابتهم للخطاب العقلاني الرافض للعاطفة .. ولكن يبقى استخدام لغة العاطفة والشعار محضاً وحصراً في خطاب الجمهور- خيانة للجمهور مهما كانت استجابتهم لهذا الخطاب، واستخدام لغة العقل ومحكمات الدين في خطاب الجمهور هو الموقف الناصح الأمين من الجمهور، وإن واجهه الجمهور أحياناً بالرفض.

وعلى علماء المسلمين أن يتقوا الله في الخطاب، ولا يبتغوا مرضاة الناس في ذلك، فقد يكون في الناس من يستجيب للشعار والعاطفة، وقد يكون الخطاب العاطفي والشعاري أسرع قبولًا في وسط الجمهور .. ولكنه على كل حال خيانة يجب أن يحذرها العلماء الراشدون.

والجمهور الذي يتثقف من خلال الخطاب العقلائي اكثر ثباتاً وصلابة في الموقف، والجمهور الذي يتلقى الخطاب العاطفي الشعاري

جمهور متقلب فى الرأى، لا يثبت على موقف ورأى، ومسؤولية هذه الحالة المتقلّبة على عهدة الخطاب العاطفى والشعارى الذى يتلقاه هذا الجمهور من حملة الخطاب الطائفى المتشنّج.

مصدر الخطاب

وكما يجب الاهتمام بلغة الخطاب فى حياتنا الثقافية والسياسية المعاصرة، كذلك يجب الاهتمام بمصدر الخطاب ... هناك خطابات سياسية وثقافية كثيرة معاصرة صادرة من (الولاءات) المنتحلة الوهمية، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وهى ولاءات منتحلة كاذبة فى مقابل الولاء لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وللمؤمنين، وهو الولاء الراشد الصحيح الذى جاء به الوحى من عند الله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (١) ... وهذا هو الولاء الحق الذى جاء به رسول الله ٩ من عند الله، وهو الولاء الذى يوحّد صف المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة فى صف مرصوص، مقابل أعداء هذه الأمة.

وللقضاء على هذا الولاء بادر أعداء هذا الدين إلى طرح ولاءات أخرى فى مقابل الولاء لله ولرسوله ولأولياء الأمور وللمؤمنين، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وبذلوا أموالًا طائلة لتثبيت هذه الولاءات فى ثقافة المسلمين المعاصرة، من خلال المدرسة، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، وإحياء المآثر الفرعونية والبابلية والكسروية والفينيقية .. إلى غير ذلك.

من خلال هذه الثقافات عملوا على زرع ولاءات وهمية، قومية ووطنية .. مقابل الولاء لله ولرسوله.

١- المائدة: ۵۵.

ص: ۲۶

ونحن عندما نتحدث عن الخطاب السياسى الذى يجب أن نلقيه إلى جمهورنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار مصدر هذا الخطاب ... هذا الخطاب يجب أن يكون صادراً عن الولاء لله ولرسوله فى قوله تعالى:

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا (۱)

وقوله تعالى: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۲).

وقوله تعالى: وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۳).

وقوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۴).

وقوله تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ (۵).

وقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ (۶).

وقوله تعالى: وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (۷).

وقوله تعالى: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ (۸).

وقوله تعالى: وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ (۹).

أمّة واحدة، وطاعة واحدة، وولاء واحد.

إن لكل ولاء خطاب، وخطاب كل ولاء يختلف عن الخطاب الآخر، ونحن ولاؤنا لله ولرسوله ولأولياء الأمر وللمؤمنين وليس للوطن والقوم والعشيرة .. ولهذا الولاء خطاب يختلف عن خطاب الولاء للقوم والوطن.

ونحن لا نرفض الارتباط بالقوم والوطن إلا أن هذا الارتباط من الانتماء وليس من الولاء، والولاء يحكم الانتماء .. فقد حارب المسلمون صدر الإسلام أهلهم وآباءهم وإخوانهم من مكة فى الله.

وخطابنا إلى جمهور أمتنا- فى السراء والضراء- يجب أن ينطلق من هذا المصدر، وهو الخطاب الذى يجمع الشمل، ويزرع المحبة والمودة فى القلوب، ويؤسس التفاهم والتعاون فى الأفكار والأعمال.

الصدق والنصح فى الخطاب

ويجب أن يكون الخطاب صادقاً ناصحاً .. وفى خطابنا المذهبى الطائفى المعاصر الكثير من الكذب والافتراء .. ومن يقرأ بعض أدبيات الفتنة الطائفية المعاصرة يجد نماذج كثيرة من هذا الافتراء والكذب، ومن أمثلة هذا الافتراء: الافتراء على الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وهم ينفون عن أنفسهم هذه التهمة، ويصرحون ويكتبون عن صيانة القرآن عن التحريف.

ولو أنك سبرت بلاد المسلمين فى كل العالم لا تجد غير هذا القرآن قرآناً يتلوه الناس ويتعبدون به فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكم يتبادل المسلمون من المذاهب المختلفة الافتراءات فيما بينهم من غير هدى ولا بيّنة.

ولا تختصّ هذه الافتراءات بين الشيعة والسنة، وإنما يتم بين الشيعة أنفسهم، والسنة أنفسهم بما لا يقلّ عما يجرى بين الشيعة والسنة ... وهذا الخطاب الطائفى ينقصه الصدق والنصح ..

ينقصه الصدق؛ لأن علماء المسلمين من جميع المذاهب يكتبون ويعلنون ويصرحون أن ليس لله على وجه الأرض كله قرآن غير هذا القرآن، الذى يتلوه المسلمون صباحاً ومساءً.

وينقصه النصح؛ لأن المسلم الذى يهمه أمر وحدة المسلمين وانسجامهم، والذى يأمر الله تعالى به ورسوله لا ينال مذاهب المسلمين بهذا اللون القاسى من الجرح والتشهير والتسقيط، من دون تثبت علمى، بل مع إعلانهم البراءة عما ينسب إليهم من الافتراء.

الشجاعة والصراحة فى الخطاب

۱– المائدة: ۵۵.

۲– الأنبياء: ۹۲.

۳– المؤمنون: ۵۲.

۴– آل عمران: ۱۰۳.

۵– التوبة: ۷۱.

۶– الحجرات: ۱۰.

۷– الأنفال: ۴۶.

۸– النساء: ۵۹.

۹– الأنفال: ۷۲.

ص: ۲۷

إن مواجهة ظروف الفتنة الطائفیة الیوم تستدعی شجاعة وصراحة فی الخطاب وما لم یمتلک حَمَلَةُ الخطاب الإسلامی هذه الشجاعة والصراحة لا یتمكنون من مواجهة الفتنة الطائفیة المعاصرة واستئصالها.

إن الحالة التكفیریة المعاصرة واستباحة دماء المسلمین بغیر الحق عودة للحالة الخارجیة التی ظهرت صدر الإسلام فی حرب صفین والنهروان فی أیام خلافة أمیر المؤمنین ۷، وولادة جدیدة لنفس الحالة.

وهذه الحالة آخذة بالتوسع والنفوذ إلی داخل الحركة الإسلامیة المعاصرة .. ولابد أن یمتلک تجاه هذه الحالة علماء المسلمین الجرأة والشجاعة والصراحة الكافیة فی بیان موقف الإسلام من هذه الجماعة ومن هذه الحالة التی تُعدّ انزلاقاً خطیراً للحركة الإسلامیة المعاصرة.

والتردد والتریث فی مثل هذا البیان یؤدّی إلی استشراء هذه الحالة وتوسعها، وإلی حدوث انزلاقات خطیرة فی الحركة الإسلامیة المعاصرة بهذا الاتجاه.

وقد حرّم الإسلام دم المسلم وماله إذا كان یشهد بالتوحید لله والنبوة لرسول الله قولًا واحداً بین فقهاء المسلمین.

روی مسلم فی الصحیح فی فضائل علی ۷: عندما دعا رسول الله ۹ علیاً فی فتح خیبر فأعطاه الرایة وقال له: امش ولا تلتفت حتی یفتح الله علیک، قال: فسار علی شیئاً ثم وقف ولم یلتفت فصرخ:

یا رسول الله! علی ماذا أقاتل الناس؟

قال: قاتلهم حتی یشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلک فقد منعوا منک دماءهم (۱).

وفی الصحیحین بالإسناد إلی مقداد بن عمرو: أنه قال: یا رسول الله! أرأیت إن لقیت رجلًا من الكفار، فاقتتلنا فضرب إحدی یدی بالسیف، فقطعها، ثم لاذ منی بشجرة، فقال: أسلمت لله، فأقتله یا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ۹: لا ـ تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتک قبل أن تقتله، وإنک بمنزلته قبل أن یقول كلمته التی قال (۲).

وأخرج البخاری فی بعث علی ۷ وخالد إلی الیمن: أن رجلًا قام فقال: یا رسول الله! اتق الله، فقال ۹: ویلک ألست أحق أهل الأرض أن یتقی الله، فقال خالد: یا رسول الله! ألا أضرب عنقه؟ فقال ۹: لا، لعله أن یكون یصلی (۳).

وعن أمیر المؤمنین ۷ أنه قال: «قال رسول الله ۹: أمرت أن اقاتل الناس حتی یقولوا: لا ـ إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم علیّ دماءهم وأموالهم» (۴).

وعن أبی هریرة قال: قال رسول الله ۹:

«أُمرت أن اقاتل الناس حتی یقولوا: لا ـ إله إلا ـ الله فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا منی دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم علی الله» (۵).

وعن أبی عبدالله الصادق ۷ أنه قال: «الإسلام یُحقن به الدم» (۶).

وعنه ۷ أنه قال: «شهادة أن لا إله إلا الله والتصدیق برسول الله ۹ به حُقنت الدماء وعلیه جرت المناكح والمواریث» (۷)

وعن رسول الله ۹ أنه قال: «من وحّد الله وكف بما یعبد من دونه حَرُم ماله ودمه وحسابه علی الله» (۸).

وعن أبی عبدالله الصادق ۷ أیضاً عن رسول الله ۹ أنه قال: «أیها الناس! إنّی أمرت أن أقاتلكم حتی تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنی محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلک حقنتم بها أموالكم ودماءكم إلا بحقّها وكان حسابكم علی الله» (۹).

وروی الدارمی عن رسول الله ۹ أنه قال: «إنّی أمرت أن اقاتل الناس حتی یقولوا: لا ـ إله إلا ـ الله، فإذا قالوها حرمت علیّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم علی الله» (۱۰).

عن أبی سعید الخدری قال: وجد قتیل علی عهد رسول الله ۹ فخرج مغضباً حتی رقی المنبر فحمد الله وأثنی علیه، ثم قال: «یقتل رجل

من المسـلمين لا يُدرى من قتله، والذى نفسـى بيده لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله فى النار» (۱۱).

وروى مسـلم بن الحجاج فى (الصـحيح) روايتين عن رسول الله ٩ نعرف منهما عظيم حرمـة «لا إله إلا الله» وحرمـة القائل بها، ولو كان القائل بها قد تظاهر بها ليحمى نفسه من القتل، وأنّ هذه الكلمة تعطى قائلها وحاملها من الحرمة ما لا يجوز لأحد انتهاكه إلا بحقه.

روى مسـلم أن رسول الله ٩ بعث بعثاً من المسـلمين إلى قوم من المشـركين، وأنهم التقوا فكان رجل من المشـركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسـلمين قصد له فقتله، وإن رجلًا من المسـلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السـيف قال: لا إله إلا الله فقتله، فجاء البشـير إلى النبى ٩، فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صـنع، فـدعاه فسأله قال: لِمَ قتلته؟ قال: يا رسول الله! أوجع فى المسلمين وقتل

۱- صحيح مسلم ۱۸۷۱: ۴- ۱۸۷۲ كتاب فضائل الصحابة.

۲- صحيح البخارى ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴؛ وصحيح مسلم ۹۵: ۱ كتاب الإيمان ح ۱۵۵، عدا الجملة الأخيرة.

۳- صحيح البخارى ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴؛ ومسند أحمد ۱۰: ۴- ۱۱.

۴- بحار الأنوار ۲۴۲: ۶۸.

۵- صيحح مسلم ۵۲: ۱، كتاب الإيمان، الباب ۸، ح ۲۵.

۶- المحاسن: ۲۸۵، وبحار الأنوار ۲۴۳: ۶۸.

۷- الكافى ۲۵: ۲، وبحار الأنوار ۲۴۸: ۶۸.

۸- مسند أحمد بن حنبل ۴۷۲: ۳.

۹- المحاسن: ۲۸۴، بحار الأنوار ۲۸۲: ۶۸.

۱۰- سنن الدارمى ۲۱۸: ۲، ورواه بلفـظ قريب منه عن رسول الله ٩ البخارى فى ۵۷: ۱ من الصحيح فى فضل استقبال القبلة، وأبو داود فى السنن ۴۱: ۲- ۴۲ باب على ما يقاتل المشـركون، وأحمد بن حنبل فى المسند ۱۹۹: ۳، و ۴۴۵: ۲، ۳۳۹: ۳، و ۸: ۴- ۹، وابن ماجة فى السنن ۱۲۸۵: ۲- ۱۲۸۶، والنسائى فى السنن ۱۰۹: ۸.

۱۱- بحار الأنوار ۱۵۰: ۷۵.

ص: ۲۸

فلاناً وفلاناً وسمّى له نفراً، وإنّى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ٩: أقتلته؟ قال: نعم، قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: يا رسول الله! استغفر لى، قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة (۱).

وروى مسلم أيضاً عن أسامة بن زيد أنه قال:

«بعثنا رسول الله ٩ فى سرية فصبحنا الحرقات (۲) من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا ـ إله إلا الله، فطعنته، فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للنبى ٩ فقال رسول الله ٩: أقال لا إله إلا الله وقتلته! قال: قلت: يا رسول الله! إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فمازال يكررها علىَّ حتى تمنّيت أنى أسلمت يومئذ» (۳).

ورغم أن القتيل كان مقاتلًا يقاتل المسلمين فى صفوف الكافرين حتى اللحظة الأخيرة، ونطق بكلمة التوحيد فى اللحظة الأخيرة عندما وجد السيف على رأسه، وواضح من كل القرائن أن الرجل شهد ب- لا إله إلا الله خوفاً من القتل وليس عن إيمان، كما قال أسامة بن زيد .. إلا أن رسول الله ٩ غضب غضباً ظاهراً، وأنكر على أسامة بشدة وقوة، وكرّر إنكاره على أسامة حتى تمنى أسامة أن يكون قد أسلم فى ذلك اليوم حتى يكون الإسلام قد جب من ذنوبه ما سبق.

خطبة رسول الله ٩ بمنى

وهذه الخطبة ألقاها رسول الله ٩ فى جموع المسلمين الغفيرة بيوم النحر بمنى، وقد روى هذه الخطبة ثقات المحدثين بألفاظ متقاربة، ونحن ننقل الخطبة برواية الإمام أبى عبدالله الصادق ٧ ونشير إلى جملة من المصادر التى تروى هذه الخطبة:

عن زيد الشحّام عن أبى عبدالله الصادق ٧ أنه قال:

«إن رسول الله ٩ وقف بمنى حين قضى مناسكها فى حجة الوداع فقال: أيها الناس! اسمعوا ما أقول لكم واعقلوه عنى فإنى لا أدر لعلّى لا ألقاكم فى هذا الموقف بعد عامنا هذا، ثم قال: أىُّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم، قال: فأىّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر، قال: فأىّ بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد، قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، فإنه لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفّاراً» (۴).

ثانياً: الجماعة، واللقاء، والحوار

هذه ثلاثة عناوين يحبها الله تعالى، وهى أساس التقريب والتفاهم وجمع الشمل وهى:

(الجماعة) و (الاجتماع واللقاء) و (الحوار والتفاهم).

وهذه الثلاثة هى الأداة المفضلة فى دين الله لمكافحة الفتن الطائفية، وإزالة التقاطعات، والوصول إلى الانسجام والتفاهم والتعاون.

وسوف نشرح هذه الثلاثة، ونقف وقفات قصيرة عند كل واحدة منها:

الجماعة (الأمّة)

نقصد بالجماعة: الأمّة الإسلامية الواحدة، وتتميز هذه الأمّة من سائر الأمم فى العقيدة والشريعة والرسالة، ورسالتها التعاون والتضامن الاجتماعى على أداء هذه الرسالة والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ...

قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى (۵)

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۶).

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (۷).

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ

أَولئِکَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٨).

هؤلاء، جماعة هذه الأمة، يحملون هماً واحداً، ومسؤولية واحدة، هى الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهم أُسرة واحدة، متعاونة ومتفاهمة ومتعاطفة بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ، وهم يؤمنون جميعاً بالله ورسوله، ويطيعون الله ورسوله، فإن الدعوة إلى الله ورسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يكون إلا مع الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله.

۱- صحيح مسلم ۶۸: ۱- ۶۹.

۲- الحرقات بضم المهملة والراء وقاف بعدها من جهينة، هم بنو حميس بن عمرو بن ثعلبة بن مودوعة بن جهينة، كما فى جمهرة ابن حزم: ۴۴۶.

۳- صحيح مسلم ۶۷: ۱.

۴- روى هذه الخطبة جمع غفير من الحفاظ والمحدّثين من الفريقين، ولشهرتها نعرض عن ذكر مصادر الخطبة.

۵- يوسف: ۱۰۸.

۶- آل عمران: ۱۰۴.

۷- آل عمران: ۱۱۰.

۸- التوبة: ۷۱.

ص: ۲۹

إذن، هذه الجماعهٔ تحمل ثلاث خصال:

۱- الإیمان بالله ورسوله، وطاعهٔ الله ورسوله.

۲- الدعوهٔ إلی الله والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر وإقامهٔ الصلاهٔ ..

۳- التفاهم والتعاون والتعاضد والتواصی بالحق والصبر فیما بینهم.

إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (۱)

وعلیه فإن مفهوم (الجماعهٔ) بهذا التوضیح یلتقی مع مفهوم (الأمهٔ).

وهذه الأمهٔ أمهٔ واحدهٔ، ولیست أمماً شتی، لا ریب فی ذلک.

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّهً واحِدَهً وَأَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ (۲).

وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّهً واحِدَهً وَأَنَا رَبُّکُمْ فَاتَّقُونِ (۳).

وهذه الأمهٔ بعرضها العریض أمّهٔ واحدهٔ، لها عقیدهٔ واحدهٔ وشریعهٔ واحدهٔ ومنهاج واحد، ودعوهٔ واحدهٔ، وسبیل واحد، ورسالهٔ واحدهٔ، یؤدّونها مجتمعین.

وهذه الوحدهٔ والاجتماع فی الأداء، وتحمّل المسؤولیهٔ، والعقیدهٔ والشریعهٔ والدعوهٔ، والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر هی التی تجعل من هذه الأمهٔ جماعهٔ واحدهٔ.

وقد ورد التأکید علی هذا الاجتماع والوحدهٔ فی الأداء والوحدهٔ فی الموقف والعمل فی آیات عدیدهٔ من القرآن.

منها قوله تعالی: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِیعاً فإن الآیهٔ الکریمهٔ تحمل معنیین:

الاعتصام بحبل الله، وهذا هو المعنی الأول، وأن یکون هذا الاعتصام من قبل الجمیع (جمیعاً) وهذا هو المعنی الثانی.

ومنها قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِی السِّلْمِ کَافَّهً (۴).

والآیهٔ الکریمهٔ کذلک تحمل معنیین:

۱- الدخول فی السلم.

۲- وأن یکون هذا الدخول من قبل الجمیع (کافهٔ).

وقد ورد التأکید فی أحادیث کثیرهٔ متظافرهٔ علی لزوم الجماعهٔ، منها ما رواه الفریقان عن رسول الله ۹ فی الخطبهٔ التی خطبها فی مسجد (الخیف) بمنی عام حجهٔ الوداع، والیک هذا الخطاب النبوی الشریف:

«نضر الله عبداً سمع مقالتی فوعاها، وبلغها من لم تبلغه، فرب حامل فقه لیس بفقیه، ورب حامل فقه إلی من هو أفقه منه.

ثلاث لا یغل علیهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصیحهٔ لأئمهٔ المسلمین، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محیطهٔ من ورائهم، المؤمنون أخوهٔ تتکافأ دماؤهم، وهم ید علی من سواهم، یسعی بذمتهم أدناهم» (۵).

وهذا خطاب شریف یتضمن ثلاث دعوات، وأیهٔ دعوات؟

۱- الإخلاص فی العلاقهٔ بالله.

۲- والنصیحهٔ فی العلاقهٔ بأئمهٔ المسلمین وأولیاء الأمر:.

۳- واللزوم لجماعهٔ المسلمین فی العلاقهٔ بالأُمهٔ.

وسلامهٔ الفرد والمجتمع بسلامهٔ هذه العلاقات الثلاث:

۱- العصر: ۳.

۲- الأنبياء: ۹۲.

۳- المؤمنون: ۵۲.

۴- البقرة: ۲۰۸.

۵- بحار الأنوار ۶۹: ۲۷، ح ۷.

ص: ۳۰

۱- العلاقة بالله.

۲- والعلاقة بأئمة المسلمين.

۳- والعلاقة بجماعة المسلمين.

فإذا سلمت علاقة الفرد بهذه المحاور الثلاثة يسلم الفرد وتسلم الأمة.

اللقاء والاجتماع

ورد فى النصوص الإسلامية التأكيد على اللقاء والاجتماع والنهى عن الاختلاف والتفريق والتقاطع داخل الجماعة المسلمة، والنهى عن الخروج عن جماعة هذه الأمة والشذوذ عنها.

عن رسول الله ٩: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة» (۱).

وعنه ٩: «اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة. فعليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله أمتى إلا على هدى، واعلموا أن كل شيطان (: البعيد من الحق) هوى فى النار» (۲).

وعنه ٩ أيضاً: «لا يجمع الله أمر أمتى على ضلالة أبداً، اتبعوا السواد الأعظم، من شذّ فى النار» (۳).

وعن أمير المؤمنين ٧: «الزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب، فلا تكونوا أنصاف الفتن، وأعلام البدع، والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة» (۴).

وعن الإمام الصادق ٧ أنه قال: «إن قوماً جلسوا عن حضور الجماعة فهمّ رسول الله ٩ أن يشعل النار فى دورهم حتى خرجوا وحضروا الجماعة مع المسلمين» (۵).

وقد جعل الله تعالى فى لقاء المؤمنين رحمة وبركة وخيراً، وجعل اللقاء والحوار من منازل رحمته وبركاته ...

كما أن الشيطان يجعل من التباعد سبباً للنفور والقطيعة والخلاف.

واللقاء لا يتمّ من غير حوار عادة، فهما متلازمان من ناحية اللقاء. وقد رأينا بركات كثيرة فى اللقاءات الأخيرة المعاصرة التى تمت فى إيران بعد قيام نظام الجمهورية الإسلامية ... بين المذاهب الإسلامية، فقد كانت هذه اللقاءات مصدر خير كثير فى حياة هذه الأمة، تعارف خلالها بعضهم على بعض، وتحاببوا، ووجدوا فرصاً واسعة للتفاهم والتعاون، لم يكونوا يعرفوها من قبل ... فى هذه اللقاءات ارتفع كثير من اللبس والغموض الذى كان ينظر من خلاله بعضهم إلى بعض من قبل، واكتشفوا مساحات مشتركة واسعة جداً فى الفكر والثقافة والمعرفة، كانوا يعدونها من قبل مما ينفرد بها بعضهم عن بعض.

(الجماعة) و (الجمعة)

إن اجتماع المؤمنين واللقاء بينهم أمر يحبّه الله تعالى، وما يحبّه الله يجعل فيه البركة والخير، ويجعله من منازل رحمته.

وهذا اللقاء، وما يستتبعه من الحوار يدخل فى صلب التشريع .. فقد شرَّع الله فى هذا الدين للمسلمين (الجماعة) و (الجمعة) و (الحج) ..

ويدخل فى (الجمعة) صلاة العيدين: الفطر والأضحى.

وهذه الثلاثة: (الجماعة، والجمعة، والحج) تجمعات إسلامية ثلاثة تجمع المسلمين من مختلف المذاهب والاتجاهات والاجتهادات .. ولاشك أن الحالة العبادية والذكر جزء لا يتجزأ من هذه الثلاثة ... إلا أن حالة اللقاء والاجتماع أمر مقصود فى هذه التشريعات الثلاثة من دون شك.

ورغم أن الإنسان يُقبل على صلاته فى الخلوات أكثر من الإقبال عليها فى الاجتماعات ... مع ذلك كله يفضّل الإسلام إقامة الفرائض اليومية جماعة على الانفراد، وذلك نظراً لأهمية التقاء المؤمنين وتواجدهم فى ساحة واحدة.

وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أن رسول الله ۹ هدد أقواماً کانوا مقاطعین لصلاة الجماعة فی المدینة بأن یحرق بیوتهم، کما فی الروایة.

روی الشیخ الطوسی فی التهذیب عن الصادق ۷: «أن أناساً کانوا علی عهد رسول الله ۹ ابطؤوا عن الصلاة فی المسجد، فقال رسول الله ۹: لیوشک قوم یدعون للصلاة (یَدَعون الصلاة ظ) فی المسجد أن نأمر بحطب فیوضع علی أبوابهم فتوقد علیهم النار فنحرق علیهم بیوتهم» (۶)

وکذلک الاهتمام بأمر (الجمعة) فی الإسلام وتحشید المؤمنین من کل منطقة فی جامع عام لإقامة الجمعة، وقد روی عن الإمام الباقر ۷:

۱- میزان الحکمة ۷۶۵: ۱.

۲- کنز العمال ۲۰۵: ۱ ح ۱۰۲۵.

۳- میزان الحکمة ۴۰۶: ۱.

۴- نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷.

۵- مستدرک الوسائل ۴۵۰: ۶.

۶- التهذیب ۲۵: ۳، ووسائل الشیعة ۳۷۶: ۵، نقلًا عن میزان الحکمة ۴۱۰: ۵.

ص: ۳۱

«صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض، من غير علة إلا منافق» (۱).

واجتماع الحج هو الاجتماع الأوسع للأمة كلها، تجتمع فى موعد واحد ومكان واحد، لإقامة هذه الفريضة، وهو أوسع اجتماع يعرفه الناس على وجه الأرض .. يقيمه المسلمون فى كل عام تلبية لأذان أبيهم أبى الأنبياء إبراهيم ۷ وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲).

الجماعة والجمعة تجمعان كل الشرائح والمذاهب

وقد حرص الإسلام أن يحضر المسلمون بكل مذاهبهم واتجاهاتهم هذه الاجتماعات الثلاثة لأداء الفريضة اليومية وصلاة الجمعة وفريضة الحج مجتمعين.

وكان أئمة أهل البيت: يؤكدون لشيعتهم حضور الجماعات والجمعات لأهل السنة.

عن الإمام الصادق ۷: «من صلّى خلفهم كان كمن صلّى خلف رسول الله ۹».

وفى حديث آخر عنه ۷: «إذا صليت معهم غُفِرَ بعدد من خالفك فى قراءة البسملة وحضر الصلاة فى المسجد».

وذلك أن الأحناف من أهل السنة يلغون البسملة فى القراءة، على خلاف مذهب أهل البيت: فى اعتبار البسملة جزءاً من كل سورة، إلا سورة التوبة.

ويشكو أحد الرواة إلى الإمام الصادق ۷ حاله فى حضور صلوات جماعة أهل السنّة يقول: إن لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم، فقال ۷: «ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكن أنت أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقل خيراً».

ويقول الإمام الصادق لإسحاق بن عمار: «يا إسحاق! أتصلى معهم فى المسجد؟ قال: قلت: نعم، قال: صلّ معهم فإن المصلى معهم فى الصف الأول كالشاهر سيفه فى سبيل الله».

إن من الضرورى تعبئة الجماعات والجمعات بحضور الشرائح الإسلامية المختلفة من كل المذاهب والطوائف الإسلامية، وكسر الحواجز الطائفية والمذهبية فيهما.

ومن الضرورى أن يكون خطاب أئمة الجمعات والجماعات خطاباً تقريبياً وحدوياً توحيدياً، يكسب كل الفرق والطوائف الإسلامية، ولا يفرّقهم ولا يُنَفِّرُهم.

ومن الضرورى تعبئة الحج بالحوار الهادف الموجّه بين المسلمين فى شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية.

مساحات اللقاء والحوار

أهم مساحات اللقاء والحوار هى المساحة الثقافية والمعرفية والمساحة السياسية والمساحة الاقتصادية.

المساحة الثقافية والمعرفيّة

اللقاء، والحوار الموجّه فى شؤون الثقافة والمعرفة يؤدى إلى تقريب وجهات النظر من المذاهب الإسلامية فى شؤون المعرفة والعلم، كالفقه واصول الفقه والكلام والتفسير.

ويؤدى إلى اكتشاف مساحات مشتركة بين المذاهب الإسلامية فى مختلف أبواب المعرفة، ويتبين لهم أن الخلاف فى ما بين المذاهب الإسلامية فى هذه المسائل لم يكن إلا خلافاً لفظياً، وهم متفقون على جوهر هذه المسائل.

كما يؤدى إلى التكامل والتلاقح العملى لدى الجميع.

وقد كانت هذه الطريقة مألوفة لدى العلماء وطلبة العلوم من المذاهب الإسلامية المختلفة فى التردد على المدارس والحوزات العلمية

المختلفة لتلقى العلم، رغم اختلاف المذاهب .. وكان لهذا الترافد العلمى والثقافى أثر كبير فى إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية وتكامل العلوم والمعارف لدى المسلمين.

المساحة السياسية

المساحة السياسية مساحة واسعة ... وهذه المساحة اليوم أصبحت مساحة لهواة السياسة والانتهازيين واللاعبين الدوليين فى السياسة، وأن للسياسة لاعبين، يلعبون فى هذه الساحة كما يلعب اللاعبون من هواة الشعبذة والمسرح .. ويقيسون العمل السياسى ويفهمونه ويقيّمونه بنفس المقاييس التى

۱- وسائل الشيعة ۴: ۵ نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۲۶: ۵.

۲- الحج: ۲۷.

ص: ۳۲

يفهم فيها الناس ألعاب التمثيل السينمائى والشعبذة .. يكذبون ويُكَذّبون حتى يصدقهم الناس، ويستخدمون بيوت أموال المسلمين بسخاء لكسب آراء الناس، ويبطلون الحقائق، ويحققون الزيف والكذب والباطل، بأدوات الكذب والتضليل والتغرير.

وللأسف، الساحة السياسية فى العالم اليوم تحكمها هذه العصابات، إلا ما ندر وشذّ، ولا نطيل فى هذا الحديث، وسوف يطول موقفنا بين يدى الله تعالى يوم السؤال الأكبر والمحاسبة الكبرى وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ (۱) تجاه هذه القضية.

فقد عرف الناس الظالمين، وسكتوا عنهم، وجاروهم وتعاونوا معهم، ولم يحركوا ساكناً، ولم يزعجوهم بموقف أو كلمة، وتركوهم يمرحون ويلعبون بمصالح هذه الأمة وقضاياها الكبرى، وينهبون ثرواتها، ويمكّنون أنظمة الاستكبار العالمى من بلاد المسلمين، إلا القليل النادر، الذين نهضوا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجابهوهم بكلمة الحق، وكسروا كبرياءهم وأذلوا غرورهم .. وهؤلاء قلة فى هذه الأمة، ولكنّها قلة مباركة.

والسبيل الوحيد إلى طرد هذه العصابات السياسية الانتهازيّة من الساحة الإسلامية السياسية هو حضور جمهور المسلمين فى هذه الساحة، حضور إيمان ووعى وعطاء.

إنّ حضور الجمهور فى الساحة يغيّب هذه العصابات، ويسلب منهم الأضواء التى يتألّقون بها، ويكشفهم ويعرّيهم.

وهذا الحضور عبادة، بحكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنّه يطرد حملة المنكر من الساحة، ويفتح المجال للمعروف والعاملين به.

هذا الحضور عبادة، كما أن الصلاة والصيام عبادة، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

شريطة أن يكون هذا الحضور عن وعى وبصيرة، وليس حضوراً غوغائياً انفعالياً، وبشرط أن يحمل هذا الحضور خصلة المقاومة والعطاء، وليس حضوراً واهياً ضعيفاً انفعاليّاً تفرّقه طلقات من الرصاص والغازات المسيلة للدموع.

وبشرط أن يكون هذا الحضور حضوراً وحدوياً، تتجسّد فيه وحدة الصف.

ويتم الحوار فيه على أساس مصلحة الإسلام الكبرى، ويتعامل الجمهور فى هذه الساحة من منطلق (الأمة الواحدة)، ويتفقون فيها على موقف واحد ورأى واحد.

إنّ مثل هذا الحضور واللقاء والحوار عندما يعمّ الساحة الإسلامية وينتشر فى العواصم والحواضر والمراكز الإسلامية، يكون له دور كبير فى توجيه قضايانا السياسية ... ولست أريد أن أَشُطّ فى الخيال وأقول: إن حضور الناس فى الساحة سوف يؤدى إلى تغيير شامل لأوضاعنا السياسية الفاسدة فى العالم الإسلامى، ولكننى أقول: إنّ هذا الحضور الواحد الشامل سوف يُعدّل كثيراً من قرارات الأنظمة السياسية الكبرى، مثل قرار (التطبيع)، وتبادل السلام بالأرض فى فلسطين، والموقف من الاحتلال الأمريكى للعراق وأفغانستان، والموقف من المسألة النووية الإيرانية، والموقف السلبى الذى اتخذته الأنظمة العربية من (حماس) فى خلافها مع (منظمة التحرير الفلسطينية)، تبعاً للموقف الأميركى- الأوروبى- الإسرائيلى، والموقف من التأييد الأمريكى لإسرائيل والرفض الأمريكى للمقاومة الإسلامية فى لبنان وفلسطين (حزب الله وحماس والجهاد)، والتفكيك بين (المقاومة) و (الإرهاب)، واحترام الأول وتبنّيه ونبذ الثانى ورفضه ...

إنّ مثل هذا اللقاء والحوار فى الساحة الإسلامية العريضة من أهم ضرورات المرحلة، شريطة أن نحصّن هذا اللقاء والحوار من نفوذ الأنظمة واختراقاتها، فإن الأنظمة الحاكمة فى العالم الإسلامى، تملك من وسائل اختراق الساحة ما يهدّد وحدة الساحة ووعيها، ويؤدى إلى تفريقها وتضليلها، وقد شاهدنا فى حياتنا السياسية المعاصرة نماذج كثيرة من هذا الاختراق والتضليل والتجهيل والتفريق.

شروط اللقاء والحوار

ولكى يكون هذا اللقاء والحوار نافعين يجب أن تتوفر فيهما الشروط التالية:

۱- تقديم مصلحة الإسلام العليا ..

فقد تتدافع الأطراف الإسلامية فيما بينها، ولا يصلون إلى قناعة مشتركة، عند ذلك يجب عليهم أن يقدّموا المصلحة الإسلامية العليا على كل مصلحة .. وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٧ قدوة لكل المسلمين فى ذلك .. يقول ٧ فيما جرى عليه من بعد رسول الله ٩ فى تقديم الآخرين عليه فى أمر الولاية والخلافة وتنحيته عن حقه فى هذا الأمر:

«فوالله ما كان يلقى فى روعى، ولا يخطر ببالى أن العرب تُزعج هذا الأمر من بعده ٩ عن أهل بيته، ولا أنهم مُنحّوه عنى من بعده، فما راعنى إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدى (عن البيعة)، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدْعُون إلى محق دين محمد ٩، فخشيت إنْ لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة بها علىّ أعظم من فوت ولايتكم» (٢).

۲- حسن الظن فى التعامل والحوار

۱- الصافات: ۲۴.

۲- نهج البلاغة، كتاب رقم: ۶۲.

ص: ۳۳

إن سوء الظن إذا استولی علی الناس فی علاقة بعضهم ببعض أفسد اللقاء، وکانت نتائج اللقاء سلبیة .. وإن سوء الظن آفة کل لقاء وحوار وعمل مشترک ... وقد نهانا الله تعالی عن سوء الظن فی دائرة العلاقات التی تربط المسلمین بعضهم ببعض، بقول الله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (۱).

إن تعاطی سوء الظن فی العلاقة یفسد العلاقة ویلغیها.

۳- العقلائیة فی اللقاء والحوار:

عندما نکون فی منعطف تاریخی حساس، کالمنعطف الذی تعیشه الأُمّة الإسلامیة الیوم.

وعندما تکون الأمة الإسلامیة ناهضة، وتخوض صراعاً مریراً فی مواجهة الأنظمة المرتبطة بعجلة الاستکبار العالمی وأنظمة الاستکبار العالمی التی تقف خلف هذه الأنظمة.

وعندما تُحشّد أنظمة الاستکبار العالمی کل إمکاناتها لمواجهة التیار الإسلامی العظیم الذی یعم کل العالم الإسلامی.

وکان الموقف بیننا وبین الاستکبار العالمی موقفاً تاریخیاً مصیریاً فاصلًا ...

أقول: عند ذلک فإنّ من أفدح الأخطاء فی ظروف صعبة وعسیرة مثل هذه الظروف أن تغلب العاطفة والانفعال والشعار علی مواقفنا السیاسیة ولقاءاتنا وخطابنا لجماهیرنا وحواراتنا المتبادلة داخل البیت الإسلامی الکبیر.

إن لغة العاطفة والانفعال والشعار، کما هی نافعة فی إثارة الهمم وإنهاض الجمهور یُمکنُ أن تتحول فی بعض الحالات إلی ألغام سریعة الانفجار تُحَوّل الساحة إلی ساحات للسجال والجدال العقیم الضار.

ونتمنی، لو أن طرفاً أو جهة أو شخصاً أراد أن یستخدم هذه اللغة فی إثارة التشنج فی صفوف المسلمین، ویعکر صفو العلاقات الإسلامیة داخل الصف الإسلامی ... نتمنی أن یواجهه الآخرون بالعقلانیة الإسلامیة والدعوة إلی ما یأمرنا الله تعالی به من الاعتصام بحبل الله وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ والنهی عن التفرقة وَلا تَفَرَّقُوا.

۴- الوعی السیاسی

إن الحالة السیاسیة والإعلامیة فی العالم، والعلاقات السیاسیة والاقتصادیة بین أنظمة الاستکبار العالمی، والأنظمة التابعة لها فی العالم الإسلامی، والعلاقة بین السیاسة والإعلام ... حالات معقدة شدیدة التعقید، ویدخل فی تکوینها عوامل غیر مرئیة کثیرة، وما یظهر علی السطح من التصریحات والعلاقات لا یعبّر عن کل شیء ...

أذکر فی المصالحة التی تمت بین نظام عربی وإسرائیل بالوساطة الأمریکیة وتصافح زعیما الطرفین أمام أضواء الکامیرات فی حضور الرئیس الأمریکی، فاجأ الرئیس الأمریکی المسؤول العربی بالسؤال التالی:

منذ کم کانت لکم علاقة وارتباط ولقاءات مع المسؤولین فی إسرائیل؟

فقال المسؤول العربی الکبیر مأخوذاً بهذه المفاجأة ممتعضاً من هذا الإحراج: منذ عشرین عاماً.

إن هذا السؤال والجواب یکشف عن الاحتقار الأمریکی لجملة من زعماء الأنظمة العربیة الذین تحمیهم أمریکا نفسها، ویحمون مصالحها، کما تکشف عن عمق الفساد السیاسی فی طائفة من الأنظمة العربیة.

منذ عشرین عاماً یتعامل مع إسرائیل، ویتعاطی معها، ویلتقی بقادتها فی لندن وواشنطن .. ولا یعرف الناس علی سطح الإعلام السیاسی عنه إلّا لغة الشجب والتهدید لإسرائیل ..!!

إن هذه الأنظمة السیاسیة، بین الواقع والتصریحات التی یقدمونها للإعلام، تشبه الکتل الثلجیة العائمة علی میاه البحار تسع أعشار منها غاطسة فی الماء لا تُری وعُشْرٌ منها فقط یظهر علی سطح الماء ...

إنّ هذه الأنظمة بین واقعها الغاطس فی مستنقع العلاقة بأنظمة الاستکبار العالمی، والشطر الظاهر المسموع والمرئی منها فی الإعلام

تشبه هـذه الكتـل الثلجيـة .. ومن أفـدح الخطـأ أن نتعامـل مع هـذه الأنظمـة من خلال الإعلام المرئى والمسـموع، ومن خلال الخطب والتصريحات السياسية التى يطلقونها بين حين وآخر.

إن لقاءاتنا السياسـية وخطابنا السياسـى يجب أن يمتلك خلفية غنية من الوعى السياسى والإحاطة بالظروف السياسية المعقدة، والمعرفة بالخلفيات السياسية التى تقع خلف المواقف والقرارات والتصريحات السياسية.

١- الحجرات: ١٢.

ص: ۳۴

ومن دون هذا الوعى السياسى سوف يقع جمهورنا وساحتنا فى تخبّط سياسى واسع ... ونحن قد تحدثنا عن ضرورة الوعى السياسى وأهميته الكبيرة فى هذه المرحلة ... وعلى علماء المسلمين وخطبائهم ومثقفيهم والحركات الإسلامية إشاعة الوعى السياسى ونشره فى الأوساط الإسلامية الشعبية.

۵- الحوار بالتى هى أحسن

قد ينقلب الحوار إلى جدال عقيم، بل ينقلب إلى عائق يعيق حركة الأمة، وحجاب يحجب المسلمين بعضهم عن بعض، وقد يكون الحوار جسراً للتفاهم والتعاون والتلاقى فى المساحات المشتركة السياسية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة، وذلك عندما يكون الحوار بالأسلوب الذى علّمنا الله تعالى ب- (التى هى أحسن)، وأقوم للعلاقة الحسنة والتفاهم بين المسلمين، يقول تعالى: وَجادِلْهُمْ بِالَّتِى هِیَ أَحْسَنُ (۱).

ويقول تعالى: وَقُلْ لِعِبادِى يَقُولُوا الَّتِى هِیَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ (۲).

ولا سبيل لدفع (نزغ الشيطان) فى العلاقة بين أطراف هذه الأمة إلا أن يخاطب بعضنا بعضاً بأحسن ما نستطيع عليه من القول.

۶- تحصين اللقاء والحوار:

إن علينا أن نحصّن هذه اللقاءات والحوارات الإسلامية من نفوذ الأنظمة التى تقع تحت سلطان أنظمة الاستكبار العالمى واختراقها، فإنّ هذه الأنظمة تملك من وسائل الإعلام والاستخبار ما يمكّنها من اختراق هذه اللقاءات والحوارات، وإحباطها وإفسادها ... ولكى نتمكن من تفعيل هذه اللقاءات واستثمارها يجب علينا أن نحصّن هذه اللقاءات من نفوذ هذه الأنظمة واختراقاتها.

أحاديث أهل البيت: فى ضرورة اللقاء والحوار

كان أهل البيت: يوجهون شيعتهم وأتباعهم دائماً إلى اللقاء والاجتماع بأهل السنّة، والحضور معهم فى جوامعهم، واجتماعاتهم، ومجالسهم، وندواتهم، وينهونهم عن الابتعاد عنهم، ويؤكدون لهم بضرورة التواجد فى الساحة الإسلامية العامة، وحضور الجمعات والجماعات، وتوحيد المواقف فى الحج، ولم يردنا- ولا حديث واحد- عن انفراد أئمة أهل البيت: فى موقف من مواقف الحج عن الموقف العام الذى كان يحدده الحكام فى تلك البرهة، لعامة المسلمين.

وقد تصدى بعض المنحرفين عن أهل البيت: للدسّ فى أحاديثهم: لعزلهم وعزل شيعتهم عن الوسط الإسلامى الكبير .. وكانت هذه الأحاديث على أنحاء، منها أحاديث الغلو، ومنها أحاديث التحريف، ومنها أحاديث فيها تخليط فى الفقه، ومنها أحاديث فيها انتقاص وتسقيط لأهل البيت:، ومنها أحاديث فى الطعن واللعن على خصومهم.

وكانوا يعملون لإشاعة هذه الأحاديث عنهم، وقد روى عن الإمام الصادق ٧ فى هذا المعنى: «إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدق كلامنا بكذبه» (۳).

وعنه ٧ أيضاً: «إن المغيرة بن سعيد دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها أبى، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبيّنا» (۴).

وروى عن يونس عن أبى الحسن الرضا ٧، قال: «إن أبا الخطاب كذّب على على بن أبى طالب ٧. لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبى الخطاب، يدسّون من هذه الأحاديث إلى يومنا هذا فى كتب أصحاب أبى عبدالله ٧ فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» (۵).

وعن أبى الحسن الرضا ٧ فى حديث إلى ابن أبى محمود: «يابن أبى محمود! إن مخالفينا وضعوا أخباراً فى فضائلنا، جعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير فى أمرنا وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا» (۶).

وقد كان أئمة أهل البيت: يعملون لكسر هذا الطوق عنهم وعن شيعتهم بتكذيب هذه الأحاديث وفضح الوضّاعين الذين كانوا يضعون

عليهم من الحديث ما لم يتحدثوا به والتأكيد على رفض كل حديث يروى عنهم يخالف القرآن.

فكانوا يقولون: «فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبينا»، «فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» (۷).

وكانوا يطلبون من فقهاء شيعتهم ورواة أحاديثهم أن يتحرّوا الأحاديث الصادقة المروية عنهم: ويحذروا ما وضعه النواصب والمنحرفون عنهم عليهم من الأحاديث المنتحلة، وكانوا يضعون لهم الأصول والقواعد العلاجية لمعرفة الأحاديث الصادقة، وكانوا يدعون شيعتهم للتعايش مع سائر الطوائف الإسلامية، والانفتاح عليهم، والتعاطى العلمى والثقافى معهم وحضور اجتماعاتهم وصلواتهم.

وكانوا لا يرضون لشيعتهم أن يعتزلوا الوسط الإسلامى العام، فهم جزء من هذه الأمة الكبيرة، واختلافهم عن أهل السنّة فى بعض الفروع والأصول، ومقاطعتهم للحكام الظلمة الذين كانوا يحكمون المسلمين فى العصر الأموى والعباسى لم يكن يحمل معنى الاعتزال عن الساحة والانقطاع عنها.

۱- النحل: ۱۲۵.

۲- الإسراء: ۵۳.

۳- رجال الكشى: ۳۰۵ الرقم ۵۴۹.

۴- رجال الكشى: ۱۹۵ ترجمة المغيرة بن سعيد.

۵- رجال الكشى: ۲۲۴ الرقم ۴۰۱.

۶- عيون أخبار الرضا ۳۰۳: ۱.

۷- بحار الأنوار ۲۵۰: ۲ ح ۶۲.

ص: ۳۵

وقد كان أئمة أهل البيت: يعيشون معهم وفى أوساطهم، ويجتمع إليهم المسلمون من كافة المذاهب والاتجاهات، ويحضرون مجالسهم، ويأخذون منهم العلم، ولو أحصينا أهل العلم الذين أخذوا العلم عن الإمام الباقر والصادق ٨ لوجدناهم امة كبيرة من أهل العلم، وكانت مجالسهم ومحاضرهم عامرة بفقهاء المسلمين وحملة الحديث النبوى وأهل‌العلم من كل اتجاه ومن كل بلد ... وهذه الحالة يعرفها جيداً من يعرف حديث أئمة أهل البيت: وسيرتهم، وهى تعبّر عن حالة الانفتاح والتعايش المذهبى الإيجابى السليم لكل الاتجاهات والمذاهب الإسلامية. فى الوقت الذى كان أهل البيت: يرسمون ويوضحون لشيعتهم وللمسلمين عامة الخط الفكرى الصحيح فى الاصول والفروع بوضوح وصراحة وبشكل دقيق.

وفى أحاديث أهل البيت: دعوة واضحة وصريحة إلى هذا الانفتاح مع المسلمين والتعايش الإيجابى والتواصل والتعاطف والتعاون معهم، وإليك نماذج‌من أحاديث أهل‌البيت: فى هذا الشأن:

روى محمد بن يعقوب الكلينى بسند صحيح فى الكافى عن أبى اسامة زيد الشحّام قال: قال أبو عبدالله ٧: «أقرأ على من ترى أنه يطيعنى منهم، ويأخذ بقولى السلام، أوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ والورع فى دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد ٩ وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، وأن رسول الله ٩ كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.

صِلُوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه، وصدق الحديث وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفرى، فَيَسُرّنى ذلك ويدخل علىّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل علىّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر، والله لحدثنى أبى ٧ إنّ الرجل كان يكون فى القبيلة من شيعة علىّ فيكون زينها، أدّاهم للأمانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، وإليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان إنّه أدّانا للأمانة وأصدقنا للحديث» (۱).

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبى عبدالله الصادق ٧: كيف ينبغى لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال ٧: «تؤدون الأمانة إليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم» (۲).

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت له (الصادق ٧): كيف ينبغى أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ومن ليسوا على أمرنا؟ فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدون الأمانة لهم» (۳).

وفى رواية اخرى للكلينى فى الكافى بسند صحيح عن حبيب الحنفى قال: سمعت أبا عبدالله الصادق ٧ يقول: «عليكم بالورع والاجتهاد واشهدوا الجنائز وعودوا المرضى، وأحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبّوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حقّ جاره» (۴).

وبسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبدالله الصادق ٧: «عليكم بالصلاة فى المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنه لابد لكم من الناس، أن أحداً لا يستغنى عن الناس فى حياته، والناس لابد لبعضهم من بعض» (۵).

ثالثاً- الأعمال والمشاريع المشتركة

قرأنا فيما سبق أن النقاط الثلاث التالية من أفضل المناهج لمكافحة الفتنة الطائفية .. وهذه الثلاث هى:

۱- الوعى والخطاب.

۲- اللقاء والحوار.

۳- العمل المشترک.

وقد تحدثنا فيما مضى عن النقطة الأولى والثانية، وها نحن نتحدث إن شاء الله عن النقطة الثالثة، وهى العمل المشترک، سواءً كان العمل فى المجال العملى والثقافى أم فى مساحة العمل السياسى، أم فى المساحة الاقتصادية.

والتجارب العديدة التى مارسها المسلمون فى الآونة الأخيرة فى المشاريع الاقتصادية والفقهية تؤكد هذا المعنى.

ونظراً للتحديات العظيمة التى يواجهها المسلمون اليوم لابد من مواجهة هذه التحديات بالمشاريع الإسلامية السياسية والاقتصادية والثقافية التى يشترک فيها عامة المسلمين من كل المذاهب والشرائح الإسلامية. فلم تعد الأعمال الفردية والتى تقوم بها طائفة من المسلمين كافية لمقابلة هذه التحديات، فإن التحديات التى تواجهنا فى ساحتنا أكبر من أن نقابلها بمثل هذه المشاريع.

إن مشاريعنا السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية يجب أن تكون بحجم الأمة كلها .. عندئذ تكون يد الله مع هذه المشاريع، وعليها، إن شاء الله تعالى.

وعندئذ تكون هذه المشاريع والأعمال قادرة على مقابلة التحديات القويّة التى تواجهنا فى ساحة عملنا.

۱- وسائل الشيعة ۸: ۳۹۸، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۱.

۲- المصدر نفسه، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۲.

۳- المصدر نفسه، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، البابالأوّل، ح ۳.

۴- المصدر نفسه، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۴.

۵- وسائل الشيعة ۸: ۳۹۹، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۵.

ص: ۳۶

جدلية الشرعية والواقع:

وسوف أتحدّث عن واحدة من هذه التحدّيات التي تواجهنا في حياتنا السياسية والثقافية، ولا يتأتّى لنا مقاومتها وإحباطها إلّا ضمن مشروع سياسي وثقافي كبير، وبتضامن إسلامي واسع على قدر سعة هذه الأمة.

أمامنا قضيتان متخالفتان ومتقاطعتان في ساحة حياتنا، ويتوجّب علينا أن نتعامل معهما بالضرورة، وليس بوسعنا التشكيك في أي منهما، وليس بوسعنا الإعراض عن أي منهما أو كليهما ومقابلته باللامبالاة.

القضية الأولى: وحدة الأمة الإسلامية

وليس بوسع أحد أن يشك في هذه الحقيقة، وقد تلوت عليكم قريباً قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.

وقوله تعالى: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ.

وهذه حقيقة من حقائق الوحي.

ووحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها من غير شك ولا ترديد، وإذا تعددت الولاءات والبراءات تتعدد الأمة، ولا تبقى الأمة واحدة، كما تخبرنا بذلك سورة (الأنبياء) و (المؤمنون).

ولا يمكن فصل القيادة السياسية والنظام والقرار السياسي عن مسألة الولاء.

كما لا يمكن فصل التقاطعات والصراعات السياسية والعسكرية بين الأنظمة عن مسألة البراءة ...

أقول: إنّ وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، فإن الولاء للقيادة السياسية الصالحة للأمة تأتي في امتداد الولاية لله ولرسوله ولأولي الأمر .. يقول تعالى: أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ (۱).

ووجود ولائين أو أكثر من ذلك- في عرض بعض- ينافي وحدة الأمة ... فضلًا عما إذا كانت هذه الولاءات متعارضة فيما بينها، كما هو حاصل عادة في الأنظمة السياسية المتعددة الواقعة على خطوط سياسية متعددة.

فلا يمكن أن يتّصف ولي أمر المسلمين بالولاية والطاعة لمجموعة من الأمة، ولا يكون كذلك لمجموعة أخرى من أمة واحدة، وتجب على طائفة من الأمة طاعته ولا تجب طاعته على طائفة أخرى.

أما الولاءات السياسية الطولية (التي يقع بعضها في امتداد بعض) فلا تنافي وحدة الأمة مهما تعددت وكثرت.

إذن لهذه الأمة، طبقاً لهاتين الآيتين الكريمتين من سورتي الأنبياء والمؤمنون، قيادة واحدة صالحة .. وهذه هي الحالة الشرعية التي نطلبها في نظام الحكم والقيادة السياسية للعالم الإسلامي.

هذه هي القضية الأولى: (الشرعية).

القضية الثانية: قيام أنظمة متعددة من الحكم في طول العالم الإسلامي وعرضه ...

وهذه الأنظمة- في الأغلب- لا تمثّل الحالة الشرعية لأنها غير صالحة، وغير مؤتمنة على دين الناس ودنياهم، وغير منتخبة من قبل الناس، وإنما تُفرض على الناس بآليات عسكرية، أو عبر وسائل أنظمة الاستكبار العالمي ... وهذه الأنظمة تفرض طاعتها والالتزام بقراراتها على الناس بالنار والحديد والعنف .. والتغرير والتجهيل الإعلامي.

ولابد للناس من الالتزام بقرارات هذه الأنظمة: وهذا هو (الأمر الواقع) اللاشرعي.

وبين هذا (الأمر الواقع) و (الشرعية) تقاطع شديد ولكل منهما ثقافة، وسياسة، وقوانين، وأنظمة، وآليات، وقوة للتنفيذ.

هذه هي الجدلية القائمة بين (الشرعية) و (الأمر الواقع).

ما هو تكليف المسلم تجاه هاتين القضيتين (الشرعية المحظورة) و (الواقع المفروض)؟

(فلا يجوز) الاستسلام للأمر الواقع المفروض، وإلغاء الحالة الشرعية، و (لا يمكن) تجاوز الأمر الواقع المفروض بالقوة من قبل الأنظمة

..

هذه هى الجدلية بين (ما لا يجوز) و (ما لا يمكن) وهى جدلية قديمة فى التاريخ الإسلامى.

۱- النساء: ۵۹.

ص: ۳۷

فما هو موقف (الفقه الإسلامى) تجاه هذه الجدلية الصعبة؟

منهج أهل البيت: الفقهى

إن منهج أهل البيت: الفقهى تجاه هذه الجدلية فى الفترة الطويلة التى عاشوها فى العصر الأموى والعباسى، تتلخص فى ثلاث نقاط:

۱- النهى عن إسناد هذه الأنظمة ودعمها، وتحريم (التعاون مع الظلمة)، فلا يجوز للمسلم أن يقوم بأى عمل فيه إسناد ودعم لهذه الأنظمة غير الصالحة بأى شكل، ولو كان ذلك بإعداد ليقة دواة للحاكم الظالم .. وقد وردت روايات كثيرة عن أهل البيت: فى هذا المعنى. (راجع أبواب حرمة التعاون مع الظلمة فى مباحث المكاسب المحرمة). وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى وسائل الشيعة وسائر كتب الحديث والفقه.

۲- الأمر بمعايشة الواقع السياسى الاجتماعى؛ لأن الانفصال عنه بمعنى الخروج من ساحة الحياة والانتحار السياسى والاقتصادى.

ولا مناص للمسلمين من أن ينتظم أمر معاشهم ومعادهم ضمن هذا الواقع ولا مناص لهم، من أن يعايشوا هذا الواقع لتستقيم لهم أمور معاشهم ودينهم .. حتى لو يتطلب الأمر أن ينضمَّ المؤمنون إلى مواقع المسؤولية من هذه الأنظمة الفاسدة، ولكن لا لغاية إنعاشها ودعمها، وإنما لغاية تحقيق الضمان لمعيشة المؤمنين وخدمة الناس فى معايشهم ومكاسبهم. (راجع الروايات الواردة فى مستثنيات التعاون مع الظلمة و أبواب التقية).

فلا يستغنى الناس عن المدارس والجامعات وجهاز الشرطة والمستشفيات والمؤسسات الخدمية وغيرها، وكل هذه المؤسسات مؤسسات قائمة ضمن هذه الأنظمة الفاسدة ... لا حيلة للناس عنها فيجوز الدخول فى هذه المؤسسات لخدمة الناس ويجوز الاستفادة من هذه المؤسسات، ومن دون ذلك تتعطل حياة الناس، والله تعالى لا يريد تعطيل حياة الناس.

وبين الأمر الأول (المحظور) والأمر الثانى (السائغ) فرق واضح.

۳- العمل على تحويل هذا الواقع الفاسد إلى نظام صالح وقيادة صالحة وقوانين وتشريعات صالحة.

وهذه النقطة الأخيرة تختلف من مجتمع إلى مجتمع؛ فقد يتم ذلك عن طريق ثورة مسلحة، وقد يكون ذلك عن طريق الترحيل الثقافى والتبليغى للناس، وقد يكون بالوسائل الديمقراطية الحديثة، التى تمكّن الأكثرية الصالحة من الوصول إلى مواقع الحكم وتغيير الحكم إلى نظام صالح وقيادة صالحة، بصورة سليمة، أو غير ذلك من الوسائل والآليات. (راجع روايات باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأبواب الجهاد)

وهذه ثلاثة مشاريع عمل إسلامية سياسية تتطلب مشاركة عامة من المسلمين، من كل المذاهب والفرق والشعوب الإسلامية التى تعانى من سلطة الحكومات الظالمة.

۱- مقاطعة الأنظمة الفاسدة وتحريم دعمها وإسنادها، ووجوب عزل هذه الأنظمة عن الأمة والتشهير بها وتسقيطها.

۲- المشاركة الإيجابية فى كل مسالك الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنفوذ إلى مواقع مختلفة من الحكم بهذه الذهنية ولهذه الغاية.

۳- مشاريع أسلمة الأنظمة وإقامة الدولة الإسلامية على أسس شرعية وترحيل الحالة السياسية إلى قيام حكومة عالمية إسلامية صالحة، كما وعدنا الله تعالى فى كتابه .. وهذا المشروع يختلف من بلد إلى بلد ومن حالة سياسية إلى حالة أخرى، ولا يخضع لوصفة سياسية أو حركية واحدة.

المشروع السياسى الإسلامى

الأنظمة فى العالم الإسلامى- فى الغالب- غير صالحة، ولا يمكن الاعتماد عليها فى تقرير الموقف الإسلامى من القضايا السياسية الكبرى فى العالم الإسلامى .. ومن الواضح أن المواقف الرسمية للأنظمة تجاه القضايا الكبرى تبقى خاضعة لتأثير الدول الكبرى،

وليس بوسع هذه الأنظمة أن تتجاوز الخطوط الحمراء التى ترسمها دول الاستكبار العالمى ...

نعم، هناك مساحات صفراء يتحرك عليها هؤلاء الحكام .. وقد تكون هذه الحركة مخالفة لقرارات الدول الكبرى ...

أما الخطوط الحمراء، فليس بوسع هذه الأنظمة تجاوزها، مهما كان الثمن الذى تدفعه هذه الأنظمة .. مثل النفط، فليس بوسع هذه الأنظمة أن تستخدم «النفط» فى قضايا الأمة السياسية، والعكس حاصل فعلًا، فإن الدول الكبرى ومجلس الأمن يستخدمان العامل الاقتصادى سلاحاً قاطعاً فى قراراتها السياسية، وفى عقوبة الأنظمة التى تتجاوز الخطوط الحمراء، فى حين لا ـ يجرأ حكامنا، أو لا يملكون، فى أكثر مناطق العالم الإسلامى، تجاوز الخطوط الحمراء، فيما يتعلق بأنظمة الاستكبار العالمى.

ومهما يكن السبب، فإن الساحة الإسلامية الواسعة لا تمتلك اليوم مقومات القرار والموقف السياسى الراشد الإسلامى، إلا ما يصدر بصورة عفوية من مواقف وقرارات يتبناه جمهور المسلمين فى مختلف أقاليم العالم الإسلامى، كما رأينا ذلك فى التعاطف الشديد لمواقف المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان (حزب الله)، من جانب جماهير المسلمين فى كل أقاليم العالم الإسلامى، وفى المهاجر الغربية، ورغم أن الأنظمة العربية- فى الغالب- كانت ممتعضة من انتصار المقاومة وما سجلته من انتصارات باهرة خلال ۳۳ يوماً، إلا أن تيار التضامن والتعاطف الإسلامى مع حزب الله كان أقوى من أن تعاكسه الأنظمة وأدواتها الإعلامية المسخرة لخدمة مواقفها السياسية ... ولكن هذه الأنظمة تمكّنت أخيراً من إبراز كراهيتها لانتصار

ص: ۳۸

حزب الله فى الاصطفاف الواسع الذى قامت به إلى جانب فؤاد السنيورة وجعجع والحريرى وجنبلاط فى إفشال مشروع حكومة الوحدة الوطنية التى دعت إليها المعارضة .. وفى مقدمتهم حزب الله. ولولا التصرف العقلائى لحزب الله فى هذا الموقف المعارض لاستئثار الأقلية بالحكم فى لبنان، لكانت العاقبة حرباً أهلية واسعة فى لبنان، إلا أن (حزب الله) آثر ممارسة الاعتراض بصورة سلمية، حتى عندما كانت الحكومة تقابل المعارضة بالعنف .. وكفى الله اللبنانيين القتال.

ومهما يكن من أمر، فلابد للساحة الإسلامية الكبرى من أدوات نابعة من إرادة الأمّة ومن عمق الساحة لتنضيج القرار السياسى الذى يهم الأمة- كلها- ولتوحيد الرأى والموقف السياسى فى القضايا الكبرى، وتعميمها على كل الساحة الإسلامية وتحشيد الرأى العام الإسلامى لإسناده والوقوف إلى جانبه، وتفعيله فى الساحة من خلال المسيرات والاحتجاجات والهتافات والإعلاميات والآليات المشاعة التى يمتلكها الشارع للتعبير عن موقفه ورأيه واعتراضه واحتجاجه وحبه وبغضه.

ومن دون وجود مشروع سياسى- مثل هذا المشروع- ينضّج الرأى السياسى الراشد الناضج الموحّد، تبقى الساحة معرضة لأمواج الفتن السياسية، وضغوط وسائل الإعلام الرسمية التى تجعل من الحق باطلًا ومن الباطل حقاً، وتقرّب البعيد، وتبعّد القريب.

وتبقى الساحة الإسلامية تتخبط بين اختلاف الآراء والمواقف، والفتن، والضغوط الإعلامية.

ولكى تسلم الساحة الإسلامية الكبرى من هذا التخبّط لابد من مشروع سياسى إسلامى كبير، خارج مجال نفوذ هذه الأنظمة، يمارس هذه المسؤولية فى تنضيج القرار والموقف الإسلامى وتوحيده وتعميقه وتفعيله فى الساحة.

ولابد أن يمثّل هذا المشروع السياسى كل الشرائح والمذاهب والأقاليم الإسلامية تمثيلا صادقاً حقيقياً، ليكون لرأى هذا التجمع الإسلامى، النفوذ والتأثير الفعلى على كل الساحة الإسلامية.

ويكون مركزاً لتنضيج القرار الإسلامى الراشد الذى تتبناه الساحة الإسلامية كلها، فى المسائل الأم الكبرى فى العالم الإسلامى، مثل قضية القدس والمسجد الأقصى، والقضية الفلسطينية، والاحتلال الإسرائيلى لأجزاء واسعة من أراضى الوطن الإسلامى من سورية ومصر والأردن ولبنان، ومثل المشكلة الصومالية، وتدخل القوى المتعددة الجنسيات فى دارفور، والمشروع الإيرانى النووى السلمى. والاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق، والموقف الأمريكى المعادى للقضية الفلسطينية، والداعم لإسرائيل، والموقف البريطانى، بل الاتحاد الأوروبى من دعم المرتد سلمان رشدى، والموقف الروسى المتعنت من الولايات الإسلامية كالشيشان، وقضية الصحراء المغربية، واضطهاد الأنظمة فى العالم الإسلامى لأبناء الحركة الإسلامية، كما فى الجزائر وتونس ومصر، وكما فى العراق فى عهد الطاغية، ومثل الصراع الفلسطينى- الفلسطينى بين حماس وفتح، والدعم الإسرائيلى والأوروبى والأمريكى والعربى لفتح، وتضييق الحصار على غزة وحماس اقتصادياً وسياسياً، وعزل حماس عزلًا سياسياً كاملًا ... وأمثال ذلك، والتخريب الواسع الذى قامت به إسرائيل للبنان، انتقاماً لانتصار حزب الله عليها فى الحرب التى دارت بينها وبين حزب الله فى جنوب لبنان، وسكوت الدول الغربية- الأوروبية والأمريكية برمتها تجاه هذا العدوان السافر على لبنان ودعم الموقف الإسرائيلى بشكل مطلق بكل أشكال الإسناد والدعم ... وأمثال ذلك.

وقد يتساءل أحد عن الصيغة العملية لهذا المشروع السياسى ... فأقول: إننى لست بصدد عرض صيغة محددة لهذا المشروع السياسى ... يمكن أن يكون على هيئة مؤتمر دورى لأهل الحل والعقد من المسلمين، ويمكن أن يكون بصيغة أخرى ... وأيّاً ما تكون الصيغة العملية لهذا المشروع، فهو مركز سياسى، يمثل الأمّة الإسلامية بعرضها العريض، فى تنضيج القرارات والتوصيات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وبلورتها وتقديمها، فى الأمور التى تهمّ الأمّة، ويكون هذا المركز فى مقابل مراكز القرار الرسمية للأنظمة، يعبّر عن إرادة الناس وانتمائهم وهويتهم الإسلامية ... وهو أمر قائم فعلًا، فى بعض الحدود، ولكن يحتاج إلى تثبيت، وتطوير، وتوسعة، وتعديل، وتقنين، وتبنى من قبل المسلمين.

تساؤلات حول هذا المشروع

وقد يثير أحد حول هذا المشروع التساؤلات التالية:

۱- أين يمكن إقامة هذا المشروع السياسى المستقل عن الإرادة الأمريكية- الغربية، وأمريكا تقول اليوم للسحاب: أينما تذهبين فانك تمطرين فى مساحة نفوذى وسلطانى؟

۲- ما جدوى رأى هذا المركز السياسى إذا كان لا يملك آلية التنفيذ فى مقابل قرارات الأنظمة التى ينفذها أصحابها بالإرهاب والإعلام؟

۳- وكيف يمكن عزل رأى هذا المركز أو توصياته عن تأثير ونفوذ الأنظمة ودول الاستكبار العالمى، فى هذه الدنيا المتشابكة المتداخلة؟

والجواب عن السؤال الأول:

إن أرض الله واسعة ونحن لدينا مناقشات جوهرية فى صدقية النفوذ الأمريكى الكونى المطلق، ليس هنا مجال بسط الكلام فيها.

وعن السؤال الثانى:

ص: ۳۹

أقول: إن رأى هذا المشروع وتوصياته يكون مدعوماً بالرأى العام الإسلامى، وسوف يكون له دور واضح فى تعديل القرارات السياسية للأنظمة إن لم تكن قادرة على إلغائها.

وعن التساؤل الثالث: لا ننفى إمكانية نفوذ الأنظمة ومن ورائها أنظمة الاستكبار العالمى إلى صلب هذا المركز وآرائه وتوصياته، ولكنه على كل حال إمكانية محدودة وليست مطلقة، ولا يمكن أن يحقق أى مشروع سياسى فى هذه الدنيا المتداخلة المتشابكة غايته بصورة مطلقة.

وبعد، فإننا نرى أن أمثال هذه المشاريع طموحات سياسية واقعية، يمكن أن نسعى إليها وليست ضرباً من الأحلام فى واقعنا السياسى المعاش.

المرجعية السياسية للعالم الإسلامى

نحن اليوم أمة فاعلة قوية على وجه الأرض. ولهذه الأمة ثقل كبير فى المعادلات السياسية، وحضور واسع فى القضايا السياسية ذات الشأن بالحالة الإسلامية خصوصاً، وبالحالة الكونية عموماً.

ورغم أن أكثر الأنظمة الحاكمة على العالم الإسلامى تعمل لتشتيت هذه القوة الكبرى على وجه الأرض، لكن تبقى الأمة الإسلامية التحدى الأكبر للغرب. والذين يقرؤون التاريخ والمستقبل من المنظّرين فى الغرب يفهمون هذه الحقيقة، وينذرون أنظمة الاستكبار الغربى من هذا العملاق الذى بدأ ينهض من سباته فى القرن العشرين.

وفى ضوء هذا الفهم نقول:

۱- إن الحقائق المتقدمة فى نهضة الأمة بعرضها العريض لا يمكن أن تخفى على مراكز الرصد الاستكبارى فى الغرب.

۲- ولابد أن تلقى هذه الأمة تحديات صعبة من ناحية الغرب لإحباط المشروع الإسلامى الكونى الكبير.

۳- ولا تخصّ هذه التحديات إقليماً أو قوماً و مذهباً من المذاهب، وإنما تعم الأمة الإسلامية برمتها؛ لأن هذه الأمة هى التربة الصالحة للمشروع الكونى الذى يخبرنا به الله تعالى فى كتابه: وَلَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ والذى يتنبّأ به المنظرون فى الغرب.

۴- إذن، المسلمون جميعاً فى مواجهة صراع حضارى وعسكرى وسياسى وثقافى، قاس، من أقسى ما يعرفه تاريخ الإنسان من الصراعات الحضارية السياسية، والعسكرية، شئنا ذلك أم أبينا.

والمطالبة بالمعايشة السلمية وشجب الحروب والصراعات لا يعفينا من هذه المعركة .. ولسنا نحن الذين ندفع الغرب إلى مثل هذا الصراع، وإنما العكس هو الصحيح، الغرب هو الذى يدفعنا إلى مثل هذه المعركة ... فإن الكيانات السياسية والعسكرية والثقافية فى الغرب يرون أنهم قد وصلوا إلى نهايات التاريخ، والعاقبة التى آل إليها أمر الاتحاد السوفياتى ليس ببعيد عنهم، والقوانين والسنن التى آلت إلى سقوط الاتحاد السوفياتى هى التى تؤول بهم إلى تلك العاقبة. وهم يدافعون عن أنفسهم فى معركة مصيرية بالنسبة لحضارتهم وكيانهم الاقتصادى والسياسى والعسكرى، ومن الطبيعى أن يكون هذا الصراع أشرس صراع يعرفه الإنسان، لأنه صراع على الموت والحياة.

۵- ومن أفدح الخطأ أن ندخل هذا الصراع من غير الإعداد المكافئ لهذه المعركة الحضارية، ومن غير الإعداد لآليات هذا الصراع .. والدخول فى مثل هذه المعركة من غير الإعداد المكافئ لها يعادل الفشل والهزيمة فيها ... يقول تعالى: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ (۱) وليست القوة كلها السلاح وإن كان السلاح من مقومات ساحة القتال إلا أن دائرة الإعداد الذى يأمرنا به الله تعالى أوسع من السلاح.

۶- ومن أهم الآليات التى تُعِدُّ هذه الأمة لدخول مثل هذه المعركة التىنتوقعها كل حين، بل نعايشها اليوم، دون أن ننتبه لها .. فى

مقدمة هذه الآليات (المرجعية السياسية الواحدة للأمة الإسلامية) ... فليس من الممكن أن تدخل هذه الأمة صراعاً سياسياً وحضارياً واسعاً، وتواجه تحديات كثيرة، دون أن تمتلك الأمّة (مرجعية سياسية)، توحّد قرارها وموقعها وصفّها.

إن وحدة الأمة ووحدة القرار السياسى لا تتحقق إلا من خلال الآليات التى أعدّها الله تعالى لذلك، وفى مقدمة هذه الآليات المرجعية السياسية التى يسميها الفقهاء ب- (ولاية الأمر).

يقول تعالى: أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ.

۷- و (الموقع الأول) و (الموقع الثانى) اللذين تحدّثنا عنهما مؤسستان إسلاميتان للأمة الإسلامية كلها تتكاملان، تؤدى الأولى دور الشورى وتنضيج القرار السياسى الذى تشير إليه آية الشورى وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (۲) وتقوم الثانية بدور (الولاية السياسية) فى حياة المسلمين .. تنفيذاً لقوله تعالى:

أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (۳).

۱- الأنفال: ۶۰.

۲- الشورى: ۳۸.

۳- المائدة: ۵۵.

ص: ۴۰

فى الساحة الاقتصادية

إن عملًا واسعاً يجرى اليوم لإلحاق أسواق العالم الإسلامى ومصادر ثرواته الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية، وهو أمر حاصل بالفعل، ولكن الحركة التى تقوم بها الأنظمة فى العالم الإسلامى هى إلحاق أسواقنا فى العالم الإسلامى وثرواتنا الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية بشكل كامل .. وهذا الأمر إذا تم يجعل من حركتنا الاقتصادية حركة تابعة لاقتصاد الدول الصناعية الكبرى، وتجعل من أسواقنا معرضاً ومحلًا لاستهلاك ما تنتجه المصانع فى الدول الصناعية الكبرى، وتجعل مصادرنا الطبيعة للثروة مثل النفط والكبريت والصلب والحديد والقطن وقصب السكر والمطاط والتمور مصدراً لتموين المعامل والمصانع فى الغرب.

ونتحول من موقع الإنتاج والاكتفاء الاقتصادى إلى مركز لتموين المصانع فى الدول الصناعية الكبرى بالمواد الخام التى تحتاجها هذه المصانع ومحلًا لاستهلاك ما تنتجه هذه المعامل.

وهذه العاقبة أسوأ عاقبة اقتصادية للعالم الإسلامى، وتؤدى هذه التبعية الاقتصادية إلى تبعية سياسية خالصة، وانهيارات اقتصادية واسعة كما حصل لجنوب شرق آسيا قبل سنين، وتفقدنا حالة الاكتفاء الذاتى فى الاقتصاد بشكل كامل.

وكما يستخدم الغرب الآلة الصناعية والاقتصادية فى تحقيق (التبعية السياسية) فى العالم الإسلامى، بشكل واسع، كذلك يستخدم الغرب المقاطعة الاقتصادية والحظر الاقتصادى لإخضاع أنظمة العالم الإسلامى لإرادته السياسية، كما حصل ذلك لإيران وليبيا وسوريا والسودان ... عندما امتنعت من تنفيذ إرادته.

وقد كان بوسع العالم الإسلامى أن يستخدم الآلة الاقتصادية، مثل تصدير النفط فى تعديل بعض المواقف الغربية المتطرفة عموماً والأمريكية خصوصاً تجاه العالم الإسلامى، مثل الجنوح المتطرف إلى جانب إسرائيل، والوقوف إلى جانب إسرائيل فى كل مراحل عدوانها على فلسطين ولبنان. والتشديد على إيران بسبب محاولاتها لتخصيب اليورانيوم والوصول إلى مرحلة استخدام الطاقة النووية لإنتاج الكهرباء وسائر الغايات السلمية، والسكوت عن إسرائيل ومفاعلاتها النووية وترساناتها التى تختزن ۲۰۰ رأس نووى جاهز للتفجير والعدوان، كما تقول بعض المؤسسات العسكرية.

لو أن المسلمين كانوا يستخدمون الآلة الاقتصادية فى تعديل المواقف السياسية الغربية المتطرفة تجاه العالم الإسلامى لتغير وجه العلاقات الإسلامية- الغربية، ولم يتمكن الغرب من أن يمارس هذا النفوذ الواسع فى العالم الإسلامى، ولم يسع الغرب أن يستهتر بهذه الصورة بكل القيم الدبلوماسية والسياسية فى علاقاتها بالعالم الإسلامى.

ولكن ما الحيلة إذا كان حكام العالم الإسلامى فى الغالب لا يجرؤون على التطاول على الإرادة السياسية الغربية، وبشكل خاص الإرادة السياسية الأمريكية، ولا يمتلكون الشجاعة الكافية لاتخاذ أى قرار سياسى أو اقتصادى يعارض مصالح أنظمة الاستكبار العالمى، ويتجاوز الخطوط الحمراء المرسومة لهم؟!

إن حركة غاضبة عفوية قامت بها جماهيرنا فى مقاطعة البضائع الدنماركية، عندما أساءت صحيفة دانمركية إلى رسول الله ٩، وامتنعت الدانمارك من الاعتذار إلى المسلمين ومعاقبة الصحيفة، كان لها تأثير كبير فى تعديل موقف الحكومة الدانمركية والحكومات الاسكندنافية، التى وقفت إلى جانب الدانمارك فى حينه.

إن الموقف الصحيح فى هذه المسألة الخطيرة هو الحضور المليونى الموحّد فى الساحة، والهتاف بمقاطعة العولمة الاقتصادية الزاحفة إلى العالم الإسلامى، والمطالبة باستخدام الآلة الاقتصادية فى قضايانا السياسية الأُم، والمناداة بتحرير أسواقنا من سيطرة البضاعة التى تصدرها إلينا الدول الصناعية الكبرى. والدعوة إلى تحرير مصادرنا الطبيعية للثروة وإنتاجنا الزراعى والحيوانى من نفوذ الدول الكبرى، والمناداة بالوصول إلى حالة الاكتفاء الذاتى، والتشهير بالأنظمة والحكام الذين يستخدمون مواقعهم فى الحكم لتمكين النفوذ الاقتصادى الغربى والشرقى (الاستكبارى) من أسواقنا ومصادرنا الطبيعية، ودعوة الجمهور إلى استخدام المقاطعة الاقتصادية عندما

يتطلب الأمر، ويتقاعس الحكام ويجبنون عن اتخاذ القرار الاقتصادى المناسب.

إن الحضور الواعى القوى للأمة فى الساحة الإسلامية، فى كل المراكز والحواضر والعواصم الإسلامية يؤدى بالضرورة إلى تعديل قرار كثير من الأنظمة والحكام الذين يحكمون العالم الإسلامى، كما يؤدى إلى تعديل القرارات الاقتصادية والسياسية لدول الاستكبار العالمى تجاه العالم الإسلامى وتخفيف الضغوط السياسية والاقتصادية عليه.

ص: ۴۱

ص: ۴۲

ص: ۴۳

ص: ۴۴

المشروع الوحدوی .. رواداً ومواقف

محسن الأسدی

نتعرض باختصار إلی المشروع الوحدوی فی الساحة الإسلامیة فی بصماته الأولی عبر مؤسّسیه الأوائل، والذین شغلهم أمره وراحوا یبذلون جهودهم وإمکانیاتهم لتحقیقه والدفاع عنه، لأنه یعدّ الخط الأول فی الدفاع عن الدین الحنیف وعن ساحته والمسلمین جمیعاً، وقد انطلق عمل المؤسسین هؤلاء من التأسیس الشرعی والأحکام الشرعیة، لهذا المبدأ المتین الذی جاءت من أجل تحقیقه کل الدیانات السماویة من خلال کتبها وجهود رسلها وأنبیائها والصالحین ..، وهو ما نراه واضحاً فی مواقف رسول الله ۹ وأحادیثه، ومواقف أئمة أهل البیت: وسیدهم أمیر المؤمنین الإمام علی ۷، وهو الذی کان یعد- بعد رسول الله ۹- أول رائد لوحدة المسلمین وقد سبق الجمیع فی هذا المضمار بما یملکه من إیمان ثابت، وإسلام وثیق، وجهاد مریر، وعلم غزیر، وحرص علی الرسالة والمؤمنین بها وعلی أهدافها ومستقبلها، وبما یتوفر علیه من وعی عمیق بالساحة المسلمة ومعرفة بما فیها وما یحیطها من مخاطر جسام مع کل ما عاناه من مصادرة لحقه وتجاوز علیه .. فمع أنه ۷ کان یری أحقیّته بمنصب الخلافة بلا فصل بعد رحلة رسول الله ۹ إلی ربه تعالی، إلا أنه غض النظر عن حقه، ووقف ممن تولاها من الخلفاء الثلاثة بکل ما تملیه علیه مصلحة الدین ووحدة الأمة وحفظ کیانها، فلم یکتف بمسالمتهم وإنما تجاوز ذلک إلی نصیحتهم وإرشادهم ومؤآزرتهم فیما تعرضت له الساحة الإسلامیة من مخاطر، فکانت مواقفه تحددها المصلحة الإسلامیة ومن أجل وحدة الساحة الإسلامیة فقط وفقط، ولم تکن مواقفه من أجل الأشخاص، فکان خیر ناصح للخلفاء وللمسؤولین، وکان أمیناً علی الرسالة ووحدة الأمة .. وهذه نماذج من أقواله التی تحکی مواقفه:

فقد عبر الإمام عن موقفه الحریص علی الوحدة الإسلامیة مع إشارته بل تصریحه بحقه .. بقوله:

«إن الله لما قبض نبیه، استأثرت علینا قریش بالأمر، ودفعتنا عن حق نحن أحقّ به من الناس کافة، فرأیت أن الصبر علی ذلک أفضل من تفریق کلمة المسلمین، وسفک دمائهم، والناس حدیثو عهد بالإسلام، والدین یمخض مخض الوطب، ویفسده أدنی وهن، ویعکسه أقل خلف» (۱).

وقوله کما فی کتابه إلی أهل مصر عندما ولّی مالک الأشتر علیها:

«فما راعنی إلا انثیال الناس علی أبی بکر یبایعونه فأمسکت یدی حتی رأیت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، یدعون إلی محق دین محمد، فخشیت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أری فیه ثلماً أو هدماً تکون المصیبة علیّ أعظم من فوت ولایتکم التی هی متاع أیام قلائل یزول منها ما کان کما یزول السراب أو کما یقشع السحاب، فنهضت فی تلک الأحداث حتی زاح الباطل وزهق، واطمأن الدین وتنهنه».

ویقول فی هذا المجال المتعال الصعیدی أحد کبار علماء الأزهر:

«حبس الإمام علی ۷ رأیه فی أنه أحق من أبی بکر بالخلافة فی نفسه، فأخلص له فی سره وجهره ولم یضمر حقداً علیه ولا ضغینة ولم یحاول أن یکنّ له أو یأتمر به، بل وقف منه فی حرب الردة موقفاً یدل علی کمال الإخلاص، ویعلن تمام الود، فإن أبا بکر حین خالفه المسلمون فی حرب المرتدین ومانعی الزکاة خرج وحده شاهراً سیفه فلحق به علی ۷ فأخذ بزمام راحلته، وقال له: إلی أین یا خلیفة رسول الله؟ لا- تفجعنا فی نفسک فوالله لو أصبنا بک لا یکون للإسلام نظام. فرجع أبو بکر فمکث فی المدینة وسمع هذه النصیحة الخالصة لعلی ۷.

۱- انظر شرح نهج البلاغة ۹۵: ۶.

ص: ۴۵

والشـیء نفسه أیضاً حدث لما استـشاره الخلیفهٔ الثانی فی الخروج إلی غزو الروم فنصـحه أن لا یخرج إلیهم بنفسه وقال له: «إنک متی تسـر إلی هـذا العـدو بنفسـک، فتلقهم فتنکب لا یکن للمسـلمین کهف دون أقصـی بلادهم، لیس بعـدک مرجع یرجعون إلیه، فابعث إلیهـم رجلًا محربـاً، واحفز معه أهـل البلاء والنصـیحهٔ، فـإن أظهر الله فـذاک مـا تحـب، وإن تکن الأخـری، کنت ردأ للنـاس ومثـابهٔ للمسلمین» (۱).

وأیضاً کان موقفه الآخر فی مسألـهٔ الشوری التی عینها الخلیفـهٔ الثانی لاختیار الخلیفهٔ من بعده، وجاء اختیار عثمان بن عفان خلیفهً وفق القاعدهٔ التی وضـعها الخلیفهٔ الثانی لعمل دائرهٔ الشوری وإن کان شـرطاً مؤلماً. لکن الإمام علیاً ۷ لما رأی النتیجهٔ هکذا آلمته کثیراً إلا أنه أعلن موافقته تلبیهٔ للمصلحهٔ الإسلامیهٔ ولما تقتضیه وحدهٔ الساحهٔ المسلمهٔ وخوفاً من وقوع الفتنهٔ والفرقهٔ ولم تکن استجابهٔ لشخصیهٔ بذاتها أو لمصلحهٔ ذاتیهٔ یبتغیها أبداً .. وهذا هو خطابه ۷ لأهل الشوری أنفسهم یبین رأیه بشکل جلی:

«لیس هذا أول یوم تظاهرتم فیه علینا (فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلی ما تَصِفُونَ) (۲)

وخاطبهم أیضا بقوله: «لقد علمتم أنی أحق بها من غیری، ووالله لأسالمنَ ما سـلمت أمور المسـلمین ولم یکن بها جور إلا علیّ خاصهٔ، التماساً لأجر ذلک وفضله، وزهداً فیما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» (۳).

وطالمـا قـدم للخلیفـهٔ عثمـان النصـیحهٔ ولم یبخـل علیه بکلمـهٔ تنفعه، وعمـل ینجیه، وقـد تفاقمت علیه الفتنـهٔ التی أودت أخیراً بحیاته، وأوضح له أسباب الفساد، وعلیه أن یقتلع هذه الأمراض التی انتابت حکومته .. وکان یقول له:

«أما الفرقـهٔ فمعاذ الله أن أفتـح لها باباً، وأسـهل إلیها سبیلًا، ولکنی أنهاک عما ینهاک الله ورسوله عنه، وأهـدیک إلی الرشد، ألا تنهی سفهاء بنی أمیهٔ عن أعراض المسـلمین وأبشارهم وأموالهم، والله لو ظلم عامل من عمالک حیث تغرب الشمس لکان إثمه مشترکاً بینه وبینک». وکان یحـذره من مروان بن الحکم رأس الفساد، ومن الأخذ برأیه فیقول له: «فلا تکونن لمروان سـیقهٔ یسوقک حیث شاء» .. (۴)

ثم راحت مواقفه تتری معهم علی جمیع المستویات مقدماً مصلحهٔ الإسلام العلیا فی قوته ووحدته وبقائه علی أیّ مغنم أو مکسب آنی أو ذاتی ..

وهکذا ظل الإمام علی ۷ فی کل مواقفه وهی کثیرهٔ، وقد تعالا فیها علی جراحه وآلامه ولم یسع وراء السـلطهٔ وحطامها، مؤثراً الإسـلام ووحدهٔ الأمهٔ المسلمهٔ وبقاءها موحدهٔ قویهٔ، وقد دفع حیاته ۷ ثمناً لها ..

الإمام زین العابدین

وهذه المواقف الوحدویهٔ لم تتوقف وراحت تسـتمر عبر أئمهٔ المسـلمین وهی تنبع عن مبدأ أکید یعیشه أهل البیت: یأتی من حرصـهم علی الإسـلام وبیضته ووحدته، فلیس الأمر مختصاً بالإمام علی ۷ فهذا حفیده الإمام علی بن الحسـین زین العابدین ۷ وهو الإمام الرابع من أئمهٔ أهل البیت: (وفاته سنهٔ ۹۵ هجریهٔ)، فقد برز هذا المشروع الوحدوی واضحاً فی حیاته المبارکهٔ، فقد کان یدعو الله ویطلب من المسـلمین أن یدعوا الله تعالی طلباً لنصـر جیش إسـلامی ذاهب إلی قتال الروم رغم أن قیادهٔ هذا الجیش لبنی أمیهٔ المسـتقرهٔ فی الشام ارتکبت تلک المجزرهٔ الرهیبهٔ البشـعهٔ فی کربلاء فی شهر محرم سنهٔ ۶۱ هجریهٔ بحق أبیه الإمام الحسین ۷ وأهل بیته وأصحابه رضوان الله تعالی علیهم.

وقـد تجاوز هذا کله وما ترکه الأمویون فی قلبه من جراح، راح یضـغط علیها، ویؤازر ذلک الجیش ویرفع یدیه بالدعاء له بالنصـر وهو دعاء الثغور المعروف، وهذه مقاطع منه:

«اللهم صل علی محمد وآله وحصن ثغور المسلمین بعزتک وأید حماتها بقوتک وأسبغ عطایاهم من جدتک ... وکثر عدتهم واشحذ أسلحتهم ... وأفرغ علیه الصبر وسهل له النصر ...».

وذلک کتأکید من الإمام زین العابدین ۷ علی القضیة الإسلامیة الأساس، وهی انتصار المسلمین الذی کان یهمه ووحدتهم التی کانت تؤرقه ..

الإمامان الباقر والصادق ۸

وقد تمثل هذا المشروع الوحدوی أیضاً فی علاقة الإمامین الباقر ۷ المتوفی سنة ۱۱۴ هجریة، والصادق ۷ المتوفی سنة ۱۴۸ هجریة، وهما الإمام الخامس والسادس من أئمة أهل البیت:، وکانا أصحاب مدرسة فکریة کبری کانت ساحاتها ملیئة بالکثیر من طلبة العلم وأساتذته وهم من مختلف المذاهب الإسلامیة وخصوصاً فی زمن الإمام الصادق ۷ وبعد أن اتسع میدان نشاطه وصار أکثر حریة وخفت علیه ضغوط حکام عصره لانشغالهم بما وقع بینهم من خلاف ونزاع .. راح ۷ یستغل هذه الفرصة النادرة بأن یوسع من مدرسته ویبث جهوده وأفکاره ویحث الآخرین علی طلب العلم ویحترمهم وإن اختلف معهم فی الرأی، ویحض أصحابه علی حسن الحوار ومعرفة المنهج الصحیح فی النقاش مع المختلف .. حیث کانت له مع أئمة المذاهب الإسلامیة والمدارس الفکریة فی زمانه لقاءات ولا سیما مع إمام المذهب الحنفی والمالکی، بحیث ما کانا یشعران بالحرج من التردد علی الإمام الصادق والاستفادة منه .. کما کان ۷ یحرص علی الانفتاح علیهما ..

روّاد الوحدة الإسلامیة

۱- نهج البلاغه: ۱۹۲ صبحی الصالح.

۲- یوسف: ۱۸؛ وانظر: الکامل فی التاریخ ۷۱: ۳.

۳- نهج البلاغه: ۱۰۲.

۴- شرح نهج البلاغه ۱۵: ۹، ۲۶۲.

ص: ۴۶

وانطلاقاً من النصوص التالیة التی تحدد الحکم الشرعی، ومن تلک المواقف الشرعیة لأئمة المسلمین ومن غیرها وهی کثیرة لمن أراد تتبعها، بقی موقف الدعوة إلی الوحدة والتقارب بین أتباع المذاهب الإسلامیة، نهجاً واعیاً سار علیه الواعون المصلحون من علماء ومفکری الأمة ودعاتها قدیماً وحدیثاً، ودعائم ذلک لا بد من الاعتراف والالتزام بها، وتتمثل هذه الأسس أو الدعائم بالنقاط التالیة:

النقطة الأولی: الاهتمام الکبیر والواعی بمصالح الأمة الإسلامیة عموماً، وهی تتوقف علی وحدتها، ووحدتها هدف مرکزی لا یصح التخلی عنه أبداً، لأنه غایة التشریعات الإسلامیة بل هو هدف البعثة النبویة الشریفة .. وتهون من أجله کثیر من الأمور. فوحدة الأمة مطلب دینی، أکد علیه القرآن الکریم فی آیات کثیرة کقوله تعالی:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ) (۱).

وقوله تعالی: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِیعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ) (۲).

وأقوال رسول الله ۹ فی موارد مختلفة، ومنها:

«مثل المؤمنین فی توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتکی منه عضو تداعی له سائر الجسد بالسهر والحمی» (۳).

وقوله ۹: «لا تختلفوا فإن من کان قبلکم اختلفوا فهلکوا» (۴).

ثم إن الوحدة إضافة إلی کونها مبررة شرعاً ولا ـ یجوز مخالفة ما جاء به الشرع المقدس، فإن فیها مصلحة للأمة وحفظاً لها، وأن تماسک أبنائها ورصّ صفوفهم یعد إعزازاً لدین الأمة وتثبیتاً لها أمام أعدائها والمتربصین بها، وهذه أمور یهتدی إلیها کل إنسان بعقله.

وانطلاقاً من هذین الأمرین «الشرعی والعقلی» غدت قلوب علماء الأمة تتألم لواقع تمزقها وتفرقها، وهم یرون أن ما من أمة قویت شوکتها وبنت کیانها وقارعت أعداءها إلا بوحدتها .. لهذا راحوا یتطلعون لإنقاذها وتخلیصها من کل ما یعیق وحدتها ویعکر صفو حیاتها .. وهم بهذا یرون أنهم یتعبدون الله تعالی بموقفهم هذا، ویتقربون إلیه بالسعی لوحدة الأمة، والعمل من أجل تماسکها، وتجنیبها الفتن والصراعات. ویرون التقصیر فی ذلک ذنباً من کبائر الذنوب وموجبات الإثم والعقاب.

النقطة الثانیة: لا بد من الاعتراف بالتعدد المذهبی القائم فی الساحة المسلمة. فهو أمر واقع لا یمکن الفرار منه أو التغافل عنه وله أسسه وجذوره وتراثه وعلماؤه ومریدوه .. ولیس هناک أحسن من التعامل معه واحترامه والاستفادة منه وتحویله إلی عنصر إیجابی ینفع دین المسلمین ومسیرتهم ووحدتهم ..

النقطة الثالثة: الترکیز علی مساحات التوافق الواسعة الواردة فی هذه المذاهب، وهی کثیرة یمکن أن تکون هذه المشترکات دافعاً مشجعاً بل قویاً لبناء أواصر المحبة والمودة والتفاهم والأخوة بین أبناء الأمة ..

النقطة الرابعة: تشخیص موارد الخلاف فی هذه المذاهب، ثم الاتفاق علی أن لا تشکل مانعاً للحوار وأن لا تکون عائقاً أمام وحدتهم وبأن تحید ریثما تتم دراستها تمهیداً للحوار العلمی الهادئ فیها ..

لم یجد هؤلاء المصلحون فی دعوتهم للوحدة والتقریب طریقهم الوحدوی هذا بلا عوائق ومصاعب، من جهات متعددة، منها الجهات السیاسیة التی تری فی وحدة الأمة تقویضاً لکیانها، لهذا راحت تخالف الوحدة لأنها تخالف أغراضهم، وهناک جهات دینیة وقوی اجتماعیة تتبنی خط التشدد المذهبی لسوء فهمها أو أنها تری ارتباط مصالحها بمعادلات الخلاف المذهبی الطائفی. إلا أن المصلحین من الفرق الإسلامیة لم یفت فی عضدهم کل تلک الموانع والأذی، الذی یلحق بهم، لإخلاصهم فی مسیرتهم ودقة معرفتهم بخدمة الدین وأهدافه والأمة ومسیرتها، وهو ما یجعلهم أکثر استقامة وثباتاً وتحملًا للآلام والصعاب ..

نعم، استمر التأکید علی هذا المشروع الوحدوی من خلال العلماء من المسلمین الشیعة والسنة، الذین کانوا یحرصون علی تأکید التواصل والحوار وتعریف السنة بما عند الشیعة والشیعة بما عند السنة، والتأکید علی الوحدة فی القضایا الکبری والأساسیة .. وهو ما

نجده عند كثيرين- رضوان الله تعالى عليهم- قديماً وحديثاً، نأتى فى مقالتنا هذه على ذكر عدد منهم وموقف من سيرتهم، أو نبذة مما كتبوه ودونوه، وفى طليعتهم:

الشيخ المفيد (۴۱۳ ه) وتلامذته

نعم هذا ما نلمسه عند الشيخ «أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثى العكبرى البغدادى المعروف بالشيخ المفيد» وهو أحد أبرز علماء الشيعة الإمامية فى القرن الثالث للهجرة، وكان عصره عصر النهضة العلمية، فأدرك كثيراً من أعاظم علماء عصره من الفريقين من المحدثين والمتكلمين والفقهاء وسمع منهم وقرأ عليهم، فقد كان له الكثير من الأساتذة والتلامذة من علماء السنّة.

ومن الطريف أن أحد علمائهم وهو على بن عيسى الرمانى المعتزلى (۲۹۶- ۳۸۴ ه) هو الذى أطلق اسم المفيد عليه .. انظر ترجمة الشيخ المفيد (اسمه ولقبه) فى مقدمة كتاب الجمل ولعل فى غيره موجودة قصة تسميته بالمفيد وهى قصة لطيفة نافعة علمياً تتضمن نقاشاً علمياً بين الشيخ المفيد والعالم المعتزلى المذكور، وعلى أثرها لقبه باللقب الذى اشتهر به.

۱- الأنبياء: ۹۲.

۲- آل‌عمران: ۱۰۳.

۳- صحيح مسلم: ۱۳۹۶، ح ۲۵۸۶.

۴- صحيح البخارى ۱۰۱: ۲.

ص: ۴۷

لقد كانت مدينة بغداد يومذاك عاصمة الدولة الإسلامية وتعدّ المركز الثقافي للعالم الإسلامي ومملوءة بكثير من العلماء أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة، وكانت مجالس المناقشة والمناظرة والمباحثة قائمة فيها وتنعقد بحضور الخلفاء والملوك وسائر أرباب النفوذ فكان للشيخ المفيد حضور متميز فيها شهد به الجميع .. المفيد، الذي راح يدرّس فقه المذاهب الإسلاميّة الأخرى إلى جانب الفقه الجعفري في بغداد، وظلّ مرجعاً للسنّة والشيعة ..

السيدان المرتضى والرضى

واستمرت هذه العلاقة المتبادلة والتواصل بين علماء السنة والشيعة بعد الشيخ المفيد من خلال تلميذيه السيد الشريف المرتضى علم الهدى على بن الحسين الموسوى (۴۳۶ ه) وأخيه السيد الشريف الرضى محمد بن الحسين الموسوى (۴۰۶ ه) حيث كانت لهما علاقات أخوية وعلمية مع كثير من علماء السنة، وقد صنف السيد الرضى كتاباً اسمه «حقائق التأويل» وكان أغلب الذين ينقل عنهم هم من أهل السنة حتى أن الذى يقرأ الكتاب لا يستطيع أن يميز فيما إذا كان مؤلفه شيعياً أو سنياً، الأمر الذى أثار حالة من الشك لدى بعض المترجمين لسيرته ..

الشيخ الطوسى

ومن هؤلاء أيضاً الذين كان همهم وحدة الساحة واحترام آراء الآخرين من الفريق الثانى بكل رحابة صدر ومنهم:

الشيخ الطوسى أبو جعفر محمد بن الحسن (۴۵۰ ه) والملقب بشيخ الطائفة الإمامية، وهو من تلامذة الشيخ المفيد والسيد الشريف المرتضى، وتذكر الروايات التاريخية أن الخليفة العباسى الذى عاصره منحه كرسى علم الكلام فى بغداد، وهو أعلى منصب علمى آنذاك، وكان يجلس عليه ويلقى دروسه على تلامذته، وكان الغالب عليهم أنهم من أهل السنّة.

ويقول فى هذا الصدد المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم وهو من مؤسسى دار التقريب القاهرية وكبار المفتين فى القرن الماضى: إنه وبعد عشرة قرون من وفاة الشيخ الطوسى لم يكن يفتى بشيء فى لجنة الإفتاء ما لم يراجع المسألة الفقهية فى كتاب المبسوط الذى هو درة الكتب الفقهية التى اشتملت على آراء مذاهب أهل السنّة وآراء علمائهم كما أورد آراء علماء الشيعة. ومروراً بالشيخ الطوسى وكتابه «الخلاف» الذى تضمّن فتاوى المذاهب الإسلاميّة المختلفة مشيراً فيه إلى مواطن الاتّفاق والاختلاف بين المذاهب ..

الحلى (۷۲۶ ه)

وهو الشيخ الحسن بن يوسف بن على بن المطهّر الحلى المتوفى سنة ۷۲۶ هجرية والمعروف بالعلّامة الحلى ..

لقد استمر هذا الجهد الوحدوى بعد عصر الشيخ الطوسى، ففى القرن السابع الهجرى برز العلّامة الحلى وهو من علماء الفقه والتاريخ الإسلامى حيث عمل فى كتابه «منتهى المطلب» على إبداء الآراء الفقهية استناداً إلى المراجع الفقهية المعتبرة لدى المسلمين الشيعة والسنة.

الخواجه نعيم الدين الطوسى

وأيضاً كان للخواجه نعيم الدين الطوسى المتكلم والفيلسوف الشهير المتوفى سنة (۶۷۲ ه-) كتاب سمى «بتجريد الكلام» وهو من المتون الكلامية المعروفة، وقد عكف على شرحه العديد من العلماء الكبار للفريقين من السنة والشيعة ..

العلامة الطبرسى (۵۸۴ ه-)

ومن العلماء البارزين أيضاً فى هذا المجال، العلامة الطبرسى الذى ألّف مصنفات فى الفقه والتفسير، منها كتاب «مجمع البيان فى علوم القرآن» والذى ذكر فيه الآراء المختلفة للمسلمين السنة والشيعة فى تفسير القرآن الكريم. وقد كتب الشيخ محمود شلتوت مقدمة لهذا التفسير فى طبعته القاهرية التى نشرتها التقريب، وقد أشاد فيها بموضوعية العلامة الطبرسى ونزاهته وإسلاميته وإنكاره للتعصب واعتبر هذا التفسير أفضل ما صنف المسلمون عامة.

وليس الشيعة فقط، كما أثنى عليه مفتى الديار المصرية وشيخ جامع الأزهر الأسبق الشيخ عبد المجيد سليم ووصفه بأنه طليعة كتب التفسير ومرجع العلوم والبحوث القرآنية ..

ولم يشذ علماء ما يسمى بعصر النهضة عن هذه القاعدة .. إن الأنشطة الوحدوية وكل التحركات الخاصة بهذا المبدأ، لم ولن تتوقف وستستمر من قبل العلماء المسلمين الواعين على مرّ الأزمنة والعصور دون يأس أو كلل، وهى تعمل على نبذ الفرقة والتشتت، ثم التركيز والتأكيد على الجو الوحدوى، الذى تحكمه القاعدة المعروفة «اللقاء على ما اتفقنا عليه والحوار فيما اختلفنا عليه».

وها نحن هنا نشير بإيجاز لبعض هؤلاء الأعلام الذين سجلوا أروع الأمثلة فى جهودهم الوحدوية المخلصة المتمثلة فيما حرّروه عبر كتاباتهم ومحاوراتهم وخطبهم وأعمالهم وجهودهم ..

السيد جمال الدين الأفغانى (۱۳۱۴ ه-)

ص: ۴۸

فقط کانت حرکهٔ السید جمال الدین الأفغانی تصب فی تأکید الوحدهٔ الإسلامیهٔ فی مواجههٔالتحدی السیاسی الذی کان یواجه العالم الإسلامی عندما دعا إلی تشکیل جبههٔ واحدهٔ موحدهٔ فی وجه المستغربین .. وقد أثرت أفکاره فی تلمیذه الشیخ محمد عبده وعبد الرحمن الکواکبی وأحمد عرابی باشا وغیرهم ..

المیرزا الشیخ محمد حسین النائینی (۱۳۵۵ ه-)

وفی بدایات عمره کان علی علاقهٔ وثیقهٔ بالسید جمال الدین الأفغانی منذ أیام دراسته فی أصفهان، ولم تلبث هذه العلاقهٔ أن توثقت عراها فیما بعد، وکان من الأنصار الأقویاء للحرکهٔ الدستوریهٔ فی إیران، وقد ألف کتابه المشهور «تنبیه الأمهٔ وللشهید مطهری رأی فی الکتاب والأسباب التی دعت النائینی إلی جمع نسخه ومؤاثرهٔ السکوت والصمت حیث یقول:

«لم یفسر التوحید العلمی والاجتماعی والسیاسی فی الإسلام، تفسیراً دقیقاً أفضل من تفسیر العلامهٔ والمجتهد الفذ المرحوم المیرزا محمد حسین النائینی المستدل والمستشهد بإتقان من القرآن ونهج البلاغهٔ فی کتابه القیم «تنبیه الأمهٔ وتنزیه الملهٔ»، وإنّ کل ما کان یقصد من أمثال الکواکبی حول التوحید فإن المرحوم النائینی أثبته فی ذلک الکتاب بأدلهٔ إسلامیهٔ، ولکن مع الأسف إن محیط الجهل الذی عمّ مجتمعنا هو الذی دفع المرحوم النائینی إلی السکوت والصمت بعد نشره الکتاب».

محمد حسین کاشف الغطاء (۱۳۷۲ ه-)

وقد استمرت مسیرهٔ الدعوهٔ الوحدویهٔ أیضاً من خلال الشیخ محمد حسین کاشف الغطاء الذی أکد أن الخلافات بین المسلمین فی القضایا الفقهیهٔ والعقیدیهٔ، لا- تؤثر فی الانتماء الإسلامی، فیمکن التعارف والتعاون بشأن القضایا الراهنهٔ فی العالم الإسلامی فی المجالات السیاسیهٔ والاقتصادیهٔ والعلمیهٔ وترسیخ الأخوهٔ فیما بین المسلمین والذین یتمسکون بالأصول العامهٔ انطلاقاً من قوله تعالی: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

لذا راح یقول: إن الذین لا یؤمنون بالإمامهٔ طبق العقیدهٔ الشیعیهٔ ویصلون ویصومون ویؤمنون بالتوحید والقرآن هم مسلمون وإخوهٔ لنا تجمعنا بهم هذه الأصول المشترکهٔ.

ثم نقل الشیخ محمد حسین کاشف الغطاء الأحادیث الشریفهٔ التی تصرح بأن کل من شهد الشهادتین هو مسلم فلم یحصر الانتماء للإسلام بالشیعهٔ الإثنی عشریهٔ.

وقد کان للشیخ کاشف الغطاء الدور العملی البارز فی التقارب والوحدهٔ الذی عبر عنه من خلال حضوره الفعال فی المؤتمر الإسلامی الذی انعقد فی مدینهٔ القدس الشریف حیث أمَ المصلین فی مسجد الأقصی المبارک. کما سافر أیضاً لهذه الغایهٔ إلی دمشق وبیروت والقاهرهٔ وفلسطین وکراتشی وطهران إضافهٔ إلی الدیار المقدسهٔ ..

السید عبد الحسین شرف الدین (۱۳۷۷ هجریهٔ)

وفی سنهٔ ۱۳۲۸ هجریهٔ وکذا فی سنهٔ ۱۳۴۰ هجریهٔ کانت للسید عبدالحسین شرف الدین أنشطهٔ عدیدهٔ وهو فی زیارته لدول عربیهٔ والدیار الحجازیهٔ المکرمهٔ ومنها ذهب إلی فلسطین ومصر حیث الأزهر الشریف، وهناک اجتمع بعلماء الأمهٔ وعلی رأسهم إمام الأزهر الشریف آنذاک الشیخ سلیم البشری وجرت بینهما حوارات مهمهٔ صبت جمیعها فی خدمهٔ الوحدهٔ الإسلامیهٔ ...

وهو أول عالم شیعی أم الجماهیر الضاغطهٔ المزدحمهٔ فی المسجد الحرام بمکهٔ المشرفهٔ، وهی أول مرهٔ تقام فیها الصلاهٔ وراء إمام شیعی علی هذا النحو العلنی تجتمع فیه الألوف .. لقد أم المصلین فی الحرم المکی وخطب فیهم .. (۱)

الشیخ محمد الخالصی (۱۹۶۳ م)

وفی مصلحهٔ التقارب بین المذاهب الإسلامیهٔ، عززت هذه المواقف أیضاً تحرکات وحدویهٔ مماثلهٔ لمرجع شیعی هو الشیخ محمد الخالصی حیث سعی إلی لقاء ضمّه مع علماء الشام الأعلام، ومن بینهم الشیخ محمد سعید المعرفی الذی کان رئیساً للمجلس الأعلی

فی سوریا وقـد دارت بینه وبین الإمام الخالصـی حوارات مهمهٔ تکللت بزیارهٔ قام بها الشـیخ المعرفی لمدینهٔ الکاظمیهٔ فی بغداد، حیث زار المدرسـهٔ الخالصـیهٔ وقـد ألقی فیها الشـیخ المعرفی خطبهٔ صـلاهٔ الجمعهٔ، وکانت من أروع الخطب وذلک یوم ۳۰- ۱۲- ۱۹۵۱ م. حیث کانت دعوهٔ صادقهٔ للتخلص من التفرقهٔ وإقامهٔ الوحدهٔ الإسلامیهٔ ..

الشیخ محمد أمین زین الدین (۱۴۱۹ ه-)

وبموازاهٔ تحرک الشـیخ الخالصـی کـان هناک تحرک وحـدوی لمرجع آخر، وهو الشـیخ محمـد أمین زین الـدین، وذلک من خلال الرسائل التی کان یتبادلها مع فضیلهٔ العلامهٔ الشیخ أحمد حسن الباقوری، وکان من أبرز أساتذهٔ علماء الأزهر الشریف، وقد أصبح فیما بعد وزیراً للأوقاف فی مصـر، وقد نقل فضـیلته هذه الرسائل فی مقدمهٔ کتاب «المختصر النافع فی فقه الإمامیهٔ» للمحقق الحلی المتوفی سنهٔ ۶۷۶ هجریهٔ والمطبوع فی مصـر عام ۱۹۵۴ م والتی کانت تـدور بینه وبین الشـیخ زین الـدین، وجمیعها کانت تـدعو إلی التقارب والتآخی بین أبناء المذاهب الإسلامیهٔ ..

۱- انظر: مقدمهٔ المراجعات: ۴۲، بقلم آیهٔ الله الشیخ مرتضی آل یاسین.

ص: ۴۹

السید هبهٔ الدین الشهرستانی (۱۳۸۶ ه)

وهو من کبـار رواد التقریب بین المـذاهب، وللسید هبـهٔ الـدین علاقـهٔ طیبـهٔ ومتینـهٔ بالعالم الإسـلامی، فقـد عاش الرجل للإسـلام کله وللمسلمین کلهم. کانت تصل إلیه من مختلف الأقطار الإسلامیّهٔ استفتاءات وأسئلهٔ واسترشادات وکان یرد علیها.

وله کتابات فی مجال التقریب بعنوان: «رمضان رمز تقریب القلوب وتألیف الشعوب» (۱).

محمد رضا المظفر (۱۳۸۴ ه-)

إضافهٔ إلی نشاطه العلمی والکتابهٔ والتألیف، کان هم التقریب بین المذاهب وبالتالی وحدهٔ الصف المسلم یشکل جزءاً مهماً وکبیراً من دائرهٔ نشاطه، وراح یصبو إلیه ویعمل، وهو القائل فی مجال التقریب:

وإنی لواثق بأن فکرهٔ التقریب بین المـذاهب أصـبحت الیوم حاجـهٔ ملحهٔ وهدفاً رفیعاً لکل مسـلم غیور علی الإسـلام مهما کانت نزعته المذهبیـهٔ ورأیه فی المخلفـات العقائدیـهٔ، ولیس شـیء أفضـل فی التقریب من تولی أهل کل عقیـدهٔ أنفسـهم کشف دفائنها وحقائقها وهذه الطریقهٔ فیما أعتقد أسلم فی إعطاء الفکرهٔ الصحیحهٔ عن المذهب وأقرب إلی فهم الصواب من الرأی الذی یعتنقه جماعته.

ولا- یجهـل خبیر مقـدار الحاجـهٔ الیوم خاصـهٔ إلی التقریب بین جماعـات المسـلمین المختلفـهٔ ودفن أحقـادهم إن لم نسـتطع أن نوحد صفوفهم، وجمعهم تحت رایـهٔ واحـدهٔ، أقول ذلک، وإنی لشاعر مع الأسف أنّا لا نسـتطیع أن نضع شـیئاً بهذه المحاولات مع من جربنا من هؤلاء الکتاب کالدکتور أحمد أمین وأضـرابه من دعاهٔ التفرقهٔ فما زادهم توضیح معتقدات الإمامیهٔ إلّا عناداً وتنبیههم علی خطاهم إلّا لجاجاً، وما یهمنا من هؤلاء وغیر هؤلاء أن یستمروا علی عنادهم مصـرین لولا خشـیهٔ أن ینخـدع بهم المغفلون فتنطلی علیهم تلک التخرصات وتورطهم تلک التهجمات فی إثارهٔ الأحقاد والحزازات.

إن من أعظم وأجمل ما دعا إلیه الدین الإسلامی هو التآخی بین المسلمین علی اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ومنازلهم. بلی إن المسلمین لو وقفوا لإدراک أیسر خصال الأخوهٔ فیما بینهم وعلموا بها لارتفع الظلم والعدوان من الأرض، ولرأیت البشر إخواناً علی سرر متقابلین قـد کملت لهم أعلی درجات السـعادهٔ الاجتماعیـهٔ، ولتحقق حلم الفلاسـفهٔ الأقـدمین فی المدینـهٔ الفاضـلهٔ، فما احتاجوا حینما یتبادلون الحب والمودهٔ إلی الحکومـات والمحـاکم ولا- إلی الشـرطهٔ والسجون، ولا- إلی قـانون للعقوبـات، وأحکام للحـدود والقصاص، ولما خضعوا لمستعمر ولا خنعوا لجبار، ولا استبدّ بهم الطغاهٔ ولتبدلت الأرض غیر الأرض وأصبحت جنهٔ النعیم ودار السعادهٔ (۲).

السید الشهید محمد باقر الصدر (۱۴۰۰ ه-)

لقـد کان السـید الشـهید الصـدر یؤکـد فی خطاباته أن لا یکون هناک صـراع موجه ضد أیّ مذهب من المذاهب الإسـلامیهٔ، وبما أن العراق یعتبر مجتمعـاً متنوعـاً فی مـذاهبه وطوائفه، فقـد راعی الشـهید الصـدر هـذه الخصوصـیهٔ وهی نموذج للساحـهٔ الإسـلامیهٔ الأکبر والأوسع ذات المـذاهب المتعـددهٔ، وهو یبین أن الوحـدهٔ الإسـلامیهٔ لا بد لها من أن تقوم علی هذا التنوع، فتراه وهو یصارع الاسـتبداد والطغیان یخاطب المسلمین فی العراق دون أن یلغی هذا التمیز والانتماء والتلون:

«یا أخی السـنی ویا أخی الشـیعی»، ومبیناً أنه لیس لفئهٔ دون فئهٔ أو لمذهب دون مذهب أو لقومیهٔ دون أخری بل هو للجمیع عبر دفاعه عن رسالـهٔ الإسـلام الخالدهٔ «إنی منذ عرفت وجودی ومسؤولیتی فی هذه الأمهٔ، بذلت وجود ی من أجل الشـیعی والسـنی علی السواء، ومن أجـل العربی والکردی علی السواء، حیث دافعت عن الرسالـهٔ التی توحـدهم جمیعـاً وعن العقیـدهٔ التی تهمهم جمیعاً». إنها رسالهٔ الإسـلام التی توحدهم، ولهذا نراه یصـرح بأن الوحدهٔ التی یدعو لها یجب أن ترتکز علی الإسـلام دون سواه «أنا معکما یا أخی السنی والشیعی بقدر ما أنتما مع الإسلام».

أما فی داخل إیران فالـذی یبـدو أن موضوع الوحـدهٔ الاسـلامیهٔ کان موضع اهتمام واضح وأکید وأمراً معمولًا به عند العلماء الإیرانیین حتی منـذ زمن نادرشاه أفشار (۱۷۴۷) عنـدما استرد إیران من الأفغان وسـیطر علی الأفغان ووصل إلی باکسـتان ونیودلهی وتحدث مع

الدولة العثمانیة علی أساس الصلح بین الدولتین باعتبار أن حجمه الجغرافی والسیاسی والعسکری یوازی حجم الدولة العثمانیة وتعامل علی هذا الأساس حتی أنه حاول داخلیاً أن یتبنی مذهباً توفیقیاً بین الشیعة والسنّة ..

ونشیر هنا إلی عدد من علماء الإمامیة ممن کان همه الأول وحدة المسلمین، وراح یبذل قصاری جهوده عبر أنشطته وکتاباته وخطاباته وفتاویه ومن خلال علاقاته الطیبة مع علماء من أهل السنة:

السید حسین البروجردی (۱۳۸۰ ه)

وهو المعروف بأنه صاحب الأفکار الخلاقة فی مجالات عدیدة وأنشطة متنوعة .. وخصوصاً فی توحید الساحة المسلمة بالتقریب بین مذاهبها المتعددة.

ولا بد لنا من الإشارة إلی بعض الأفکار الوحدویة التی یمکننا استفادتها من مواقف السید من خلال ما کتب عنه.

۱- انظر فی هذا کله کتاب هکذا عرفتهم ۱۹۵: ۲ ومجلة رسالة الإسلام ۲۵۰: ۱.

۲- انظر عقائد الإمامیة: ۲۷، ۱۲۰.

ص: ۵۰

فمسألة الوحدة بین فرق المسلمین نالت اهتماماً کبیراً من قبله، ونتیجة لسعة اطلاعه بتاریخ المسلمین فإنه کان یعلم بأن تلک التفرقة التی زرعت بین مذاهب المسلمین وفرقهم، کانت من صنع الحکام الذین تسلّطوا علی رقاب المسلمین فی السابق، وقد اقتفی الاستعمار الأجنبی أثر ذلک النهج فی العصر الحاضر، حیث قام بإشعال نار التفرقة والاختلاف بین صفوف المسلمین، لیتسنی له حکمهم، والسیطرة علی ثرواتهم.

أما المسألة الأُخری التی کان یعتقدها السید البروجردی، فهی أن عزل الشیعة عن بقیة المذاهب الإسلامیة، حدا بطوائف المسلمین أن تجهل الشیء الکثیر عن مذهب الشیعة وأفکارها ومعتقداتها، ولهذا أکد علی ضرورة التفاهم بین مذهب الشیعة والمذاهب الأربعة لأهل السنّة، باعتبار أن الإسلام هو دین الوحدة، هذا من جهة، ومن جهة أُخری فإن أکثریة المسلمین هم من أهل السنة، فلا بد إذن من تعریف المذاهب الأُخری بمعتقدات الشیعة وأفکارها .. ونتیجةً لتظافر جهود علماء من الفریقین، تم تبادل وجهات النظر بینهم حول ما تعانیه الأمة، ووضع أسس للتعاون والتفاهم .. وقد أثمرت الجهود التقریبیة بشکل متمیز عن إصدار شیخ الأزهر الشیخ محمود شلتوت فتواه التاریخیة بجواز التعبد بمذهب الشیعة الإمامیة، هذه الفتوی التی أزاحت رکاماً کثیفاً من المقاطعة بین أهم فریقین یتقاسمان العالم الإسلامی.

ولا ـ بد لی من الإشارة إلی ما ذکره الشهید الشیخ المنتظری فی فصل من مذکراته إلی الاتصالات التی جرت بین المرجع الأعلی البروجردی فی الخمسینیات مع کبار علماء السنة، لاسیما مشایخ الأزهر، لإزالة سوء التفاهم القائم بین الشیعة والسنة والعمل سویاً لتعزیز أسس الوحدة بین المسلمین من جمیع المذاهب، حیث یقول:

کان المرجع الراحل البروجردی مهتماً بصورة جدیة بقضیة الوحدة بین المسلمین بحیث کان یأمل فی زوال الخلافات وحصول التقارب بین أبناء الأمة الواحدة. ولما علم بتشکیل دار للتقریب بین المذاهب الإسلامیة فی القاهرة من قبل الشیخ محمد تقی القمی (مندوب البروجردی المتجول فی العالم الإسلامی) ارتاح کثیراً. ودائماً کان سماحته یشیر إلی مساعی القمی. کما کان یتابع باهتمام بالغ مطالب مجلة «رسالة الإسلام» التی کان القمی یصدرها من القاهرة. وکنت شاهداً فی یوم ما حین مجیء القمی إلی مکتب البروجردی بحیث أصغی البروجردی إلی تقریره، وقد علت وجهه مظاهر الإعجاب والتقدیر والارتیاح ..

الشیخ محمد تقی القمی (۱۹۹۰ م)

سنة (۱۳۶۸ هـ– ۱۹۴۷ م) انطلق المشروع الوحدوی علی ید الشیخ محمد تقی القمی، وهو یری ضرورة استمرار مابدأه السید جمال الدین الأسدآبادی المعروف بالأفغانی فی کسر الحواجز الإقلیمیة والمذهبیة بین المسلمین، فانطلق من إیران متجهاً إلی حیث کان أتباع السید الأفغانی، ووجد من شارکه الهموم والآمال نفسها من کبار علماء الازهر، فکان بحق مؤسس «دار التقریب بین المذاهب الإسلامیة» بالقاهرة وکانت داراً مبارکة ..

وهناک حدیث مفصل جری بینه وبین الإمام الشیخ المراغی شیخ الجامع الأزهر، وکان موضوع الحدیث هو المشکل الخطیر الذی علی المسلمین أن یعالجوه إذا أرادوا نهضة موحدة تشمل جمیع شعوبهم وبلادهم، وهو توحید المسلمین ثقافیاً ..

وللشیخ القمی فی مجال التقریب مقال قیم تحت عنوان: (أمة واحدة وثقافة واحدة) (۱).

وقد أشار شیخ الأزهر محمود شلتوت إلی هذا العمل التقریبی بقوله:

«لقد کان الجو السائد عند بدء الدعوة إلی التقریب بین المذاهب الإسلامیة ملیئاً بالطعون والتهم ومشحونة بالافتراءات حتی تکونت جماعة التقریب بین المذاهب بأعضائها من المذاهب المختلفة السنیة الأربعة والإمامیة والزیدیة، والتی شکلت نصراً مبیناً أهاج نفوس الحاقدین، وقد کانت إنجازاً مهماً للإسلام والمسلمین والأمة، ورغم ذلک فقد هوجمت من المتعصبین المترمّتین من کلا الطرفین».

ویشیر الشیخ شلتوت إلی الاجتماعات فی دار التقریب حیث یجلس المصری إلی الإیرانی، أو اللبنانی أو العراقی أو الباکستانی، أو غیر

هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامیة، وحیث یجلس الحنفی والمالکی والشافعی والحنبلی بجانب الإمامی والزیدی، حول مائدة واحدة، تدوی أصوات فیها علم، وفیها أدب، وفیها تصوف، وفیها فقه، وفیها مع ذلک کله روح الأخوة، وذوق المودّة والمحبة، وزمالة التعلیم والعرفان» (۲).

وعن مؤسس الدار الشیخ القمی، یتحدث الشیخ محمود شلتوت:

«ذلک العالم المجاهد الذی لا یتحدث عن نفسه، ولا عما لاقاه فی سبیل دعوته، وهو أول من دعا إلی هذه الدعوة، وهاجر من أجلها إلی هذا البلد، بلد الأزهر الشریف .. فعاش معها وإلی جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة علی برکة اللّه، وظل یتعهدها بالسقی والرعایة بما آتاه اللّه من عبقریة وإخلاص، وعلم غزیر، وشخصیة قویة، وصبر علی الغِیَر، وثبت علی صروف الدهر، حتی رآها شجرة سامقة الأصول، باسقة الفروع، تؤتی أکلها کل حین بإذن ربها، ویستظل بظلها أئمة وعلماء ومفکرون فی هذا البلد وفی غیره ...» (۳).

فیما تحدث الشیخ محمد تقی القمی عن حالة العالم الإسلامی التی دعت المفکرین إلی حرکة «التقریب» فیقول:

«کان الوضع قبل تکوین جماعة التقریب یثیر الشجن، فالشیعی والسنی کل کان یعتزل الآخر. وکل کان یعیش علی أوهام ولّدتها فی نفسه الظنون أو أدخلتها علیه سیاسة الحکم.

۱- انظر أعداد رسالة الإسلام ۱، ۲، ۳ وأعداد أخری منها.

۲- انظر دعوة التقریب تاریخ ووثائق طبعة وزارة الأوقاف المصریة، ۱۴۱۲ ه‍-- ۱۸: ۱۹۹۱- ۱۹.

۳- دعوة التقریب تاریخ ووثائق، طبعة وزارة الأوقاف المصریة، ۱۴۱۲ ه‍-- ۱۸: ۱۹۹۱.

ص: ۵۱

أجـل لقـد ظلت الفرقـة بين المسـلمين غـذاء مناسـباً للحكم والحكـام قروناً عـدة، دأب فيها كل حاكم على اسـتغلالها لتثبيت سـلطانه، ولتحطيم عدوه، ثم جاءت السياسات الأجنبية فوجدت فى هذه الفرقة خير وسيلة لتدخلها، وبث نفوذها ودعم سلطانها وفرض سيطرتها» (۱).

وبعد أن يفصل الشيخ القمى فى الظواهر المؤلمة التى عجت بها الساحة الإسلامية يومئذ، والحوافز التى دفعت إلى التفكير فى التقريب يقول:

«هكذا بدأنا التفكير فى التقريب، ثم سـلخنا بعد ذلك شـهوراً نبحث فى سـبل العلاج، فدرسـنا الدعوات التى سـبقتنا وأفدنا منها كثيراً. ودرسـنا المشاكل الطائفية برمتها، والكتب المعتمدة عند كل فريق لنحدد الطوائف التى تتفق فى الأصول الإسـلامية، ودرسنا الخلافات الفرعية الفقهية ومبلغ ما وصلنا إليه ثم حددنا أنجح الطرق للوصول بفكرتنا إلى الأعماق.

وقـد أدى بنا التفكير إلى أن هذه الدعوة يجب أن تقوم بها جماعة بدل أن يقوم بها فرد يتعرض لكثير من الأخطار، وأن تكون الدعوة إلى التقريب بين أرباب المذاهب لا إلى جمع المسـلمين على مذهب واحد، فيبقى الشـيعى شـيعياً والسـنى سنياً، وأن يسود بين الجميع مبـدأ احترام الرأى الـذى يؤيـده الـدليل، وأن تكون الجماعة ممثلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السـنة ومذهبى الشـيعة الإمامية والزيديـة، وأن يمثـل كـل مـذهب علمـاء من ذوى الرأى والمكانـة فيه، وأن تكـون الجماعـة بمعزل عن السـياسة، وأن تكون محـددة الأهـداف وأن يكون سـعيها على أسـاس البحث والعلم كى تثبت أمـام المعارضـة وتكسب الأنصـار عن سبيـل الإقناع والإقتناع، ولكى تسـتطيع بسـلاح العلم محاربـة الأفكار الخرافيـة الطفيليـة التى لا تعيش إلا فى ظل الأسـرار والأجواء المظلمـة. ولكى تتمكن فى الوقت نفسه من مقاومة الطوائف والنحل التى ليست من الإسـلام فى شـىء، والتى يحسـبها الشـيعى سـنية والسنى شيعية، بينما هى فى حقيقتها حرب على الإسلام ...».

ويقف الشـيخ عند أكبر عقبة واجهت الجماعة، وهى رواسب الماضـى، وما أثارته من ضـجيج وإرجاف، وكيف واجهت الجماعة كل ذلك فيقول:

«لكن الجماعة هيأت نفسها لهذا من أول الأمر؛ لأنها تعلم أنها تواجه رواسب قرون، وكانت تتوقع حملات فيها الطعن والتجريح، وبدل أن تضعف الهجمات العزائم شحذت الهمم وقوت الجماعة على السير بالفكرة إلى النهاية ...

وكانت هذه الهجمات نفسـها دليلًا على ضرورة فكرة التقريب للمجتمع الإسلامى كى يتخلص من العناصر البغيضة ذات التفكير السقيم الذى يبلبل الخواطر ويصرف الأذهان عما ينفع الناس ويمكث فى الأرض» (۲).

مجلة رسالة الإسلام

من أبرز آثار دار التقريب مجلتها «رسالـة الإسـلام» هـذه المجلّـة كانت تنشـر الفكرالتقريبى بين المسـلمين، وتجمع العلماء على صـعيد الحوار العلمى البناء فى مختلف المجالات، وقـد صـدر عـددها الأول فى ربيع الأول سـنة ۱۳۶۸ ه- (ينـاير ۱۹۴۹ م)، وراحت تتواصـل أعـدادها بالصـدور كل ثلاثة أشـهر، ومع تعثر صدورها أعواماً، فقد صدر عددها السـتون والأخير فى رمضان ۱۳۹۲ ه- (اكتوبر ۱۹۷۲ م)، ومجموعة ما تضمنته من مقالات ودراسات وأخبار يشكل سفراً هاماً من أدبيات التقريب فى عالمنا المعاصر، إذ إن المجلة انفتحت على كُتّاب أهل السـنة والشـيعة، وانعكست فيها مسـيرة دار التقريب، ومسيرة التقريب فى العالم الإسلامى. ومن هنا فإنها تشكل رصيداً هاماً للتقريب ومعلماً لمسيرته .. وهو أمر يكفى أصحابها والقائمين عليها فخراً ..

وقد كتب فيها عدد من علماء الشيعة الإمامية، من أمثال:

الشـيخ محمد حسـين آل كاشف الغطاء، والشيخ عبد الحليم كاشف الغطاء، والشـيخ محمد رضا الشبيبى، والسـيد صدر الدين شـرف الدين، والسـيد هبة الدين الشهرسـتانى، والشـيخ محمد تقى القمى، والشـيخ محمد جواد مغنية، والسيد مسلم الحسينى الجلبى. ومحمد

صادق الصدر، وغيرهم،

وعدد من علماء أهل السنة من أمثال:

الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، وكلاهما من أئمة الأزهر وشيوخه، والشيخ محمد محمد المدنى رئيس تحرير المجلة، والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد البهى، والشهيد الشيخ حسن البنا، والأستاذ محمود فياض، والشيخ محمد على علوبه باشا، والشيخ محمد عبداللّه دراز، والشيخ عبد المتعال الصعيدى، والاستاذ محمد فريد وجدى، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ على عبد الواحد وافى، والأستاذ عباس محمود العقاد ..

وكذلك شارك فيها إمام الشيعة الزيدية فى اليمن على مؤيد، وأمجد الزهراوى وهو من كبار علماء العراق، والحاج أمين الحسينى من فلسطين، والشيخ الآلوسى وغيرهم الكثير.

وكان من نتائج هذه الأنشطة أن أصبح الفقه الإمامى الشيعى يدرس بجامعة القاهرة، والفقه الحنفى يدرس بجامعة طهران. وكان كتاب أصول الفقه المقارن للسيد محمد تقى الحكيم يدرس فى جامعة القاهرة وهذا كان من قبل خمسين سنة ...

وبعد هذا الاستعراض السريع لعدد من رموز الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية، ننتقل إلى مفخرة هذا العصر، وصاحب الرؤية الواعية لتقريب المسلمين بعضهم من بعض، وذى الريادة الفذة لتوحيد صفوفهم، وبناء قوتهم وتثبيت كيانهم ..، إنه الإمام روح الله الخمينى

۱- دعوة التقريب تاريخ ووثائق، طبعة وزارة الأوقاف المصرية: ۲۴.

۲- دعوة التقريب، تاريخ ووثائق: ۲۷.

ص: ۵۲

الإمام الخمينى هو الآخر الذى دعا المسلمين جميعاً إلى الوحدة والتلاحم حول محور الإسلام، وكان همه الرئيس هو التقريب بين أبناء المسلمين وتمتين العلاقات بينهم بغض النظر عن مذاهبهم، وهو صاحب الشعار المعروف الواضح ذى المضامين العالية الذى أطلقه:

«يا أيها المسلمون اتحدوا اتحدوا»

والمشاريع التى تؤسس لبناء أواصر المحبة والمودة بين المسلمين والتى دعا إليها السيد الإمام عديدة، منها أسبوع الوحدة المتضمن للولادة النبوية بتاريخيها ۱۲ ربيع‌الأول و ۱۷ ربيع‌الأول، وأيضاً يوم القدس آخر جمعة من شهر رمضان، إضافة للمؤتمرات العديدة المهتمة بتوحيد الصف المسلم التى عقدت فى إيران وشارك فيها الكثير من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم .. وأسس جماعة التقريب بين المذاهب وأعطى لهذه الجماعة ميزانية تستطيع أن تقوم بدورها اليومى طوال أيام السنة وتتسع لإقامة مؤتمرات تارة فى مصر وتارة فى إيران ...

ونظراً إلى ما يتمتع به السيد الإمام من نظرة واعية إلى فريضة الحج التى يقول فيها:

«الجميع يعلم أنه ليس بمقدور أى إنسان وأية دولة عقد مثل هذا المؤتمر الكبير، وأن الله تعالى هو الذى صنع هذا الاجتماع العظيم، إلا أنه مع الأسف لم يستطع المسلمون على مرّ التاريخ أن يستفيدوا من هذه القوة السماوية، وهذا المؤتمر الإسلامى كما ينبغى لصالح الإسلام والمسلمين ..».

نكتفى نحن هنا بإلقاء الضوء على ما أصدره السيد الإمام من كلمات وفتاوى فى موسم الحج، لأن موسم الحج، هذا التجمع الذى يخفق على ربوعه لواء التوحيد، يرى السيّد الإمام فيه قوة عظمى تتحطم على صخرتها دسائس ومخططات ومؤامرات كل الأعداء المتربصين بهذه الامة سوءاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرى فيه تحقيقاً لطموحات الامة وآمالها فى امة كريمة واحدة متفاعلة مكتفية ذاتياً فى كل مجالات وأصعدة تطورها، الثقافية والاقتصادية والعلمية .. وما تجمّع المسلمين فى الحج إلا صورة مصغرة لها .. وللرؤية الواضحة التى يمتلكها ووعيه الدقيق للواقع الإسلامى الذى يضمّ شعوباً مظلومة مقهورة تحت سياط حكّام طغاة ظالمين.

وشعوراً منه بالمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتقه وهو مرجع كبير وزعيم باتت أنظار كثير من المسلمين متوجّهة صوبه، منتظرةً كلمته ملبيةً دعوته، راح السيد الإمام الخمينى يوجّه نداءاته الكثيرة ووصاياه المتعدّدة؛ لتوثيق الوحدة بين المسلمين- التى حظيت من وقته وجهده واهتماماته بالكثير، فكانت له رؤى خصبة فى هذا المضمار- ونبذ الخلاف ويحذر من التفرقة والتشتت. بدءاً بالتحذير من إثارة النعرات القومية التى تنخر فى جسم الامّة والتزاماً منه بنهى النبى ۹ «دعوها إنها (العصبية) نتنة». «وليس منّا مَن دعا إلى عصبية». وقد راحت أقواله تترى عبر خطاباته العديدة التى كانت ترافق أداء فريضة الحج، ويوصى بها المسلمين جميعاً، وهذه نبذ قيمة منها:

- إنّ النعرات القومية- هذه المسألة التى عارضها الإسلام والقرآن الكريم والنبىّ الأعظم- تثير العداء بين المسلمين والشقاق بين صفوف المؤمنين، وهى بالتالى تهدد مصالح المسلمين، وهى من مكائد الأجانب الذين يزعجهم الإسلام وانتشاره ..

- وتأكّدوا أنكم إخوة متساوون مع جميع الشعوب بغض النظر عن اللون والقومية والمحيط والمنطقة، تتبادلون الهموم والآلام، وتؤكّدون الوحدة بينكم، وتنهضون يداً واحدةً ضد أعداء البشرية والمزوّرين ومصاصى الدماء.

- يجب أن تعلموا أنّ الطريق الأساس إنّما هو فى ظلّ وحدة جميع المسلمين، واجتماعهم على قطع أيادى القوى العظمى من الدول الإسلامية.

- ينبغى على الحجّاج المحترمين لبيت الله الحرام لأى مذهب أو قومية انتموا، أن يرضخوا لأحكام القرآن الكريم، ويقفوا فى مواجهة سبل الشياطين الذين يريدون اقتلاع الإسلام، الذى طهّر الشرق والغرب منهم ومن عملائهم الذين لا إرادة لهم سوى إرادة أسيادهم. ويمدّوا يد الأخوّة الإسلامية بعضهم لبعض، وينتبهوا للآيات الكريمة التى تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله، وتنهاهم عن الاختلاف

والتفرقة ..

لم يكن الإمام الخميني يرى أنّ الاختلافات المذهبية مسوغة للفرقة بين أبناء الامّة الإسلامية الواحدة، وكان يؤكّد أنّ الأخوّة الإسلامية لا يضرّها اختلاف الآراء .. ويضع اللوم على من أسماهم بوعاظ السلاطين بإثارة النعرات المذهبية وتأجيج نيران الخلافات بين أهل السنّة والشيعة.

لهذا انبرى السيّد الإمام قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران وبعدها إلى تثبيت رؤاه وتحقيق الوحدة الإسلامية، يقول سماحته:

– هناك ما هو أخطر من النعرات القومية وأسوأ منها، وهو إيجاد الخلافات بين أهل السنّة والشيعة، ونشر الأكاذيب المثيرة للفتن والعداء بين الإخوة المسلمين ..

ثم راح يوصي الإخوة المسلمين بأن هؤلاء المأجورين المرتبطين بالقوى الشيطانية الكبرى لا يريدون خيراً للإسلام والمسلمين، وعلى المسلمين أن يتبرأوا منهم ويعرضوا عن إشاعاتهم المنافقة ..

ثم راح يبيّن خطورة تقسيم الامّة الإسلامية إلى مذاهب وحذّر منها:

– إنّ طرح مسألة تقسيم المسلمين إلى سنّي وشيعي وحنفي وحنبلي وأخباري لا معنى لها أساساً ..

– المجتمع الذي يريد أفراده جميعاً خدمة الإسلام والعيش تحت ظلال الإسلام لا ينبغي أن يثير هذه المسائل.

ص: ۵۳

– كلّنا إخوة، وكلنا نعيش قلباً واحداً، غاية الأمر أنّ الحنفى يعمل بفتاوى علمائه، وهكذا الشافعى، وثمّة مجموعة أخرى هى الشيعة تعمل بفتاوى الإمام الصادق ٧، وهذا لا يبرّر وجود الاختلاف، لا ينبغى أن نختلف مع بعضنا، أو أن يكون بيننا تناقض. كلّنا إخوة، على الإخوة الشيعة والسنّة اجتناب كلّ اختلاف، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسنّة ولا بالشيعة ولا بالمذهب الحنفى ولا بسائر الفرق الإسلامية. وهؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك، فهدفهم بثّ الفرقة بينكم. عليكم أن تنتبهوا جيداً أننا جميعاً مسلمون وأتباع القرآن وأهل التوحيد ..

ويبادر سماحته بالدعوة الصادقة إلى الوحدة والتآلف لإحباط المؤامرات فيقول:

– إننى أمدّ يد الأخوّة إلى جميع المسلمين الملتزمين فى العالم، وأطلب منهم أن ينظروا إلى الشيعة بصفتهم إخوة أعزّاء لهم، وبذلك نشترك جميعاً فى إحباط هذه المخططات المشؤومة.

ثم يواصل حديثه ووصاياه للمسلمين يستنهضهم من سباتهم ومن تمزّقهم:

– أيّها المسلمون المؤمنون بحقيقة الإسلام، انهضوا ووحّدوا صفوفكم تحت راية التوحيد وفى ظلّ تعاليم الإسلام، واقطعوا أيدى الدول الكبرى الخائنة عن بلدانكم وثرواتكم الوفيرة، وأعيدوا مجد الإسلام، وتجنّبوا الاختلافات والأهواء النفسية، فإنكم تملكون كلّ شيء. اعلموا أن قدرتكم الروحية ستتغلّب على جميع الطواغيت، وتستطيعون بعددكم البالغ مليار إنسان، وبثرواتكم الطائلة غير المحدودة أن تحطموا جميع القوى .. انصروا الله كى ينصركم.

– أيّتها الجموع الغفيرة من المسلمين، انتفضوا وحطّموا أعداء الإنسانية، فإن اتجهتم إلى الله تعالى، والتزمتم بالتعاليم السماوية، فالله تعالى وجنده العظام معكم.

.. ولنصل إلى النصر من خلال الاجتماع على الحق، وتوحيد الكلمة وكلمة التوحيد، التى هى أساس ومنبع عظمة الامّة الإسلامية.

– يا مسلمى العالم! ماذا جرى لكم فى صدر الإسلام؟ على قلتكم هزمتم القوى العظمى، وحققتم وجود الامّة الإسلامية الإنسانية الكبرى، وأنتم اليوم تعدّون ما يقارب المليار نسمة وتملكون الثروات الكبيرة، التى تعتبر رأس الحربة، وتعانون إلى هذا الحدّ من الضعف والانسحاق فى مقابل الأعداء؟!

– أيّها المسلمون ويا مستضعفى العالم! مدّوا أيديكم بعضكم لبعض وسيروا فى سبيل الله ..

– يجب أن نعلم أنّ إحدى الفلسفات الاجتماعية لهذا التجمّع العظيم من جميع أنحاء العالم توثيق عرى الوحدة بين أتباع نبىّ الإسلام، أتباع القرآن الكريم فى مقابل طواغيت العالم، وإذا لا سمح الله أوجد بعض الحجّاج من خلال أعمالهم خللًا فى هذه الوحدة أدّت إلى التفرقة، فذلك سيوجب سخط رسول الله ٩ وعذاب الله القادر الجبّار.

وفى عبارة اخرى له: وأن ترتفعوا عن الفرقة والتنازع (وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

– انهضوا من أماكنكم واحملوا القرآن الكريم، واستلهموا أوامر الله تعالى حتى تعيدوا مجدكم وعظمة الإسلام العزيز، تعالوا استمعوا إلى موعظة واحدة من الله حيث يقول:

(قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى).

– انهضوا جميعاً وقوموا لله، قوموا فرادى على جنود وشياطين أنفسكم الباطنية، وقوموا جميعاً على القوى الشيطانية، إذا كانت الثورة والنهضة إلهية ولأجل الله فهى منتصرة.

وراح يوصى الحجاج بالتزام الأخوة فى تعاملهم:

– الحجّاج المحترمون الموجودون فى جوار بيت الله ومحل رحمته، تعاطوا برفق ومروءة وأخوة إسلامية مع جميع عباد الله، واعتبروا الجميع – ودون النظر إلى اللون واللسان والمنطقة والمحيط – منكم.

ثم دعاهم جمیعاً إلی شیء عظیم ألا وهو:

أن تکونوا جمیعاً یداً قرآنیة واحدة حتی تسیطروا علی أعداء الإسلام والإنسانیة ... (۱)

ما أجمله من تعبیر: یداً قرآنیة واحدة!

نعم، یمکننا نحن أن نتجنّب ما یثیر الخلاف والنزاع والفرقة دون أن نصادر الرأی الآخر إذا ما قام علیه الدلیل، وبذلک نستطیع أن نصون الوحدة لأمّتنا الإسلامیة، هذا الأمل الکبیر الذی یُراود کلّ المؤمنین والعلماء المصلحین .. تحت ظلال القرآن الکریم.

۱- انظر فی هذا نداءات الإمام الخمینی رضوان الله تعالی علیه.

ص: ۵۴

الفتاوى الشرعية

لم يكتف السيد الإمام بهذا الذى هو على مستوى الخطاب، بل راح يعززه بالفتاوى الشرعية وهو يخطو خطوات كبيرة فى توحيد صفوف المسلمين، فبادر إلى إصدار فتواه بتجنّب ما يثير الفتن، ويثير الضغائن بين الإخوة.

- على الإخوة الإيرانيين وجميع الشيعة فى العالم أن يتجنّبوا الأعمال الجاهلة، التى تؤدّى إلى تفرّق صفوف المسلمين، كنصب مكبّرات الصوت بدون انتظام، وإلقاء النفس على القبور الطاهرة، والأعمال المخالفة للشرع ..

كما أصدر فتوى أخرى للشيعة بالاشتراك فى الصلوات، حيث يقول:

- وعليهم أن يشتركوا فى جماعات أهل السنّة، وأن يتجنّبوا عقد صلاة الجماعة فى البيوت.

لقد راح الإمام يدعو وكثير من فقهاء الإماميّة أتباعهم إلى أن يشاركوا فى صلاة الجمعة والجماعة لأهل السنّة خصوصاً فى الأماكن المقدّسة فى مكّة والمدينة، مراعاةً للوحدة، وأن يتّبعوهم فى تحديد أوّل الشهر والوقوف فى عرفات والمشعر ومناسك منى، كما أفتوا بصحّة جميع عباداتهم التى يخالفون فى بعض أجزائها وشروطها فتاوى الفقهاء الشيعة ولاضرورة لإعادتها.

ولا بد لنا من أن نشير أخيراً إلى أنه، وعلى هدى دار التقريب، نشأت مؤسسة تحمل نفس الدور التقريبى والهم الوحدوى .. لكن هذه المرة من طهران من خلال المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذى أسس سنة ۱۴۱۱ ه- بأمر من قائد الجمهورية الإسلامية فى إيران السيد الخامنئى دام ظله؛ لإقامة علاقات طيبة بين المذاهب الإسلامية وإيجاد قنوات ارتباط سليمة بين علمائها وزعمائها وتبنّى الوحدة على أساس المشتركات الإسلامية الثابتة التى يتفق عليها المسلمون كافة، وفتح باب الحوار وتبادل وجهات النظر بينهم فى المسائل الخلافية واحترام جميع الآراء القائمة على أساس الدليل الشرعى، ويعتمد المجمع على لجان علمية متخصّصة تضم علماء من مختلف المذاهب ...

وختاماً

حقاً إن فقهاء الشيعة أصحاب نداء تقريبى توحيدى هدفه الإسلام والسلام والوئام بين أتباع المذاهب الإسلاميّة، ولطالما دعوا إلى غلق باب الاختلاف وأسبابه، الذى قد يفضى فى بعض مواقفه إلى النزاع والاقتتال، وخير دليل على ندائهم ذلك ما ذكرناه وهو غيض من فيض .. وأمامكم سيرتهم ومؤلفاتهم ومواقفهم ودعواتهم الجادة لردم كل ممزق ومفرق ومشتت .. والتوجه المخلص والجاد والمثمر نحو لمّ الشمل المسلم على جميع الأصعدة تمهيداً للوحدة الكبرى ..

لقد بقيت فكرة توحيد الصف المسلم منهجاً يترسمه العلماء والدعاة الواعون، وأملًا يراود المخلصين من الفريقين: السنّة والشيعة، ومعلماً هاماً من معالم إرادة الأمة المسلمة فى الوحدة والتعاضد .. والتى لن تتوقف حيث ستبقى هذه تعمل على التأكيد على الجو الوحدوى الذى يعنى اللقاء على ما اتفقنا عليه والحوار فيما اختلفنا عليه والوقوف صفاً منيعاً تحت الشعار القرآنى العظيم: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا).

ص: ۵۵

ص: ۵۶

المبادئ القرآنية للعلاقات الإسلامية – الإسلامية، مطالعة تفسيرية فقهية

حيدر حب الله

تمهيد

تظلّ دراسة المبادئ التی وضعها الإسلام للعلاقات الداخلیة بین المسلمین هامّةً وضروریة، ونحاول فی هذه الوریقات المتواضعة أن نتناول التأسیس القرآنی لعلاقة المسلمین بعضهم ببعض فی الداخل الإسلامی، وکیف تقوم هذه العلاقة؟ وما هی أبرز المعاییر التی تحکمها؟

ولن نتطرّق إلی السنّة الشریفة، ولا ـ إلی ما یعطیه العقل والمنطق العقلانی، أو العناوین الثانویة أو الولائیة فی هذا المجال؛ خوفاً من الإطالة، لهذا ستکون دراستنا بحث قرآنیة، وسنعرض- بعون الله تعالی- الآیات القرآنیة التی تؤصّل مبدأ العلاقة الإسلامیة- الإسلامیة، ونحاول تفسیرها وفقهها لاستخراج مبادیء منها وقواعد وأسس، إن شاء الله تعالی.

۱- مبدأ عدم التنازع

یقرّر القرآن الکریم مبدأ عدم التنازع الداخلی ضمن النصّ التالی: (وَأَطِیعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِیحُکُمْ واصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِینَ) (۱).

فهذه الآیة تدلّ علی تحریم التنازع، ومن ثم تدعو إلی الاتفاق والوحدة، کما فسّرها بذلک بعض الفقهاء أیضاً (۲).

والتعرّض لفقه هذه الآیة یکون من خلال نقاط:

أولًا: قد یقال بتخصیص النهی عن التنازع فی هذه الآیة بحالة الحرب، بمعنی أنّ هذا الخطاب موجّه فقط للجیش المسلم الذی یواجه الأعداء (۳)، والشاهد علی ذلک:

۱- السیاق؛ فإنّ الآیات السابقة واللاحقة کلّها تتحدث عن القتال، فالآیة السابقة تقول: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا لَقِیتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْکُرُوا اللهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ) (۴)، وسورة الأنفال- کما نعلم- سورة جهادیة قتالیة أغلبها واردٌ فی قضایا القتال والحرب، وعلیه، فلا یحرز أنّ النهی عن التنازع فی هذه الآیة یتخطّی مجال المقاتلین المسلمین.

۲- قوله فی داخل الآیة نفسها: (فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِیحُکُمْ)؛ فإنّ الفشل وذهاب الریح تعبیرٌ آخر عن ذهاب القوی وضعف الجیش، وذهاب الصولة والنصرة والدولة ..

۱- الأنفال: ۴۶.

۲- الروحانی، فقه الصادق ۳۹۳: ۱۱، ۴۲۱، و ۱۹۶: ۱۳؛ وسید سابق، فقه السنّة ۱۲: ۱، و ۶۰۰: ۲؛ وشرف الدین، المراجعات: ۹؛ والنص والاجتهاد: ۵۵۳.

۳- راجع: الطریحی، مجمع البحرین ۲۳۷: ۲.

۴- الأنفال: ۴۵.

ص: ۵۷

۳- ما جاء فی أسباب نزول هذه الآیة من أن خباب (حباب) بن المنذر أشار علی النبی أن ینتقل من مکانه علی الماء، ویجیئهم من الخلف، فرفض بعض الصحابة، وتنازعوا، ثم عمل الرسول بقول خباب (۱).

ولعلّه لهذه الشواهد وجدنا بعض من أدرج الآیة فی قضایا الاختلاف داخل الجیش؛ فالبخاری (۲۵۶ ه-) جعل الآیة فی مطلع الباب الذی عنونه: «باب ما یکره من التنازع والاختلاف فی الحرب وعقوبة من عصی إمامه» (۲)، کما جعل النووی (۶۷۶ ه-) هذه الآیة وما حولها، من الآیات التی جمعت آداب القتال فی الإسلام (۳)، بل صریح کلمات الطبرسی أنّ التنازع فی الآیة یراد به التنازع فی لقاء العدو، کی لایضعفوا عن مقاتلته (۴).

ولا نرتاب فی أنّ ذلک کلّه صحیح، وأنه من الصعب جداً تعمیم النهی عن التنازع لغیر حال الحرب والقتال، فالخطاب خاص؛ إلا أنه یمکن الاستناد إلی التعلیل الوارد فی الآیة الکریمة: (فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِیحُکُمْ)؛ فإن الفشل وذهاب الریح سیقا هنا مساق التعلیل، أی لا تتنازعوا کی لا تفشلوا .. وهذا معناه- حیث إن العلّة تعمّم وتخصّص کما قرّر فی أصول الفقه- أن المهم عدم الوصول إلی مرحلة الضعف والوهن وذهاب القوّة والمنعة والدولة؛ فأیّ تنازع یبلغ بالمسلمین هذه الحال یکون مشمولًا للتحریم، تماماً مثل: لا تأکل الرمان فإنه حامض؛ فکل تنازع یفضی لذلک یکون حراماً، وإن لم یکن تنازعاً بین المقاتلین فی جبهة الحرب، فتفید الآیة مبدأ عدم التنازع بهذا المعنی، والتنازع المضعِف لا یختصّ بتنازع المقاتلین کما هو جلیّ.

ثانیاً: ما هو المراد من التنازع؟ هل هو اختلاف الرأی أم شیء آخر أبعد من ذلک؟

الذی یبدو من بعض الفقهاء والأصولیین أنهم استندوا إلی هذه الآیة لتحریم العمل بالقیاس؛ لأنه یفضی إلی اختلاف الرأی (۵)، کما استدلّوا بها أیضاً لإثبات مذهب التخطئة فی أصول الفقه مقابل التصویب، ولعلّ أقدم من فعل ذلک هو ابن حزم الأندلسی (۴۵۶ ه-) فی المحلّی (۶)، وکذلک فعل الحرّ العاملی (۱۱۰۴ ه-) فی الفصول المهمّة (۷)، کما استدلّوا بها لتحریم الجدال (۸).

لکنّ الصحیح أنّ النهی عن التنازع لا علاقة له باختلاف الآراء، ومن ثم فالاستدلال به علی مسألة التخطئة أو قضیة القیاس ونحوهما غیر صحیح؛ لأنّ فی کلمة التنازع- بحسب دلالتها اللغویة- نوعٌ من التجاذب والتشاجر والتخاصم، وهو ما یفهم أیضاً من کلمات اللغویین (۹)، فمجرّد اختلاف الرأی بشکل هادیء وعلمی وأخلاقی دون تجاذب ومنافرة وتخاصم وحقد وضغینة وتشنّج .. لا یشمله مفهوم التنازع الوارد فی الآیة الکریمة.

یضاف إلی ذلک، أن الآیة حرّمت التنازع من حیث الإفضاء إلی الضعف والوهن؛ أما تعدّد الآراء والاجتهادات داخل الدائرة الإسلامیة؛ فهذا یمکنه أن یقوّی المسلمین وینضج أفکارهم ویطوّر علومهم. إذا أحسنّا تنظیم هذا الاختلاف وضبطه علمیاً وأخلاقیاً وأدبیاً أیضاً.

وعلیه، فالآیة خاصّة بالمخاصمات والمصارعات، ولا تشمل اختلاف الرأی بحسب الظاهر، ولا أقلّ من عدم إحراز هذا الشمول؛ فنأخذ بالقدر المؤکّد من الدلالة.

ثالثاً: الظاهر من فقه الآیة الکریمة أن التنازع مسبّب دوماً للضعف، لا أنّ له حالتین: تارةً ینتج الضعف فیهما وأخری لا ینتجه، فإنتاج الضعف من الخصوصیات التی تکفّل بها المولی، ولم تلقَ إلی العبد کی یعیّنها، فهذا تماماً کقول المولی: تزوّج من فلانة فإنّ فی الزواج منها الخیر؛ إذ خیریة الزواج من الأوصاف التی بید المولی وقد أخبر هو عنها، فیکون وجوب الزواج مطلقاً حتی لو ظنّ العبد أنه لا خیر فی الزواج من هذه المرأة. وهذا بخلاف: تزوّج فلانة إذا کان فی الزواج منها الخیر، فإنّ تحدید الخیریة هنا یمکن أن یکون بید العبد.

والآیة التی نحن فیها نصّت علی حرمة التنازع، وأخبرت- بالعطف بحرف الفاء- أنّ فیه الفشل وضعف القوی، أی أن الله العلیم الحکیم یخبر بأنّ نتیجة التنازع هو الضعف، ومعه فیحرم التنازع مطلقاً، حتی لو رأینا- بنظرنا الشخصی- أنّ بعض موارده لا تفضی إلی

الضعف، نعم تقيّد هذه الآية بمثل آية مقاتلة أهل البغى الآتى الحديث عنها؛ لأنّ النسبة بينهما هى نسبة العموم والخصوص المطلق، ونسبة الحالة الثانوية إلى الحالة الأوليّة، وفى هذين الموردين يقدّم الخاص والثانوى على العام والأوّلى. هذا كلّه على تقدير استفادة العموم من دلالة الآية، لا البناء على خصوص التعليل كما تقدّم.

رابعاً: الظاهر من الخطاب الوارد فى الآية، وكذا من طبيعة التعليل، أنه موجّه إلى الأمة لا إلى الأفراد، أى أنه خطاب مجتمعى؛ فلا تدلّ الآية على تحريم تنازع فردين اثنين من المسلمين فى قضية شخصية؛ إذ هى منصرفة عن هذه الحالة، سيما بقرينة السياق وعدم إفضاء النزاع الشخصى المحدود لضعف المجتمع، إلا إذا تنامت النزاعات الشخصية والعائلية فى المجتمع حتى صارت تهدّد استقراره، ولا أقلّ من عدم إحراز مثل هذا الاستيعاب فى دلالتها.

خامساً: إذا أجرينا مقارنة ومقاربة بين هذه الآية التى تؤسّس لمبدأ عدم التنازع، وبين قوله تعالى: (فإنْ تَنَازعْتُمْ فِى شَىء فَرُدّوهُ إلَى اللّه والرَسُولِ ..) (۱۰)، نجد أنّ مفتاح حلّ النزاعات الداخلية فى الأمّة يقوم على مرجعيّة القرآن والسنّة، أى أنّنا لو رجعنا إلى الكتاب والسنّة سوف نرفع هذا التنازع، ولمّا كان التنازع مغايراً لمفهوم الاختلاف وتعدّد الاجتهادات، لم يقصد من الرجوع للقرآن توحيد الرأى؛ فإنّ ذلك قد لا يحصل، بل رفع حالة التخاصم والبتّ فيها، إلا إذا حصل أن بغت فرقةٌ على فرقةٍ أخرى أو قصّر المسلمون فى العمل بكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم، فيكون المورد من موارد البغى والاعتداء، فتشمله آية البغى القادمة بإذن الله سبحانه.

۲- مبدأ الاعتصام الدينى وعدم التفرّق

تشير إلى هذا المبدأ الآيات الكريمة التالية:

۱- انظر: التبيان ۱۳۳: ۵؛ والراوندى، فقه القرآن ۳۴۰: ۱- ۳۴۱.

۲- صحيح البخارى ۲۶: ۴.

۳- النووى، شرح مسلم ۴۶: ۱۲؛ وانظر أيضاً: يحيى بن شرف النووى، الأذكار النووية: ۲۰۸.

۴- الطبرسى، مجمع البيان ۴۷۶: ۴؛ ولعلّه يستوحى أيضاً من الكاشانى، التفسير الأصفى ۴۴۱: ۱؛ والصافى ۳۰۷: ۲؛ وما نقله عن المفسّرين الطبرىُّ فى جامع البيان ۲۱: ۱۰- ۲۲؛ وابن أبى حاتم فى تفسيره ۱۷۱۲: ۵؛ وراجع: تفسير السمرقندى ۲۴: ۲؛ وتفسير الرازى ۳۶: ۹.

۵- تفسير الرازى ۱۷۴: ۸.

۶- ابن حزم، المحلّى ۷۰: ۱.

۷- الفصول المهمة فى أصول الأئمة ۵۴۳: ۱.

۸- انظر: تفسير الفخر الرازى ۱۸۳: ۵.

۹- راجع: العين ۳۵۹: ۱؛ والصحاح ۱۲۸۹: ۳؛ ولسان العرب ۳۵۲: ۸؛ ومختار الصحاح: ۳۳۵؛ والقاموس المحيط ۸۸: ۳؛ ومجمع البحرين ۲۹۵: ۴؛ وتاج العروس ۴۷۶: ۱۱ و ..

۱۰- النساء: ۵۹.

ص: ۵۸

۱- (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) (۱).

۲- (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ) (۲).

۳- (قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (۳).

۴- (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ* مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتَّقُوهُ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ ولا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (۴).

۵- (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ ومُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ* وما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (۵).

وهذه الآيات الكريمة واضحة فى النهى والنكير على التفرقة والتشرذم والتشظى والانقسام، ويمكن أن نستفيد منها جملة نقاط أساسية أبرزها:

۱- ۲- بين التفرّق عن الدين والتفرّق داخل الدين

إذا أخذنا الآية الأولى دلّت على لزوم الاعتصام بحبل الله تعالى وعدم التفرّق، وقد فسّر عدم التفرّق هنا بعدم التفرّق عن الحبل نفسه أو عن رسول الله ۹ (۶)، وهذا يوحى بأنه ليس المراد الانقسام داخل الدين، بل الخروج عن الدين، تقول: تفرّق القوم عن فلان، أى تركوه، وتقدير الآية: اعتصموا بحبل الله ولا تفرّقوا عنه وتذروه، وهذا يُخرج الآية التى اشتهر توظيفها فى مجال الوحدة بين المسلمين عن دخالتها فى هذا الموضوع.

وربما يقال بإمكان توظيف الآية الكريمة فى المجال الذى نحن فيه، فإنّها لم تقل: لا تفرّقوا عنه، بل أطلقت النهى عن التفرّق وأعقبته- مباشرةً- بالحديث عن اختلاف المسلمين فيما بينهم من أوسٍ وخزرج و .. قبل الإسلام، وأن الإسلام أنهى هذه الانقسامات، وهذا كلّه يؤكّد أن التفرقة المرادة هنا هى مطلق الفرقة، وهذا يربط بين الوحدة وبين الالتزام بالحبل الإلهى، فكأنّ الآية تريد أن تقول: اعتصموا بحبل الله؛ فإن الاعتصام بالإسلام يحوّلكم من أعداء إلى إخوان، ويدفع عنكم الفرقة.

إذن، فهذه الآية- بناء على ما تقدّم- يمكن الاستناد إليها هنا بلا محذور، وحتى لو تركنا المقطع الأول منها، واستندنا- فقط- إلى قوله: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ ...)، كفى ذلك؛ لأنّها بهذا المقطع الثانى تؤكّد أن الإسلام حوّل الجماعات المتناحرة- لأسباب عدّة- إلى إخوة متوادّين؛ إذاً فهو يفرض مبدأ عدم الفرقة بالتضمّن أو الاستلزام؛ إذ لو كانت الفرقة موجودةً فى الإسلام لبطلت هذه النعمة التى يمنّ الله بها على الأوس والخزرج وأمثالهم؛ إذ سيكون الإسلام هو الآخر مدعاةً أو غير رافضٍ لفُرقةٍ من نوعٍ آخر، فيلزم الكرّ إلى ما فرّ منه كما يقولون.

وبالإجمال، يمكن الاستناد إلى هذه الآية لتأسيس مبدأ عدم الفُرقة والانقسام.

۲- ۲- بين الفُرقة الدينية والفُرقة غير الدينية

تركّز هذه الآيات على مفهوم الفُرقة الدينية، أى أنها لا تتحدّث- فقط- عن التمزق الاجتماعى الناتج عن أسبابٍ قبلية أو عشائرية أو قوميّة أو عرقية أو حزبية أو ... بل تسلّط الضوء أيضاً على العنصر الدينى فى التمزّق؛ لأنّ (فرّقوا دينهم) تستبطن حصول الاختلاف

المفضى إلى الابتعاد عن الدين بسبب عنصر دينى، أو لا أقلّ تحت شعار دينى، ففرّق الدين أى جعله فرقاً وقطعاً، فعندما تقول: (فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً) فهذا معناه قطّعوا الدين وجزّؤوه وصاروا فرقاً، فتمزّقهم على أساس الدين هو تفرقة للدين.

ولعلّ هذا ما تريده الآية الأولى: (ولا تكُوْنُوا كالّذيْنَ تَفَرّقُوا واخْتَلَفُوْا مِنْ بَعْدِ مَاْ جَاءَتْهُمُ البَيّنَات).

وربما يريد هذا النوع من الآيات- والله العالم- أن يضع معادلة تقول: كلّ تمزق فى الأمة يضارعه تشظّى فى الدين نفسه، وهذه المعادلة كأنّ لها طرفاً يمثل السبب، وطرفاً آخر يمثل النتيجة، وتصوير هذين الطرفين فى المعادلة يمكن أن يكون على شكلين:

الشكل الأول: إنّ الاختلاف بين المسلمين- لأىّ سبب كان- سيؤدّى إلى حالة تمزّق فى الدين نفسه، بمعنى أنّ بعض الدين سوف ينفكّ عن بعضه الآخر، أشبه شىء بقوله تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْض) (۷)، أى كل فرقة سوف تأخذ ببعض الدين وتترك بعضه، مما سيعدم الانسجام والتلاؤم بين أجزاء الدين نفسه، فيقرأ الدين قراءة مجتزأة وتغيب هنا بعض مقاطعه، فيما تغيب هناك مقاطع أخرى منه.

ومعنى هذا الكلام أن الفرقة الإنسانية تؤدى إلى تمزّق الدين وتقطّعه وتفريق أجزائه عن بعضها بعضاً، ويكون معنى الآية: الذين فرّقوا دينهم وقطّعوه وباعدوا بين أجزائه وأخفوا بعضها وأظهروا بعضاً آخر، بسبب تمزّقهم هم فيما بينهم واختلافهم وتفرّقهم فى حياتهم الإنسانية.

۱- آل عمران: ۱۰۳- ۱۰۵.

۲- الأنعام: ۱۵۹.

۳- الأنعام: ۶۵.

۴- الروم: ۳۰- ۳۲.

۵- الشورى: ۱۳- ۱۴.

۶- انظر: التبيان ۵۴۶: ۲؛ ومجمع البيان ۳۵۶: ۲.

۷- البقرة: ۸۵.

ص: ۵۹

الشكل الثاني: وهو يقع على العكس تماماً من الشكل الأوّل، بحيث يكون تبعيض الدّين وتفريق أجزائه عن بعضها البعض، وقراءته قراءة مجتزأة، وعدم ربط مقولاته ومفاهيمه ببعضها، سيكون ذلك بنفسه مؤدّياً إلى أن يأخذ كل فريق بمقولةٍ ويترك أخرى، أو يركّز على مقولة ويستبعد أخرى، أو يسلّط الضوء على آية قرآنية أو حديث نبوی ويتغافل عن آية أخرى أو حديث آخر، وهو ما سينتج عنه تمزّقٌ دينی بشكل تلقائی، لأنّ كلّ فريق سيقرأ جزءاً من الدين ويذر الآخر؛ وسيؤدی ذلك إلى انقسامهم فيما بينهم وصيروتهم شيعاً يحارب بعضهم بعضاً ويشايع بعضهم بعض الأشخاص أو بعض المقولات ويترك الأخرى، فالمجبرة تقرأ آية ربط كل شیء بمشيئة الله والمفوّضة تقرأ آيات الاختيار الإنسانی، والمنزّه يقرأ آيات التنزيه والمشبّه يقرأ فقط آيات التشبيه وهكذا، ولا تضمّ أبعاض الدين وأجزاؤه إلى بعضها كی تكتمل الصورة ويتّحد الموقف.

ولعلّ الذی يؤكد مقولتنا فی هذه المعادلة بشطريها وشكليها، ما ألمحنا إليه من قوله تعالى مخاطباً بنی إسرائيل: (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ ولا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ* ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ والْعُدْوانِ وإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ ...) (۱).

فإذا أرجعنا آخر الآية إلى مجمل الفقرات السابقة، لا إلى خصوص مسألة الأسرى، كان معنى ذلك أنّ الكفر والإيمان ببعض الكتاب أفضى ببنی إسرائيل إلى قتل بعضهم بعضاً، والآية وإن لم تكن دالةً على ما نحن فيه لكن فيها نحوٌ من الإشارة والتأييد.

والنتيجة أن هذه الآيات تربط بين الفرقة والدين تأثيراً وتأثراً.

۳- ۲- علاقة الدين بإنتاج الانسجام داخل الجماعة الدينية

واستتباعاً للنقطة السابقة، تعطی هذه الآيات دلالة على أنّ الارتباط بالدين كلّما تكامل كلّما اقتربت الأمّة من الوحدة؛ وأن الفرقة توحی بوجود ابتعاد عن الدين، ولعلّ هذا ما توحيه آية: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا وَ ...) فإن الاعتصام الجميعی بحبل الله هو المفضی إلى الوحدة، كما أن صيرورة العرب متوالفين بالدين بعد التعادی فی الجاهلية معناه أن الدين من عناصر التقارب والوحدة؛ فإذا أفضى إلى الفُرقة كان ذلك خلاف حقيقة التقريب التی فيه بين الناس.

وهذا يعنی أن الاختلاف بعد مجیء الدين ناتج عن تقصيرٍ من البشر أنفسهم فی الالتزام بتعاليم الدين وقيم السماء الرفيعة؛ لهذا نصّت الآية على تبرّی رسول الله ۹ من المفرّقين والمنشعبين فقالت: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِی شَیْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَی اللهِ)، ولا معنى لهذا التبرّی إذا كانت الفُرقة نتاجاً دينياً؛ فهذا خير دليل على أن الفرقة نتجت عن سوء بشری فی التعامل مع الدين ومع غيره، وهذا ما تؤكّده الآيات الكريمة: (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) (۲)، و (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام ومَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) (۳)، و (وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)، و (وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) (۴).

ومن مجمل ما أسلفناه نعرف أنّ حصول الاختلاف والانقسام يكون نتيجة خطأ إنسانی أو سوء بشری، وأنّه لا يولّد الدين الفُرقة داخل جماعته على الأقلّ.

۴- ۲- ألوان تأثير البغی على سلامة الوحدة الدينية

لا يعنی ما تقدّم أنّ الخلاف فی الأمة يعنی ابتعاد كلّ مذاهبها وفرقها وجماعاتها وآحادها عن الدين، بل الذی تريد الآيات أن تؤكّده هو وجود عنصر البغی الذی أدّى إلى حصول هذا الأمر، وهذا يعنی أنه من الممكن أن يكون هناك فريقٌ واحد باغٍ فتحصل الفرقة نتيجة ذلك، حتى لو كان الباقون غير باغين، وربما كان الباقون هم الأجيال اللاحقة التی أتت فيما بعد؛ فالآيات تريد تأكيد المبدأ لا الدفاع عن شموليته واستيعابه.

ويشهد لذلك أنّ القرآن الكريم نفسه ذكر في آية البغي التي ستأتي إن شاء الله تعالى، أن حرباً قد تنشب في الداخل الإسلامي، ويتحمّل مسؤوليتها فريق واحد، بل الآية تأمر بمقاتلة الباغي، فلا تحثّ الآية على الفرقة والتنازع، بل تأمر بقلع مسبّبيهما، وبالجمع بين الآيات يظهر أنّ المقصود إدخال عنصر البغي في ظاهرة التمزّق، دون أن تقول: إن كل تمزّق تنساق الأطراف كلّها فيه لأهوائها؛ فقد يبغي فريق في بدايات الدعوة الدينية، فيوقع التنازع في الأمة، وتنقسم الأمة إلى فِرَق، فالبغي هنا كان مسبِّباً للفُرقة، لكن لا يعني اتهام الجميع ولا تمام الأجيال بأنّ انقسامها كان عن بغيٍ منها.

ولعلّ ذيل الآية الأخيرة يوحي بتأثير الأجيال على بعضها، فهي تقول: (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)، أي أنّ الأجيال الأولى اختلفت- بعد العلم- عن بغي وهوى، أما الذين أورثوا الكتاب بعد تلك الأجيال فقد عصف بهم الشك والرّيب، وتركت نزاعات السابقين أثرها السلبي على الأجيال اللاحقة، فبعثت فيها الشك، حتى لم تعد تؤمن بكتابها حقّ الإيمان، وهذا- في نقطة المبدأ- أحد التفسيرات المشار إليها في هذه الآية، كما يظهر من بعض التفاسير (۵).

إذن، فقد يجني البغي المسبّب للفرقة الدينية على الأجيال اللاحقة؛ فيورثها الشك والريب في الدين، وليس ذنبها، بل قد تكون مستضعفةً حتى لو كانت تناصر هذا الفريق أو ذاك.

۵- ۲- إضفاء مفهوم العذاب على الفُرقة والتناحر

۱- البقرة: ۸۴- ۸۵.

۲- البقرة: ۲۱۳.

۳- آل عمران: ۱۹.

۴- البينة: ۴.

۵- انظر: الكشاف ۴۶۴: ۳؛ وجوامع الجامع ۲۸۰: ۳؛ والميزان ۳۲: ۱۸؛ وتفسير مقاتل بن سليمان ۱۷۵: ۳؛ وتفسير النسفي ۹۸: ۴؛ وتفسير الرازي ۱۵۸: ۲۷؛ وتفسير البيضاوي ۱۲۵: ۵؛ وتفسير البحر المحيط ۴۹۰: ۷.

ص: ۶۰

تشير الآية الثالثة المتقدّمة إلى أنّ أنواع العذاب الإلهى متعدّد، وأن واحداً منها جعل الأمة على شيع وأحزاب يقاتل بعضها بعضاً، ويبطش بعضها ببعض، وهذا معناه أنّ الفرقة والافتراق نحوٌ من العذاب الإلهى الذى ينزل بالناس، وطبيعىّ أن الآية لا تعنى أن كل فُرقة كذلك، بل أقصى ما تدلّ عليه أن بعض أنواع العذاب قد يكون فى فُرقة الأمة ومحاربة بعضها بعضاً، وهذا خير دليل على أنّ القرآن يرى الاختلاف والتقاتل والتصارع الداخلى مظهراً من المظاهر التى قد تكون عذاباً إلهيّاً، فما أشدّ دلالة هذه الآية على رفض الفُرقة ونبذ التنازع والتخاصم.

والجميل فى تعبيرات هذه الآية أنّها لمّا تحدّثت عن العذاب الفوقى والسفلى، أى من الفوق ومن تحت الأرجل، جعلت الثالث هو الفُرقة والتصارع، وكأنّ فى هذا التعبير إشارة إلى أنّ الفتنة الداخليّة بين الأمة عذابٌ يكون بين يديها، وكأنّ مبرّراته وعناصره تحت سيطرتها، ولم يأتِ من الأعلى ولا جاء من الأسفل من حيث لا يدرك الناس ذلك، وهو ما فيه إشارة إلى الدور البشرى فى إنتاج العذاب الثالث الذى تعطيه الآية.

۶- ۲- حالة التشظّى ووهم المكاسب الجزئية

من أروع التعابير فى هذه المجموعة من الآيات، قوله تعالى: (كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، فهذه الآية تشير إلى واقع يعيشه المجتمع فى ظلّ حالة الانقسام عادةً، وهى أن كل فريق يعيش فى حالة غفلة ونشوة بما يراه من انتصارات له ومكاسب يحقّقها على الفريق الآخر أو لنفسه هنا أو هناك، فيفرح بما يراه مكسباً، وينتشى بما يحقّقه من معطيات جزئية، وهو غافل عن القضايا الكبرى، وغافل عن أنّ بعض مكاسبه الجزئية هذه ما هى سوى تكريس لانقسام الأمة وتمزقها وتشرذمها، وأنه باستمراره فى طلب المكاسب الفرعية هذه والفرح بها يكرّس واقع التراجع فى الأمة؛ لهذا نسبت الآية الفرح إلى الأحزاب ولم تنسبه للأمة، وجعلت الفرح على ما عنده وليس على ما عند الأمة (بما لديهم)، وهذا هو الغرور المعرفى الذى يكرّس القطيعة فى الأمة، فيفرح بما عنده، ولايفرح بما عند غيره.

وهذا الحصر مستفاد من تقديم (بما لديهم) على (فرحون)؛ فكأنه لا يفرح إلا بما لديه، وأما ما عند غيره من أمّة الدين والتدين، فليس بموجب فرحاً عنده.

وبممارسة التأمل فى استخدام كلمة «فرحون» فى اللغة العربية، نجد أنّ القرآن الكريم لم يطلقها على السرور الإيجابى، بل أطلقها فى موقع الذمّ، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (۱)؛ فالفرح هنا لا يقصد منه السرور؛ ولهذا فسّر بالبطر (۲)؛ للجزم بعدم حرمة الفرح فى الإسلام، وبناءً على ما ذكره أبو هلال العسكرى (ق ۴ ه‍-) فى التفريق بين الفرح والسرور، فإنّ الفرح قد يكون بأمرٍ لا نفع فيه ولا لذّة، على خلاف السرور الذى لا يكون إلا فيما فيه نفعٌ أو لذّة على الحقيقة (۳)، فيفهم أن استعمالات القرآن الكريم للفرح كانت للإشارة إلى شىء يفرح به الإنسان لكنه قد يكون خالياً من الفائدة والمنفعة الحقيقية، فكأنّ فرحه به مصداقٌ لقوله تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (۴)، تماماً كفرح ملكة سبأ بهديتها التى أرسلتها إلى سليمان، فقد ظنّت أنها سوف تستميله بها، لكنّ سرورها بما فعلت لم يكن سوى وهم، قال الله تعالى: (فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِى اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) (۵)، وتماماً كما حصل مع الكافرين الذين كانوا يتوهّمون أنهم يدعون شيئاً وإذ بالذى كانوا يدعونه من دون الله لم يكن سوى سراب، قال سبحانه: (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ* ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) (۶).

وعليه، ففرح الأحزاب تعبيرٌ عن حالة الوهم وتصوّر وجود منفعة ومصلحة فى خطواتها وأعمالها، فيما هى تفرح على عدم وعبثية وسراب، وفعلًا هذا هو حال الأمة حينما تنشغل بسفاسف الأمور، وتتصارع على أشياء ثانوية؛ فيختلّ ميزان الأولويات عندها، وما حال أمتنا الإسلامية اليوم- فى أكثر من موقع- عن ذلك ببعيد.

إنّ الاعتصام الدينى والوحدة أصلٌ من أصول الديانة قد تقف عندها أصول أخرى، ولعلّنا نجد بعض الدلالات المعبّرة عن ذلك وعن سلّم الأولويات فى قصّة هارون مع موسى فى القرآن الكريم، فبعد عبادة بنى إسرائيل للعجل، ورجوع موسى غضباناً من لقاء ربّه، دار بينه وبين أخيه هارون حوار، كان جواب هارون له فيه دالًا، قال تعالى: (قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي* قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ولا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) (٧)، فإنّ هذا الجواب يفيد أن موسى ٧ نفسه كان أمر أخاه هارون أن لا يفرّق أمر بنى إسرائيل، وأن هارون كان يريد مواجهتهم لكنّه لم يكن قادراً على حسم الموقف لصالحه واقتلاع أساس الفتنة، وكأنّ موازين القوى بين جماعته وجماعة السامرىّ كانت متعادلة أو كان أضعف منهم، سيما حسبما تشير إليه الآية الأخرى: (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وكادُوا يَقْتُلُونَنِي ..) (٨).

من هنا، قدّم هارون وحدة بنى إسرائيل على دعوتهم للحقّ، ولم يشأ إيقاع الفُرقة بينهم رغم ضلالهم، وهذا تعبير ظريف عن ترتيب الأولويات ترتيباً دقيقاً. وهذا فى الجملة ما أقرّ به غير واحد من المفسّرين المسلمين (٩).

واللطيف أننا لو ضممنا هذا الحدث إلى أمر موسى لهارون لما استخلفه على القوم، لوجدنا القرآن يعبّر عنه بقوله: (وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (١٠) ... ولفهمنا أنّ عدم تفريق بنى إسرائيل هو حُسن خلافة وإصلاح وعدم اتّباع لسبيل المفسدين، أو لا أقلّ يصدق عليه واحدٌ منها، مما يعنى أنّ الحفاظ على وحدة الأمّة إصلاحٌ فى الأرض وعدم إفساد، وهو حُسن إدارة للمجتمع وللمؤمنين؛ ولهذا كان من الأولويات الكبرى فى تسيير أمور الأمة؛ فإذا لم يتمكّن الفريق المحقّ من قلع أساس الفتنة والانحراف فعليه أن يواجهه بطريقة لا تؤدّى إلى إحداث الفرقة والانقسام، وهذا بالضبط ما فعله هارون مع قوم موسى.

٣- مبدأ وحدة الأمة

وتشير إلى هذا المبدأ القرآنى الآيات التالية:

١- القصص: ٧۶.

٢- انظر: الجوهرى، الصحاح ٣٩٠: ١.

٣- الفروق اللغوية: ٢٧٧.

۴- الكهف: ١٠٣- ١٠۴.

۵- النمل: ٣۶.

۶- غافر: ٧٣- ٧۵.غافر: ٧٣- ٧۵.

٧- طه: ٩٢- ٩۴.

٨- الأعراف: ١۵٠.

٩- انظر: التبيان ٢٠١: ٧؛ وجامع البيان ٢۵٣: ١۶؛ وجوامع الجامع ۴٩٧: ٢؛ ومجمع البيان ۵١: ٧؛ والأصفى ٧۶٧: ٢- ٧۶٨؛ والميزان ١٩۴: ١۴؛ والنحاس، معانى القرآن ٨٣: ٣؛ وتفسير السمرقندى ۴١٠: ٢؛ وزاد المسير ٣١٨: ۵.

١٠- الأعراف: ١۴٢.

ص: ۶۱

۱- (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ* وتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ) (۱).

۲- (وإِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ* فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ* فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) (۲).

والسؤال الرئيس هنا: ما هو المشار إليه بحرف الإشارة «هـذه»؟ فإنّ تحديده فی غاية الأهمية لمعرفة مدى دلالة الآيتين على مبدأ وحدة الأمة المسلمة بالمعنى العام للإسلام.

أ- يفهم من كلمات بعض العلماء- مثل السيد محمّد باقر الصدر (۳)- أنّ المشار إليه هو أمة الإنسانية كلّها، وأن المخاطب بهذا الخطاب هم الأنبياء، فكأنّ الله يخاطب الأنبياء بأنّ البشر كلّهم أمّة واحدة، وطبقاً لهذا المعنى قد يصعب التوصّل إلى استفادة وحدة الأمة المؤمنة بوصفه مبدءاً من مبادئ العلاقات الداخلية بين المسلمين، إلا من حيث إنه إذا كان البشر أمة واحدة فالأمة المسلمة واحدة بطريق أولى.

لكننا نلاحظ على هذا التفسير أنّه:

أولًا: يخالف السياق الذی جاءت فيه بعض الآيات، فقد سبقها حديث فی الأنبياء وتعريف بهم كل واحد بعد الآخر، ثم ختم الحديث بمريم فی سورة الأنبياء، ثم جاء الخطاب المذكور؛ مما يفيد أن المشار إليه الأنبياء والرسل ورسالاتهم، وكأن المعنى أن موسى وعيسى ومريم وغيرهم هم جميعاً أمة واحدة تصدر عن مصدر واحد وأن الفُرقة والتميز بين الموسوية والمسيحية و .. جاءت من الناس الذين تقطّعوا أمرهم بينهم زبراً وصاروا أحزاباً وديانات، فقسّموا الدين الواحد الذی جاء به الأنبياء كلّهم.

ولعلّ الذی أوجب تصوّر توجّه هذا الخطاب إلى الأنبياء هو ما سبق هذه الآيات فی سورة المؤمنون؛ حيث كانت الآية السابقة: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوْا مِنْ الطَّيِّبات واعْمَلُوا صَالِحَاً إِنّیْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ عَلِيْم) (۴)، فتُصُوّر أنّ الخطاب الثانی جاء استمراراً للخطاب الأوّل، فی حين أنّ ما أشرنا إليه وما سيأتی يمنع عن توجّه هذا الخطاب للأنبياء.

ثانياً: إن هذا المعنى يلزم منه أن تكون الآية اللاحقة حديثاً عن الأنبياء أنفسهم؛ فإذا كان الله يخاطب الأنبياء ويقول لهم: إنّ هذه أمتكم أمّة واحدة واعبدونی، ثم يقولون: إنهم تمزّقوا وتفرّقوا، فهذا يعنی أن الأنبياء هم سبب التفريق، فليلاحظ السياق جيّداً، وهو معنى غير محتمل قرآنياً كما هو واضح.

ثالثًا: إنّ هذا التفسير يعارض آيات أخرى نصّت على أنّ البشر كانوا أمّة واحدة لولا الاختلاف الذی حصل بينهم، وأنهم سيظلّون مختلفين إلى ما شاء الله، فهذا يعنی أنّ وحدة البشرية- قرآنياً- أمرٌ غير مستقر، وأن الاختلاف هو الحاكم، فكيف يخاطب الأنبياء ويقول لهم: إنّ البشر أمة واحدة؟! قال تعالى: (كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ..) (۵)، وقال: (لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً ولَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُم ..) (۶)، وقوله: (وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ...) (۷)، وقال: (ولَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ولا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (۸)، وقال: (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِی مَنْ يَشاءُ ...) (۹).

من هنا، نستبعد هذا الاحتمال فی تفسير الآية الكريمة من حيث مرجع الإشارة فيها.

ب- وذهب بعض المفسّرين القدامى إلى أنّ المقصود بالأمّة هنا هو الدّين، فيكون المعنى أنّ دينكم واحد وأن هذه الديانات التی جاء بها الأنبياء السابقون كلّها دين واحد، وقد نُسب هذا التفسير إلى ابن عباس ومجاهد والحسن و .. (۱۰).

ويبدو أنّ هذا التفسير يأخذ المضمون التفسيری للآيات، لأن معنى كون هؤلاء الأنبياء جميعاً أمتنا- وهی أمة واحدة- تعبيرٌ آخر عن وحدة الدين، وإلا فكلمة الأمة قد لا تكون منصرفةً- لغةً وعرفاً- إلى الدين والديانة، ما لم تحشد إلى جانبها شواهد وقرائن.

ج- ما نراه من أنّ الآية بعد أن استعرضت- قبلها- عدداً من الأنبياء والأولياء الصالحين وتحدّثت عنهم، استأنفت خطاباً وجّهته

للمؤمنين جميعاً- باختلاف دياناتهم- بأنّ هؤلاء الأنبياء والأولياء كلّهم أمّة واحدة وجماعة واحدة هى أمّتكم، وأنهم يسيرون على خطّ واحد لا تفريق بينهم ولا تمييز بين موسى وعيسى و ... فاتقوا الله واعبدوه، ثم تتحرّك لتشير إلى سبب الفُرقة والخلاف، فقد يطرأ فى الذهن سؤال: إذا كان عيسى وموسى على خطّ واحد ودين واحد، فكيف صارت ديانتهما مختلفة وأنصارهما متباعدين متناحرين أحدهما يسمّى اليهودية والثانى المسيحية وبينهما سيف ودماء وتكفير ولعن؟!

فأشارت الآية اللاحقة- فوراً- إلى أنّ أنصار هؤلاء الأنبياء هم السبب؛ حيث قطّعوا أمرهم بينهم زبراً، أى جعلوها كتُباً ذهب كل واحدٍ لكتاب، أو صاروا قطعاً- كما هو أحد معانى الزبر لغةً كما قيل- وصار كل فريقٍ يفخر بمصالحه الحزبية والفئوية، فيما كان المطلوب منهم التوحّد تحت التعاليم الحقيقية للرسالات السماوية البعيدة عن كل هذه الإضافات والتأويلات والتحريفات التى ابتدعوها فيما بعد.

وبناءً عليه، تدلّ الآية الكريمة على وحدة أمّة الأنبياء والأولياء والمرسلين وأنّه لا اختلافات بينهم.

من هنا، قد يصعب الاستناد إلى هذه الآيات لتأسيس مبدأ وحدة الأمة المسلمة، حيث المقصود وحدة الرسل ورسالاتهم، لا وحدة المسلمين والمؤمنين مع اختلافهم.

١- الأنبياء: ٩٢- ٩٣.

٢- المؤمنون: ٥٢- ٥۴.

٣- انظر: اقتصادنا: ٣٢۴.

۴- المؤمنون: ٥١.

٥- البقرة: ٢١٣.

۶- المائدة: ۴٨.

٧- يونس: ١٩.

٨- هود: ١١٨- ١١٩.

٩- النحل: ٩٣.

١٠- انظر: التبيان: ٢٧٧: ٧، ٣٧٥.

ص: ۶۲

لكن يمكن أن يقال: إذا كانت الآيات تحمّل المتحازبين مسؤولية تفريق الأنبياء عن بعضهم في ذهن الناس ووعيهم، فمن الدلالة الأوضح حينئذٍ أن تنهى عن تناحر الأمة المسلمة، فكما كان عيسى وموسى ومحمد على خطّ واحد وهم جماعة واحدة، كذا الداخل الإسلامي هو خطّ واحد لا ينبغي التفريق فيه ما دام يتبع هؤلاء الأنبياء جميعاً؛ فالأمّة المتديّنة أمة واحدة من حيث وحدة منطلقاتها الدينية، فبهذا المقدار- فقط- تدلّ هذه الآيات لا أكثر.

۴- مبدأ الولاية المتبادلة

نقصد بهذا المبدأ أنّ المسلمين بعضهم أولياء بعض، يمثلون كياناً واحداً، وينصرون بعضهم بعضاً، فهم أمّة من دون الناس.

وتدلّ على هذا المبدأ الآيات التالية:

۱- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ) (۱).

۲- (وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (۲).

والذى يمكن أن نستنتجه من دراسة هذه الآيات- على مستوى دائرة بحثنا هنا- ما يلى:

أولًا: الولاية في الآية الأولى هنا تحتمل عدة معاني، وقد يكون الجامع بينها- على تقدير وجود جامع عرفي- هو المراد؛ فالولاية:

أ- قد تكون بمعنى النصرة والإعانة؛ فيكون المقصود بهذه الآيات أنّ المؤمنين ينصر بعضهم بعضاً ويتداعى بعضهم لمصلحة بعضهم الآخر، وقد يتعزّز هذا الاحتمال بورود مفهوم النصر والإيواء في الآية الأولى (۳).

ب- وقد تكون بمعنى المحبة والمودّة، فيكون المعنى أنّ بين المؤمنين حبّاً وودّاً ورحمة وألفة في القلوب؛ فتدلّ الآيات على مبدأ الألفة الإسلامية الذى سيأتي التعرّض له قريباً إن شاء الله تعالى.

ج- ولعلّ المراد من الآية التوارث، بمعنى أنّه يرث بعضهم بعضاً، ولا يرثهم الكفار، وقد نقل هذا الكلام عن جماعة كابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى و .. وأنّهم كانوا يتوارثون على أساس الدين؛ فجاءت آية: (أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ) (۴) فجعلت التوارث بالنسب ومثله، ونسخت الآيةَ التي نحن فيها (۵).

د- وربما كان المراد الولاية بمعنى أنّ كل واحد منهم متكفّل ومتولّى لشؤون غيره؛ فهو موظّف أن يتعهّد مصالح سائر المسلمين وحاجاتهم، فتكون أمور الأمّة المسلمة في رقبة كلّ واحد من المسلمين، عليه أن يقوم بما يمكنه القيام به تجاهها.

ه-- وقد يكون المراد الإشارة إلى عنصر القرب والالتحام والاندكاك حتى أنّ بعضهم من بعض، فتكون معبّرةً عن وحدة الملّة والتمايز عن سائر الملل، ولهذا عبّرت الآيات الأخرى بأنّ الكافرين أيضاً بعضهم أولياء بعض، أى أنّهم ملّة أخرى، فالآيات تريد بيان القطيعة- بهذا المعنى- بين الملّة المسلمة والملّة الكافرة، في مقابل بيان عنصر الوحدة الجمعية داخل الوسط الإسلامى، فتكون من آيات مبدأ وحدة الأمّة الذى تقدّم الحديث عنه آنفاً.

وقد يكون المرجّح من هذه الاحتمالات- على مستوى الآية الأولى- هو الاحتمال الأوّل؛ لأنّ السياق كلّه حديثٌ عن النصر، وفرضٌ لصور وحالات استنصار فريق مسلم ضدّ فريق كافر، ثم التعليق أخيراً بأنّ عدم نصر المؤمنين سيؤدى إلى فتنة، فأقرب الاحتمالات في هذه الآية هو الأوّل حسب الظاهر، وهو المقدار المتيقّن منها.

إلا أنّ هنا ملاحظة، وهى أنّ الآية نفسها سلبت سلباً شديداً علاقة الولاية بين المسلمين المهاجرين والأنصار من جهة وبين الذين لم يهاجروا، ثم أردفت ذلك فوراً بوجوب نصرهم لو استنصروهم، فلو كان المراد بالولاية النصرة لكان هناك تناقض في الآية الواحدة،

وهـذا مـا يضـعّف احتمال النصـرة، إلا إذا قيل- كما هو ظاهر بعضـهم- أنّ النصـر هنا مختص فيما إذا استنصـروهم في الـدين لا مطلق الاستنصار (۶)، كما في نزاع قبلي أو غيره، فيكون سلب الولاية سلب مطلق الإعانة والنصـر لهم ثم أخرجت الآية خصوص الاستنصار للـدين. لكنّ هـذا الكلام غير واضـح فنحن نسـتقرب جداً أن يكون المراد بمسألة الاسـتنصار في الدين مقابل الاسـتنصار في القرابة أو العشـيرة، أي أنّ هؤلاء استنصـروكم فيمـا بينهم وبينكم من ديانـة لا ـ من بـاب قرابـة، فلو استنصـروكم من جهـة قرابـة بينكم وبينهم أو لاعتبارات أخرى فلا يجب عليكم النصـر؛ لأنّ المسـلمين لا ينطلقون في نصـر بعضهم من معايير من هذا النوع فيحشدون لبعضهم على أسس قبليـة أو قوميـة أو غيرها كما كانت عليه الحال في الجاهليـة، وهـذا لا يخلّ بحالـة التناقض الداخلي الذي قد تبتلي به الآية على تقدير تفسيرها بالنصر.

كما أنّ احتمال المحبّـة والمودّة يبـدو بعيـداً عن سـياق الآيات، حيث لا شاهد عليه فيها؛ فهو احتمال بلا شاهد، ولأجل ذلك اسـتبعدنا ذكر هذه الآيات في مبدأ الألفة الإسلامية القادم بعون الله.

۱- الأنفال: ۷۲- ۷۳.

۲- التوبة: ۷۱.

۳- يظهر الميل لهذا الاحتمال من بعض المفسـرين مثل: التبيان ۱۶۲: ۵- ۱۶۳؛ والنحاس، معاني القرآن ۱۷۳: ۳- ۱۷۴؛ والأصفي ۲۷۹: ۱؛ وجامع البيان ۶۷: ۱۰ و ..

۴- الأنفال: ۷۵؛ والأحزاب: ۶.

۵- انظر: جامع البيان ۶۷: ۱۰- ۶۸؛ ومجمع البيان ۴۹۷: ۴؛ والنحاس، معاني القرآن ۱۷۳: ۳- ۱۷۵؛ والقطب الراوندي، فقه القرآن ۳۲۵: ۲ ، ۳۴۴ - ۳۴۵؛ والجصـاص، أحكـام القرآن ۹۸: ۲- ۹۹، و ۹۶: ۳- ۹۸، ۲۶۱؛ والأصفي ۴۴۹: ۱؛ والصافي ۳۱۵: ۲- ۳۱۶؛ وتفسير الواحدي ۴۴۹: ۱- ۴۵۱؛ وتفسير السمرقندي ۳۴: ۲- ۳۵؛ وتفسير ابن زمنين ۱۸۹: ۲؛ وتفسير الثعلبي ۳۷۴: ۴- ۳۷۵ و ..

۶- انظر: مجمع البيان ۴۹۸: ۴.

ص: ۶۳

أمّا احتمال التوارث، فرغم اشتهاره بين القدماء من المفسّرين، إلا أنّنا لم نجد له شاهداً يدعمه، ولعلّ الذی دفعهم إلی ذلک هو الآیهٔ التی ذکروا أنّها ناسخهٔ؛ فإن تعبیر (أولی) وتعبیر (أولیاء) أوحی أنّ الفکرهٔ واحدهٔ، سیما وأنّ آیهٔ سورهٔ الأحزاب قالت بعد ذلک مباشرهٔ: (.. مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَالْمُهاجِرِینَ ..)؛ فکأنها ترید أن تقدّم الأولویهٔ لصالح الأقارب علی المؤمنین والمهاجرین، ممّا یوحی بنسخها لتلک الآیات.

لکنّ هذا لا شاهد علیه، ومجرد استخدام مادّهٔ: (ولی) لا یعنی وحدهٔ المعنی وهو التوارث، فقد وردت هذه المادهٔ فی القرآن الکریم مرات کثیرهٔ واستخدمت فی حقّ الله تعالی ورسوله مما لا معنی لفرض الإرث الفقهی القانونی فی موردها؛ وربما لذلک لم نجد فی آیات الإرث من سورهٔ النساء- وهی من التی أسّست مفهومه وذکرت تفاصیله- أیَّ شیء من هذا التعبیر، مع أنّه کان من المناسب تقریر هذا المبدأ بهذا التعبیر هناک.

من هنا؛ قد یترجّح الاحتمال الرابع، بأن یکون معنی الآیهٔ أنّ المسلمین أمّهٔ واحدهٔ وکیان واحد، لکلّ واحد منهم ولایهٔ ومسؤولیهٔ وقرار ورأی وموقف من قضایا الأمّهٔ، فهم- جمیعاً- یقرّرون مصیرهم وأهدافهم وقضایاهم و .. ویشترکون فیما بینهم فی أمورهم، فتکون الآیهٔ قریبهٔ من قوله تعالی: (وَأَمْرُهُمْ شُوری بَیْنَهُمْ) (۱)؛ ولهذا لم یکن الذین لم یهاجروا ولم یدخلوا فی رحم الدولهٔ الإسلامیهٔ القائمهٔ علی عنصر الأرض- وهی المدینهٔ المنوّرهٔ- والشعب- وهو جماعهٔ المسلمین فی المدینهٔ الذین یشکّلهم المهاجرون والأنصار وتعرّضت لهم الآیهٔ نفسها ..- هؤلاء لیس لهم المشارکهٔ فی قرار المسلمین؛ لأنّهم بعدم هجرتهم لم ینخرطوا فی الاجتماع الإسلامی السیاسی بحسب حالات تلک المرحلهٔ، ولهذا لم یکن لهم ما کان لغیرهم، نعم لو استنصروا المسلمین وجب نصرهم لمکان إسلامهم؛ فهذا المعنی قد یکون أقرب الاحتمالات، ولعلّه هو المراد من کلمات بعض المفسّرین الذین أثاروا هذا الاحتمال تحت عنوان الولایهٔ التی یکون المسلمون بها یداً واحدهٔ فی الحلّ والعقد (۲).

وقد یتعزّز هذا الاحتمال بما ذکره بعض أهل اللغهٔ عندما باشروا تفسیر کلمهٔ الولی فقالوا: إنّه من الموالاهٔ واتخاذ المولی وعلاقهٔ الولایهٔ، بل بعضهم لم یأت علی ذکر معنی المحبهٔ والمودّهٔ والنصرهٔ وأمثال ذلک (۳).

وقد ینتصر للاحتمال الخامس، بما ذکره بعض أهل اللغهٔ فی تفسیر کلمهٔ الولی مباشرهٔ من أنّها من القرب والدنوّ، بل الأصل اللفظی فیها ذلک (۴).

وعلیه، فإذا فسّرت الآیهٔ بالاحتمال الرابع أو الأوّل، فهی تؤسّس مبدأ جدیداً من مبادئ العلاقهٔ بین المسلمین، وهو مبدأ النصر أو حقّ تقریر المصیر، أمّا علی الاحتمال الثانی أو الخامس فترجع إلی بعض المبادئ التی تقدّمت هنا أو ستأتی؛ ولهذا فصلنا مبدأ الولایهٔ المتبادلهٔ عن سائر المبادئ لوجود احتمال قوی فی انفکاکها عنها.

ثانیاً: تحذر الآیهٔ من عدم حصول الولایهٔ المذکورهٔ فیها، وتری أنّ عدمها سیؤدی إلی فساد کبیر وإلی فتنهٔ فی الأرض، وهذا العنوان یمکن تکییفه مع أکثر الاحتمالات المتقدّمهٔ فی تفسیر الولایهٔ؛ فإذا فسّرناها بالنصرهٔ کان المعنی أنّ عدم نصر المؤمنین لبعضهم سیخلق فتنهٔ وحرباً وضلالًا- علی حسب تفسیراتهم لکلمهٔ الفتنهٔ فی القرآن (۵)- وکذلک عدم کونهم مشترکین فی أمورهم وملّهٔ واحدهٔ دون سواهم، أو عدم وجود التحابّ فیما بینهم، نعم احتمال المیراث قد لا یکون واضحاً بالدرجهٔ عینها؛ فإنّه إذا لم یتوارثوا فیما بینهم فهل ستکون النتائج بهذا الحجم الکارثی الذی تبیّنه الآیهٔ بهذه اللغهٔ الصارمهٔ؟! ولعلّ هذا من مضعّفات هذا الاحتمال.

ثالثاً: الملاحظ من الآیهٔ الثانیهٔ أنّها مفتوحهٔ علی أکثر من احتمال فی تفسیر الولایهٔ، بل قد سعی مثل الثعلبی (۴۲۷ ه-) لجمع أکثر من معنی فیها کالنصرهٔ والمحبهٔ و .. (۶)، وإن کان احتمال التعاون والمشارکهٔ والنصرهٔ ودعم کل فریق لآخر وارداً بقوّهٔ أکبر هذه المرهٔ، وذلک أنّها أعقبت تأسیس مفهوم الولایهٔ المتبادلهٔ بسلسلهٔ من الواجبات والفرائض التی یشترکون فی العمل بها، فکأنهم یعاونون بعضهم بعضاً فیها، وقد یبدو من کلمات المفسّرین المیل هنا إلی مسألهٔ النصرهٔ والتعاون (۷)، وقد فسّرها الواحدی (۴۶۸ ه-) بالرحمهٔ

والمحبّة (۸).

۵- مبدأ الألفة الإسلامية والرحمة الإيمانية

وتشير إلى مبدأ تأليف القلوب وإحلال الرحمة فى العلاقات الدينية آيات:

۱- (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ* وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (۹).

۲- (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ...) (۱۰).

۳- (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) (۱۱).

فالآيتان الأوليان تطرحان مبدأ مهماً جداً، هو مبدأ الألفة بين المؤمنين، وتشيران إلى أنّ الإسلام سببٌ للألفة، وأن التعادى والتباغض الذى يكون بين الناس يزول بدخولهم الإسلام، والميزة هنا أنها لا تتحدّث عن اتحاد اجتماعى فى الأمة المسلمة أو سياسى أو عسكرى أو اقتصادى أو ... وإنما تطرح مبدأ الألفة القلبية؛ لذلك ورد فى الآيتين الحديث عن تأليف القلوب، أى أننا دخلنا هنا فى المشاعر والأحاسيس والعواطف التى تنقل المسلمين- بالإسلام- من مرحلة التعادى والتباغض إلى مرحلة التوالف والتحابّ؛ لأنّ الألفة- كما قيل (۱۲)- هى الاجتماع على الموافقة فى المحبّة، وقد جعلت الآية الثانية حالة التآلف القلبى هذه سبباً أو مرحلةً أسبق من مرحلة صيرورتهم إخواناً، فأخوّتهم جاءت فى تآلف قلبى، وليس من علاقة مصالح أو قرابة أو نسب أو قومية.

ويمكن الاستئناس بآية قرآنية دالّة هنا تدعم الفكرة التى نقول، وهى قوله تعالى: (لا يُقَاتِلُوْنَكُمْ جَمِيْعَاً إلا فِىْ قُرَىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيْدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيْعَاً وَقُلُوبُهُم شَتّى ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْقِلُوْن) (۱۳)؛ فهذه الآية الكريمة تنتقد حال الأعداء وتصفهم بأنّهم يبدون لكم على كلمة

۱- الشورى: ۳۸.

۲- انظر- على سبيل المثال-: التبيان ۱۶۲: ۵؛ والراوندى، فقه القرآن ۳۴۴: ۲.

۳- انظر: العين ۳۶۵: ۸- ۳۶۶.

۴- انظر: الصحاح ۲۵۲۸: ۶؛ ومعجم مقاييس اللغة ۱۴۱: ۶؛ والمفردات: ۵۳۳.

۵- انظر فى تفسيرهم لهذه الآية- على سبيل المثال-: مجمع البيان ۴۹۹: ۴.

۶- تفسير الثعلبى ۶۷: ۵.

۷- انظر- على سبيل المثال-: مجمع البيان ۸۷: ۵؛ والجصاص، أحكام القرآن ۳۶۹: ۲؛ وتفسير السمرقندى ۷۲: ۲- ۷۳؛ وتفسير السلمى ۲۸۰: ۱ و ..

۸- تفسير الواحدى ۴۷۲: ۱.

۹- الأنفال: ۶۲- ۶۳.

۱۰- آل عمران: ۱۰۳.

۱۱- الفتح: ۲۹.

۱۲- انظر: الطوسى، التبيان ۱۵۱: ۵.

۱۳- الحشر: ۱۴.

ص: ۶۴

واحدة، وصورة فاردة، وجسم واحد متراصّ، إلا انّهم متفرّقون من حيث القلوب والباطن، وهذا هو الذى أشرنا إليه، من أنّ الإسلام لا يريد لأبنائه مجرّد وجود تحالف سياسى أو عسكرى أو اقتصادى بينهم، بحيث يبدون فى الظاهر متّحدين فى مؤسّسات أو اتحادات أو منظمات أو .. فيما هم فى قلوبهم وفيما إذا خلى بعضهم إلى بعض لا يضمرون لبعضهم سوى الحقد والضغينة، ويتمنى كلّ واحدٍ منهم أن يقضى على الآخر؛ فهذه هى السلبية عينها التى تعرّضت لها هذه الآية فى وصف الكافرين؛ من هنا ركّز القرآن الكريم على مفهوم الألفة والمحبة.

ووفقاً لما قلناه، فإذا أردنا أن نسير مع هذا المبدأ القرآنى، فلا نطالب داخل المجتمع الإسلامى بتحالفات أو اتفاقات أو تفاهم أو عقود أو ... وإنما بما هو أعمق من ذلك وبما هو سببٌ لهذه الأمور جميعها، ألا وهو التآلف القلبى الذى يدفع المسلم لحبّ أخيه المسلم، لا لكرهه أو الحقد عليه أو التشفى منه أو الانتقام أو البغض أو التربّص أو ... فقط لأنّه مختلف معه فى المذهب أو القوميّة أو العشيرة أو اللغة أو ...

وفى تقديرى، فمبدأ الألفة من أهمّ المبادىء القرآنية فى علاقات المسلمين ببعضهم؛ ولست أدرى ماذا سنجيب لو سُئلنا: ما دام القرآن يؤلّف- بنعمة الهداية- القلوبَ، فكيف صار الحقد والضغينة والكره أساساً اليوم فى علاقات المسلمين ببعضهم؟! وكيف صارت نعمة التوالف والتآلف سبباً لنقمة التباغض والتعادى؟!

وقد نزلت الآيتان أو طبّقتا تطبيقاً بارزاً- على ما فى بعض التفاسير (۱)- فى الأوس والخزرج، بل قيل: إنّه مذهب أكثر المفسرين (۲)، لكنّهما لا تقفان عندهم- كما هو واضح- لعدم وجود خصوصية فى الرسالة التى تريد الآيتان أن تعطيها، ما دامت العلّة واحدة وهى الإسلام بحسب معطى الآية الأولى نفسها سيما بقرينة ضمّها إلى الآية الثانية، وما دام عموم المؤمنين يشمل الأنصار والمهاجرين و .. فقد كانت بينهم عداوات كبيرة جداً لا تخفى على أىّ مطلع على تاريخ العرب الجاهليين، لكنّ الله- مع ذلك- صيّرهم قلباً واحداً بنعمة الإيمان؛ والملفت أنّ الآية الأولى استخفّت بالدور المادى فى توليف القلوب فى حين أعطت القدرة للدور المعنوى وهو الدين، فإذا كانت كلّ أموال الدنيا لا- تستطيع أن تؤلّف القلوب؛ فذلك لأنّ عملية التأليف القلبى لا تقف عند حدود العلاقة الطيبة أو التحالف السياسى أو الاشتراك فى المصالح، بل تتعدّاه إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو أمر لا يمكن للعامل المادى عادةً أن يفعله؛ لهذا ركّزت الآية على أنّ الدين قادر على عملية التوحيد والتوليف أكثر من قدرة العناصر المادية على ذلك، وهذه نقطة مهمة؛ بل يمكن أن نضيف ما ذكره الفخر الرازى (۶۰۶ ه-) فى تفسيره من أنّ سبب عداوة العرب لبعضهم كان المال والمصالح المادية فألّف الإسلام بين قلوبهم لجعله القيم المعنوية هى المعايير فى الحياة، ثم لمّا عادت هذه المصالح إلى المسلمين بعد وفاة النبى عادوا للتصارع مرّةً جديدة (۳)، وهو ما تشير إليه التحليلات العرفانية لابن عربى (۶۳۸ ه-) فى تفسيره أيضاً (۴).

ولعلّ وقوع جملة تأليف القلوب بالإسلام فى سياق الآيات الحاثة والمتحدّثة عن نصر النبى وتقويته قبل هذه الآية (الأولى) وبعدها، فيه إشارة إلى الدور الذى يلعبه تأليف القلوب الإسلامية بالإسلام فى تحقيق العزّة والنصر والمنعة والقوّة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنّ الآية الثانية ركّزت مرّتين على وصف النعمة، وهى إشارة دالّة ومعبرة، من حيث إن الإسلام بتوحيده القلوب ونشر ثقافة الأخوّة قد ألقى نعمةً إلهيةً على الناس، وهذه النعمة سواء جعلناها الإسلام أم محمداً أم القرآن أم أىّ شىء آخر .. فهى فى نهاية المطاف ترجع إلى الدين الذى هو الظاهرة التى استجدّت فى الحياة العربية آنذاك، بحيث يتصوّر نسبة التوالف المستجدّ- بقرينة قوله: (فَأَصْبَحْتُم)- إليها.

والآية أيضاً واضحة فى أنّ التأليف كان مقدّمةً للأخوة، وهذا معناه أنّ الأخوة لا تعنى مجرّد العلاقات الطيبة أو المصالح المشتركة على أساس قبلى أو وطنى أو قومى أو عشائرى أو حتى دينى .. تصاحبها حالات تنافر قلبى فى واقع الأمر لو خلّى كلّ فريق ونفسه، كما هى حال أمّتنا اليوم فى غير موقع، بل تنتج من عملية توليف القلوب فى مرحلة أولى؛ ليعقبها تحقّق مفهوم الأخوة، فكأن التلازم

السببى أو تلازم السابق مع اللاحق كان شديداً حتى عبّرت الآية ب- (فَأَصْبَحْتُم) مستخدمةً الفاء الدالّة على العطف بلا تراخى.

وبتحليل صيغة الأمر فى مطلع النص (وَاذْكُرُوا) نفهم أنّ تذكّر هذه النعمة واجبٌ شرعى، بيد أنّه ليس مأخوذاً على نحو الموضوعية المستقلّة، بمعنى أنّ التذكّر هنا لا يهدف منه مجرّد التذكّر، وإنّما استشعار المنّة الإلهية؛ لأنّ الآية وردت فى سياق الامتنان الذى أعقب طلب الوحدة وعدم الفرقة، وهذا معناه أن هذا التذكر لتحوّل حالهم من التمزّق إلى التوافق إنّما يراد منه السعى دوماً لإبقائه ضمن المناخ الإسلامى، فعندما تقول لشخص: أحسن التصرّف فى مالك؛ وتعلل له ذلك بقولك: وتذكّر كيف كنت فقيراً فأعطيناك المال؛ فهذا معناه أنّ التذكّر هنا أخذ لكى يكون مقدّمةً للأمر الأوّل، وهو حسن التصرّف فى المال، وهنا الأمر كذلك، يكون التذكّر مقدّمةً لتحقيق الاعتصام بالحبل الإلهى وعدم التفرّق، فالجملة خبرية الروح عن واقعهم التاريخى، إنشائية الصياغة من حيث إرادتها الحفاظ على هذه النعمة.

ويمكن تعزيز هذا المبدأ بآية قرآنية أخرى ذات صلة، وهى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (۵)، فإنّ رفع الغلّ- وهو الحقد والضغينة والعداوة- درجة من الدرجات الأولى لبلورة الألفة والمحبة، بل هذا الدعاء بنفسه تعبير عن محبة وعطف وصدق مع المؤمنين، ولعلّه لذلك ختمت الآية بأوصاف الرأفة والرحمة فى البارى تعالى شأنه.

وهذا ما يجعلنا نطلّ على الآية الثالثة من آيات هذا المبدأ، تلك الآية التى تشيّد مبدأ الرحمة الإيمانية، فالمؤمنون فيما بينهم رحماء تحكم علاقاتهم الرحمة وليس المصالح، فهم يخافون على بعضهم ويشفقون على رجالهم ونسائهم، ويتحنّنون على بعضهم، فهذا هو معنى الرحمة التى تذكرها الآية، وهى تستدعى مساعدة بعضهم بعضاً فى الشدائد، والوقوف إلى جانب بعضهم (۶)، وتبدو هذه الرحمة بمظهر المذلّة أمام المؤمن والتواضع وخفض الجناح معه لا التكبّر والتعالى؛ قال تعالى: (أذلّةً على المؤمِنِينَ أعِزّةً عَلَى الكَاْفِرِيْن (۷)، فإنّ الآيتين تتشابهان فى التعبير والتركيب والغاية، وتتقاربان فى الفكرة والمضمون.

والعنصر البلاغى فى تعبير الآية أنّها جعلت الرحمة فى مقابل الشدّة مع أنّ الشدة لا تقابلها الرحمة، وهذا ناتجٌ- كما يقول التفتازانى (۷۹۲ ه-) (۸)- عن كون الرحمة مسبَّبةً عن اللين؛ فهذا اللين وتلك الطراوة القلبية هما اللذان ينتج عنهما أو تلازمهما الرحمة فى الوسط الإسلامى.

۱- انظر: تفسير أبى حمزة الثمالى: ۱۸۶؛ وتفسير القمى ۱۰۸: ۱، ۲۷۹؛ والتبيان ۵۴۶: ۲، و ۱۵۱: ۵؛ والكشاف ۴۵۱: ۱، و ۱۶۶: ۲-۱۶۷؛ وجوامع الجامع ۳۵: ۲- ۳۶؛ ومجمع البيان ۳۵۷: ۲، و ۴۸۹: ۴؛ وجامع البيان ۴۵: ۴- ۴۶، و ۴۶: ۱۰- ۴۷؛ وتفسير ابن أبى حاتم ۱۷۲۷: ۵؛ والجصاص، أحكام القرآن ۹۱: ۳؛ والأصفى ۴۴۶: ۱؛ والصافى ۳۶۶: ۱؛ والميزان ۱۱۸: ۹؛ والأمثل ۶۱۸: ۲- ۶۱۹، و ۴۸۰: ۵ مع تركيزه على التعميم بعد ذلك؛ وتفسير السمرقندى ۳۰: ۲؛ وتفسير الثعلبى ۳۷۰: ۴؛ وتفسير الواحدى ۴۴۷: ۱؛ وتفسير البغوى ۲۶۰: ۲؛ والنحاس، معانى القرآن ۴۵۴: ۱- ۴۵۵؛ وتفسير النسفى ۷۲: ۲؛ وزاد المسير ۲۵۶: ۳؛ والتفسير الكبير ۱۸۹: ۱۵؛ وتفسير القرطبى ۴۲: ۸؛ والغرناطى الكلبى، التسهيل لعلوم التنزيل ۶۸: ۲؛ وتفسير الثعالبى ۱۵۱: ۳ و ..

۲- تفسير السمعانى ۲۷۶: ۲؛ وابن عطية الأندلسى، المحرر الوجيز ۵۴۸: ۲؛ وأبو حيان الأندلسى، تفسير البحر المحيط ۵۱۰: ۴؛ والشوكانى، فتح القدير ۳۲۲: ۲.

۳- الفخر الرازى، التفسير الكبير ۱۹۰: ۱۵.

۴- ابن عربى، تفسير القرآن الكريم ۲۸۲: ۱- ۲۸۳.

۵- الحشر: ۱۰.

۶- انظر مواقف المفسّرين من الآية وهی توجز بعض ما نقول فی: تفسیر مقاتل بن سلیمان ۷۹: ۲، و ۲۵۴: ۳، ۳۲۷؛ وجامع البیان ۱۴۱: ۲۶- ۱۴۲؛ والتبیان ۳۳۶: ۹؛ وتفسیر السمرقندی ۳۰۴: ۳؛ وتفسیر ابن زمنین ۲۵۸: ۴؛ والمیزان ۲۹۹: ۱۸؛ وتفسیر الثعلبی ۶۴: ۹؛ وتفسیر الواحدی ۱۰۱۴: ۲؛ وتفسیر السمعانی ۲۰۹: ۵؛ وتفسیر البغوی ۲۰۶: ۴؛ والأمثل ۴۹۵: ۱۶، ۵۰۳؛ وتفسیر النسفی ۴۵۹: ۱؛ وزاد المسیر ۱۷۳: ۷؛ وتفسیر القرطبی ۲۹۲: ۱۶- ۲۹۳؛ وتفسیر البیضاوی ۲۰۹: ۵؛ وتفسیر أبی السعود ۱۱۴: ۸؛ وروح المعانی ۱۲۳: ۲۶ و ..

۷- المائدة: ۵۴.

۸- سعد الدین التفتازانی، مختصر المعانی: ۲۶۶.

ص: ۶۵

۶- مبدأ الأخوّة الإسلامية

وهو مبدأ هام، تعطيه الآيات التالية:

۱- (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (۱).

۲- (.. واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ...) (۲).

۳- (ويَسْئَلُونَکَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ...) (۳).

۴- (فَإِنْ تابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ونُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (۴).

۵- (ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ومَوالِيكُمْ ...) (۵).

۶- (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الأُنْثى بِالأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ ..) (۶).

۷- (.. ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْه ..) (۷).

فهذه الآيات تقرّر مبدأ الأخوة الدينية مع اليتامى ومجهولي الوالد، ومع كلّ من دخل الإسلام وتاب إلى الله تعالى من الكفر والشرك، بل الآيتان الأخيرتان تأخذان هذا الأمر مفروغاً عنه، وتستند الأخيرة إليه للردع عن الغيبة وتشويه فعل صاحبها. ومبدأ الأخوّة يعني تساوي المسلمين فيما بينهم، فليس أحدهم أباً لأحد ولا الآخر ابناً للأوّل، بل هم إخوة لكلّ واحدٍ منهم ما للآخر، وعلى كلّ واحد منهم ما على الآخر، وهذه هي نكتة الأخوّة التي تستبطن التساوي أيضاً في المواقع والحقوق والواجبات من حيث المبدأ.

والدلالة الأهم في هذه المجموعة من الآيات أنها تفيد الحصر بحسب الآية الأولى منها، فكلمة (إنما) تفيد الحصر عند الكثير من اللغويين وعلماء أصول الفقه الإسلامي، فقد حصرت المؤمنين- ولو على نحو المبالغة- بأن يكونوا إخوة، وكأنّه لا معنى لهم سوى أن يكونوا إخوة، وقد رتّبت على هذه الأخوة المجعولة وجوب إصلاح ذات بينهم عندما يقع بينهم تنازع أو اختلاف، فليس السعي للإصلاح لمصالح وقتية أو لأهداف مرحلية، بل لأنّ حالة الأخوّة هي الحالة الطبيعية التي يفترض أن تحكم المجتمع الإسلامي بحسب النظرية القرآنية، واللطيف أنّها عبّرت بالأخوين، وهذا يدلّ على أنّ المصلح أخٌ لكلّ طرف من طرفي التنازع، وهو ما يشير إلى أخوة طرفي التنازع أيضاً؛ لقضاء العادة بأنّ من أكون أخاً لهما يكونان أخوين لبعضهما بعضاً أيضاً، فهو من أوجز الكلام وألطفه كما يقول العلامة الطباطبائي (۱۴۱۲ ه-) (۸)، ويشير إلى تصوير بليغ للأمّة المسلمة على أنّها أسرة واحدة (۹).

وتعجبني هنا عبارة الزمخشري (۵۳۸ ه-) في الكشاف: حيث يقول: «والمعنى ليس المؤمنون إلا إخوة وهم خلص لذلك متمحّضون قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التماذج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولّد منه التقاطع ..» (۱۰).

والإيمان في هذه الآية يقصد به الإسلام لا المعطى المذهبي الخاص كالتشيع الاثنا عشري؛ لأنّ إطلاق عنوان المؤمن على المسلم الإمامي، حدث فيما بعد لا في زمن الرسول، فليس حقيقةً شرعيّةً في تلك الأزمنة كما هو واضح؛ فتشمل كلّ هذه الآيات مطلق طوائف المسلمين وانتماءاتهم.

التكفير وعمليات التفلّت من المبادئ الوحدوية القرآنية

هذه المبادئ التي ذكرناها، لا إشكال فيها وهي واضحة؛ لكنّ مشكلة المسلمين عبر الزمن- رغم علمهم بهذه المبادئ بشكل أو بآخر- أنهم لما كانوا يريدون التنازع مع فريق مسلم كانوا يستبقون ذلك بتكفيره؛ وبهذه العملية كان يتمّ التفلّت والتملّص من كل الخطابات القرآنية الداعية لوحدة الصفّ وألفة القلوب؛ لأنّك عندما تخرج جماعةً من الإسلام فأنت بذلك لا تعود مخاطباً بحقوق المسلم معهم؛ بل إنك سوف ترفض التقريب والوحدة مع هذه الجماعة؛ لأنّه تقريب بين المسلمين والكافرين لا بين المسلمين أنفسهم.

من هنا، كانت ظاهرة التكفير التي عرفها تاريخ الإسلام، واشتهرت بها جماعات معروفة عبر التاريخ الإسلامي كقدامى الخوارج

وغيرهم، أكبر إضعاف لمبادئ الوحدة الإسلامية، وهذا ما يستدعى من الفقهاء المسلمين دراسة جادّة لأصول الإسلام والكفر؛ حتى يتميّز الكافر من المسلم بدقة، ولا يُتسرّع فى عملية تكفير المسلمين بعضهم بعضاً، والبحث فى هذه النقطة خارج عن هذه الدراسة.

لكنّنى- من باب الإشارة- يحلو لى هنا أن أنقل كلامين هامّين- بنظرى- لشخصيتين إسلاميتين شيعيتين بارزتين، تصدّرتا أهم مواقع المرجعية والفكر الشيعى فى القرن العشرين، ألا وهما: الإمام روح الله الخمينى (۱۴۱۰ ه-)، والشهيد السعيد محمد باقر الصدر (۱۴۰۰ ه-)، كلامين مدوّنين فى مصادر بحثهما الفقهى الداخلى، لا كلامين سياسيين، قد تمنعهما سياسيّتهما عن الدلالة والتعبير، يشيران إلى أنّ إنكار مبدأ إمامة أهل البيت:، وهو أكبر مبدأ فى المذهب الشيعى بعد الشهادتين، لا يخرج الإنسان عن الإسلام، فما ظنّك بعد هذا بسائر المبادئ والأفكار، حتى لو كان المنكر مخطئاً وغير مصيب.

۱- الحجرات: ۱۰.

۲- آل عمران: ۱۰۳.

۳- البقرة: ۲۲۰.

۴- التوبة: ۱۱.

۵- الأحزاب: ۵.

۶- البقرة: ۱۷۸.

۷- الحجرات: ۱۲.

۸- انظر: الميزان ۳۱۵: ۱۸.

۹- انظر: الشيرازى، الأمثل ۵۴۱: ۱۶.

۱۰- الكشاف ۵۶۵: ۳.

ص: ۶۶

النص الأول: يقول الإمام الخميني في كتاب الطهارة من مباحثه الفقهية ما نصّه: «إن الإمامة بالمعنى الذي عند الإمامية، ليست من ضروريات الدين، فإنّها [أي الضروريات] عبارة عن أمور واضحة بديهية عند جميع طبقات المسلمين، ولعلّ الضرورة عند كثيرٍ على خلافها، فضلًا عن كونها ضرورة، نعم، هي من أصول المذهب، ومنكرها خارج عنه، لا عن الإسلام» (١).

النص الثاني: يقول الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه «بحوث في شرح العروة الوثقى» ما لفظه: «... إن المراد بالضروري الذي ينكره المخالف، إن كان هو نفس إمامة أهل البيت:، فمن الجليّ أنّ هذه القضيّة لم تبلغ في وضوحها إلى درجة الضرورة، ولو سلّم بلوغها- - حدوثاً-- تلك الدرجة فلا شك في عدم استمرار وضوحها بتلك المثابة، لما اكتنفها من عوامل الغموض، وإن كان هو تدبير النبي وحكمة الشريعة على أساس افتراض إهمال النبي والشريعة للمسلمين بدون تعيين قائد أو شكل يتمّ بموجبه تعيين القائد يساوق عدم تدبير الرسول وعدم حكمة الشريعة، فإنّ هذه المساوقة، حيث إنّها تقوم على أساس فهم معمّق للموقف، فلا يمكن تحميل إنكار مثل هذا الضروري على المخالف، لعدم التفاته إلى هذه المساوقة أو عدم إيمانه بها» (٢).

فإذن، إنكار السنّي مبدأ الإمامة الشيعي لا يصيّره كافراً، أو منكراً للبديهيات الواضحة، وإن اعتقد الشيعي أنَّ السنّي مخطئ في اعتقاده، فهذا حقّه، لكن ذلك لا يعني تكفيره لأخيه والقطيعة معه؛ ف- «ملاك الكفر والخروج من الإسلام هو الإنكار الصريح، لا الإنكار بالملازمة، والخلط بين العقيدة الصريحة والعقيدة الملازمة للعقيدة الصريحة من آفات المذاهب، ومن عوامل تراشق التهم بينها» (٣).

وإذا قدّمتُ هاتين الشخصيتين البارزتين شاهداً، فهناك الكثير من رجالات العلم الشيعي تشهد بهذه الحقيقة، ولربما صحّ قول العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين حينما قال: «الفصل الرابع [من كتاب الفصول المهمة]: في يسير من نصوص أئمتنا «في الحكم بإسلام أهل السنّة، وأنّهم كالشيعة في كلّ أثرٍ يترتّب على مطلق المسلمين، وهذا في غاية الوضوح من مذهبنا، لا يرتاب فيه ذو اعتدال منّا، ولذا لم نستقص ما ورد من هذا الباب، إذ ليس من الحكمة توضيح الواضحات ...» (۴).

وهكذا الحال في الطرف الآخر، فإن عدم الاعتقاد بعدالة الصحابة، أو زوجات النبي ٩ أو بعض الخلفاء الأوائل لا يعني كفراً، بل حتّى لو سلّمنا بسبّهم أو لعنهم، فهو على أقصى تقدير- وفقاً لنظريات الفريق الآخر- معصية كبيرة وجرم عظيم، لكنّ فرقاً واضحاً بين هذا العنوان وعنوان الكفر الموجب للقطيعة، والإخراج عن ربقة الإسلام؛ ذلك أنّ احتمال الخطأ في الاجتهاد واردٌ، فلعلّ من فعل ذلك أخطأ في اجتهاده، وما أكثر ما تأوّل السلف وأخطأوا دون حرجٍ عليهم في ذلك، فأمر التكفير عظيم وخطره جسيم، كما يقول ذلك كلّه العلامة شرف الدين أيضاً (۵).

٧- مبدأ دفع البغي، وجوب الإصلاح ومجاهدة الفرقة الباغية

تكاد تتفق كلمات فقهاء المسلمين أنّ أهل البغي تجب مواجهتهم لتفتيت حركة معارضتهم، ولو كان ذلك موجباً لفتح الحرب معهم، وتعدّ هذه الحرب جهاداً في سبيل الله.

والدليل القرآني الذي أسّس هذا المبدأ هو قوله تعالى: (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (۶).

وتقريب الاستدلال بالآية أنه على تقدير وقوع مقاتلة بين طرفين مسلمين وشجار، يجب السعي في البداية لحلّ النزاع بالصلح والوفاق، فإذا فشلت ألوان المصالحة، وبغت وظلمت إحدى الطائفتين الأخرى، وجب مقاتلة الفئة الباغية حتى ترضخ لأمر الله وحكمه، وهذا منطبق تماماً على التمرّد المسلّح ضدّ النظام الشرعي.

المعطيات الفقهية والقانونية لمبدأ مجاهدة البغاة

وهذه الآية:

١- لا يوجد فيها تخصيص بزمان الحضور حتى يقال: إنها خاصة بالخروج على المعصوم، كما يفهم من كلمات الفقهاء في البغي (٧)،

بل عامة شاملة لتمام الأزمنة والأمكنة والجماعات، فليس فيها أيّ قيد بهذا الخصوص.

۲- بل إنّ هذه الآية وإن صحّ الاستناد إليها في محاربة الخارجين عن النظام الشرعي، إلا أنّها غير خاصة بجهاد أهل البغي في التعريف الفقهي السائد؛ لأنها لا تفرض الطائفة التي بُغي عليها هي الحاكم الشرعي- سواء كان الإمامَ المعصوم أم غيره- بل تطلق لكلّ طائفتين مسلمتين حصل اقتتال بينهما سواء كان هناك نظام شرعي بين المسلمين أم لا، وسواء كان أحد الطرفين المتقاتلين هو هذا النظام الشرعي أم لا؛ فالحروب الداخلية في البلدان الإسلامية تشملها الآية، كما تشمل الحروب التي تقع اليوم بين الدول الإسلامية، حتى لو كانت الدولتان غير شرعيّتين في نفسيهما من حيث شرعية نظام السلطة، بل تشمل حتى مقاتلة الأحزاب والقبائل والعشائر وأمثالها لبعضها، وهذا المعنى الأوسع هو ما يظهر من ابن البراج الطرابلسي (۴۸۱ ه-) (۸)، ومن بعض كلمات السيد الخوئي (۱۴۱۳ ه-) (۹)، ومن الشيخ محمد مهدي شمس الدين (۱۰).

وهذا ما يقود إلى ملاحظة، وهي أن أكثر الأبحاث الفقهية ركّزت في الحروب الداخلية بين المسلمين على جهاد البغاة- بالاصطلاح الفقهي الخاص- مستندةً إلى هذه الآية الكريمة، دون أن تفتح عنواناً أوسع، تحت شعار الحرب الإسلامية- الإسلامية، أو الحروب الداخلية بين المسلمين، ربما لأن القضية في الحروب الداخلية بين المسلمين في القرون الأولى غلب عليها ثنائي: السلطة والمعارضة، وهذا ما يؤكّد ما قلناه من ضرورة تعميم العنوان؛ لأن هذه الآية العمدة هنا تصلح حكماً لما هو أبعد من فقه جهاد أهل البغي بالمعنى الفقهي المصطلح؛ سيما بقرينة أسباب النزول القادمة الإشارة إليها.

۱- روح الله الخميني، كتاب الطهارة ۴۴۱: ۳.

۲- محمد باقر الصدر، بحوث في شرح العروة الوثقى ۳۱۵: ۳.

۳- محمد واعظ زاده الخراساني، الوحدة الإسلامية عناصرها وموانعها، مجلة رسالة التقريب ۱۱: ۱۵.

۴- عبدالحسين شرف الدين، الفصول المهمّة في تأليف الأمّة: ۱۸.

۵- راجع حول ذلك: المصدر نفسه: ۴۴-- ۱۳۱؛ وحول موقف السلف من التكفير انظر أيضاً: المصدر نفسه: ۲۶- ۳۸.

۶- الحجرات: ۹.

۷- انظر: منتهى المطلب ۹۸۵: ۲؛ ومسالك الأفهام ۹۱: ۳؛ وجواهر الكلام ۳۲۲: ۲۱؛ ورياض المسائل ۴۵۶: ۷؛ وتفسير الأمثل ۵۳۸: ۱۶؛ والخوئي، منهاج الصالحين ۳۸۹: ۱؛ وفضل الله، كتاب الجهاد: ۴۱۷.

۸- المهذب ۳۲۵: ۱.

۹- وهو ظاهر كلامه في منهاج الصالحين ۳۶۱: ۱؛ وإن كان تعريفه لأهل البغي عند البحث عن مقاتلتهم يدلّ على حصرهم بالخارجين على الإمام المعصوم، فانظر: المصدر نفسه ۳۸۹: ۱؛ وتابع الشيخُ الوحيد الخراساني السيدَ الخوئي في ذلك مستخدماً تعبيره عينه، فانظر له: منهاج الصالحين ۴۰۶: ۲- ۴۰۷.

۱۰- شمس الدين، فقه العنف المسلّح في الإسلام: ۶۸.

ص: ۶۷

۳- إنّ الظاهر من هذه الآية وجوب مقاتلة الطائفة الباغية؛ لظهور صيغة الأمر فيها في ذلك: (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)، كما أن منتهى مقاتلتهم هو ارتداعهم عما كانوا عليه وإقلاعهم عنه، وهذا ما يشهد عليه تعبير: (حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ)، فليس الهدف قتلهم، بل عودهم إلى الحقّ، وهذه نقطة مهمّة، تلمح إليها بعض الروايات الواردة في حكم البغاة الذين ليس لهم فئة.

۴- إن الآية ظاهرة في وجوب البدء بالطرق السلمية في مواجهة الطرف الباغي، وأن مجرّد بغيه لا يبرّر خوض الحرب معه، فلابدّ من استنفاد تمام الطرق السلمية لوقف القتال، وإن فشلت الجهود، تمّ البدء بمحاربة الظالم من الطرفين، وقرينة ذلك أن أوّل الأوامر في الآية بعد فرض الاقتتال هو: (فأصلحوا بينهما)، وهو ظاهر في الترتيب والتقديم، وإعطاء الأولوية لمبدأ الإصلاح.

۵- الظاهر من الآية- بقرينة التعبير بالطائفة- أنها تتحدّث عن معركة بين جماعتين لا عن معركة فرد مسلم مع آخر مثله، وإن قيل بالتعميم لسبب أو لآخر، مما يجعلها خاصّة بموارد صراع الجماعات لا الأفراد، وهذا ما يجعلها أكثر التصاقاً بباب الجهاد منها بباب العقوبات وما شاكل، نعم روى عن مجاهد أن نزول آية البغي كان في رجلين (۱)، لكنه خلاف الظاهر من الآية، كما هو واضح، ولعلّه أراد أنّ بداية الاختلاف كانت بين رجلين، كما ستأتي الإشارة لذلك- إن شاء الله تعالى- عند الحديث عن أسباب نزولها.

نعم الآية اللاحقة التي سبق الحديث عنها (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ...) تفيد في إعطاء إطلاق لوجوب الصلح بين مطلق الأخوين دون اختصاص بالجماعتين المتقاتلتين، ففيها توسعة مقارنةً بآية البغي نفسها، وقد ألمح إلى هذا الأمر- في الجملة- الفخر الرازي (۶۰۶ ه-) (۲).

۶- الظاهر أنّ المراد بالمؤمنين في الآية مطلق المسلمين؛ لأن ظاهرها في القرآن ذلك، وإطلاق وصف الإيمان والمؤمن على خصوص الشيعي الاثني عشري أمر لاحق- كما قلنا- إذا تمّ، ولهذا لا تختصّ الآية بمحاربة طوائف من المذهب الخاص، بل تعم تمام فرق المسلمين فيما بينهم.

وهذا ما نراه في تمام الآيات القرآنية، مثل آية النهي عن غيبة المؤمن بقرينة جعل المؤمنين إخوةً في آيات لاحقة، مما يجعل إخراج المخالف بحاجة إلى دليل أو إلى اعتباره كافراً من رأس.

وثمة بحث هنا وقع بينهم، وهو أن الشيعة تعتبر الخارج عن الإمام المعصوم كافراً، فيما تذهب الطوائف السنّية إلى اعتباره مسلماً مخطئاً في فهمه واجتهاده، وطبقاً للتفسير السنّي لا مشكلة في إطلاق وصف المؤمنين على الطائفتين معاً، لإمكان كون الإمام ۷ والخارجين عليه مؤمنين عندهم، أما عند مشهور الإمامية فلابدّ من افتراض- كما حصل عند بعضهم- أن توصيفهم بالمؤمنين كان بلحاظ حالة ما قبل البغي لا ما بعده، أو كان بناءً على ظاهرهم أو على ما يعتقدون هم في أنفسهم (۳).

وهذه التأويلات غير صحيحة؛ وذلك:

أولًا: إنّ الآية- كما قلنا- لا تتحدّث عن البغي المصطلح فقط، بل عن مطلق صراعات المسلمين مع بعضهم، وعليه فإذا كان المراد من المؤمنين إطلاق الوصف بلحاظ ما كان، أو بلحاظ الظاهر، أو بلحاظ اعتقادهم، فيما لو كان الطرفان هما: السلطة الشرعية والمعارضة المتمرّدة، وإطلاقه على معناه الحقيقي في سائر موارد البغي الأخرى، يكون من استعمال اللفظ وإرادة معنيين، وهو- بقطع النظر عن استحالته طبق ما بحثوه في علم أصول الفقه- خلاف الظاهر عرفاً ولا قرينة عليه.

نعم، أصل الإطلاق بلحاظ ما كان لا مانع منه، كما يقال: لو ارتدّ مؤمن وجب قتله كما يقول الشيخ الطوسي (۴) وإن كان هناك فرق.

ثانياً: نحن في غنى عن هذه التأويلات برفض التحديد الزماني للآية كما قلنا، فحتى لو حصرنا الآية بالبغي على الإمام الشرعي، إلا أنّ تحديده بخصوص المعصوم لا إشارة في الآية إليه، كما لا إشارة إلى زمان الحضور، ومعه يمكن تصوّر البغي المصطلح- وهو المعارضة المسلّحة- دون حاجة إلى افتراض كون إمام المسلمين معصوماً، كما في مثل البناء على نظرية الولاية العامة للفقيه، ولا يقال بكفر الخارج على غير المعصوم، كما هو واضح.

ثالثاً: قد يتبنّى هنا رأى الإمام الخمينى فى النواصب (۵) وأنهم فرقة دينية، ومن ثم ليس كل من حارب ونصب العداء- ولو لسبب دنيوى- يكون كافراً، بل خصوص من نصبه اعتقاداً وإيماناً، بحيث كان نصبه العداء لأهل البيت جزءاً من عقيدته الدينية، لا لمصالح سياسية، من هنا فعائشة أم المؤمنين وكذا طلحة والزبير ومعاوية و ... لا يحكم بكفرهم من هذه الزاوية، لأنهم ما جعلوا نصبهم العداء عن عقيدة وديانة، بل- وفق العقيدة الشيعية- عن مصالح دنيوية أو رغبات مادية أو مواقف سياسية، فلا يحكم بكفر مثل هذا الشخص. وتفصيل هذه المباحث نتركه إلى موضعه.

رابعاً: إنّ الآية اللاحقة نفسها حكمت بأخوّة الجميع؛ ورتبت عليها- كما تقدّم- وجوب الإصلاح بينهم، وهذا معناه أنّها تلاحظ حالهم بعد الاقتتال، وتحكم بالأخوّة فى هذه الحال، وهو خُلْفُ فرض كفر هذا الفريق، إذ كان المناسب التعبير بالارتداد عن الدين، وهذا شاهد قوىّ على عدم كفر مطلق الباغى.

٧- الظاهر من الآية أن حالة البغى- كما يقول الشيخ الآصفى (۶)- حالة مسلّحة، وليست مطلق حالة اختلاف بين الجماعتين المؤمنتين، والشاهد على ذلك التعبير ب- «فقاتلوا» ولم يقل: «فاقتلوا» أو غير ذلك، فإنّه لو لم تكن هناك حالة منعة لدى الطرف الباغى لما صحّ التعبير بالمقاتلة، بل لعبّر عنه بإيقاع الجزاء عليه كالقتل، تماماً كالمحاربين الذين حكمت الآيات بلزوم قتلهم، وهذا ما يدخل البحث هنا فى إطار المعارضة المسلّحة للنظام الشرعى- عندما يكون الحديث عن انطباق مفهوم البغى على موضوع المعارضة- لا المعارضة السلمية وما شابهها.

١- الصنعانى، تفسير القرآن ٢٣٠: ٣، ٢٣٢؛ والطبرى، جامع البيان ٩٢: ١٨- ٩٣.

٢- التفسير الكبير ١٢٩: ٢٨.

٣- النجفى، جواهرالكلام ٣٢٣: ٢١؛ والآصفى، الجهاد: ١٢٧.

۴- الطوسى، التبيان ٣۴۶: ٩.

۵- الإمام الخمينى، كتاب الطهارة ۴۵٧: ٣- ۴۵٨.

۶- الآصفى، الجهاد: ١٢٨- ١٢٩.

ص: ۶۸

وهـذا ما يجعل الشـروط الثلاثـة التى ذكرها بعضـهم مفهومة؛ حيث شـرطوا فى تحقق مفهوم البغى أن يكون الباغى متمرّداً على سـلطة الدولة، وقد ناقشنا هذا الكلام من حيث تخصيص البغى به، وأن يكون له قوّة تمنعه وتمكّنه وتحميه، وأن يمارس خروجاً مسلحّاً (۱).

وعليه فما ذكره بعض العلماء من شـمول الآيـة لمطلق الخلافات حتى غير القتالية (۲) غير واضـح، وربما يقصد ما يرجع لروح الآية من حيث مسألة الإصلاح، كما يلوح من كلامه.

۸- ورد فى الآية فرضان هما:

الفرض الأول: أن تقتتل طائفتان من المؤمنين، والحكم هنا هو المصالحة بينهما والوفاق.

الفرض الثانى: أن يحصـل بغى من إحـدى الطـائفتين على الأخـرى، فيجب المقاتلـة، وهو ظاهر- كما يقول الشيـخ الآصـفى (۳)- فى مشاركة الفريق المحايد المصلح فى الحرب لصدّ البغى عن الطائفة التى معها الحق، وقد ذكر هنا أنه بعد الفيء يجب الإصلاح أيضاً، فيكون المراد بالفيء الكفّ عن القتال والرجوع عنه، لكنّ الإصلاح اللاحق هذا شُرط فى الآية بالعدل، ولعلّه لكون الطرف المصلح قد شـارك فى القتـال هـذه المرّة بنفسه، فيترقب منه الخروج عن جـادة الحياد والموضوعيـة، وفى الآيـة قيم أخلاقيـة عاليـة فى التعامل مع الفريق الآخر المسلم الذى نختلف معه.

۹- ذهب فى سبب نزول الآية مذاهب أبرزها:

أ- إن الآيـة نزلت فى الأوس والخزرج، تقاتلا بالسـعف والنعال، وهذا هو المروىّ عن مجاهد وسـعيد بن جبير (۴)، والآية تحتمل هذا الافـتراض؛ لأنّ الأوس والخزرج كانوا مؤمنين فى المدينـة، والسورة- أى الحجرات- مدنيـة، ولعلّه إليه يشـير ما قيل من أنها نزلت فى قبيلتين من الأنصار (۵).

ب- إنهـا نزلت فى رهـط عبـدالله بن أبى سـلول من الخزرج ورهـط لعبـد الله بن رواحـة من الأـوس، وسـبب ذلـك أن النـبى ۹ وقف علىعبدالله بن أبىّ، فراث حمار رسول الله ۹، فأمسـك عبـدالله أنفه، وقال: إليك عنى، فقال عبدالله بن رواحة: لحمار رسول الله ۹ أطيب ريحـاً منـك ومن أبيـك، فغضب قومه، وأعـان ابن رواحـة قومه، وتضـارب الفريقان (۶)، وهنـاك روايـة أخرى تشـبهها مع اختلافات خفيفة جاءت فى مصادر السيرة والحديث والتفسير (۷).

وقد تحفظ العلامة الطباطبائى فى الميزان على هذا السـبب، وقال بأن الآية لا تنسـجم معه دون أن يبيّن مبرّر عدم الانسـجام (۸)، إلا أن الشيـخ الآصـفى الـذى وافقه بيّن ذلك أنّ الآية تضـفى صـفة الإيمان على المقتتلين، مع أن عبدالله بن أبىّ وجماعته كانوا منافقين، فلا يصحّ إطلاق لفظ الإيمان عليهم، حتى طبق المجازات التى سلف الحديث عنها (۹).

لكنّ هـذه الملاحظة غير واضـحة، ولعلّ سـببها دخول عبدالله بن أبىّ فى القصة- وهو المنافق المعروف- لكن الرواية لا تحكى عن أن الجماعـة التى وقفت معه كانوا منافقين أيضاً، إذ لعلّهم كانوا مؤمنين حرّكتهم العصبية القبلية معه لا غير، لا بغضاً برسول الله، تماماً كما توحيه بعض الأخبار المتقدّمة، ومن ثم وإن كان سبب الحرب شخصاً منافقاً إلا أنّ أطراف القتال كانوا من المسلمين.

والنتيجة التى نخرج بها من مطالعة الآية هى دلالتها على حكم جهاد أهل البغى بالمفهوم العام للبغى، وذلك ضـمن مسـلسل الخطوات والغايات التى طرحتها، فالاستدلال بهذه الآية على جهاد أهل البغى تام، كما هو تام على مبدأ الإصلاح بين المسلمين.

وانطلاقاً من ذلك كلّه، نعرف أنّ القرآن الكريم لم يؤسّـِس لأىّ صـراع فى الداخل الإسلامى، إلا إذا صدق عليه عنوان البغى بالشكل الـذى بيّناه، هادفاً من ذلك حمايـة الفريق المظلوم فى الأمّة، أىّ فريقٍ كان، ورغبةً منه فى قلع مادّة الانقسام والتمزّق والتمرّد والتعدى، وهـذا المبـدأ عقلانـىّ لاـ يتعـارض مع الأـصول السابقـة التى أصّـلها القرآن نفسه، بـل يمكن الجمع بينه وبينهـا فى مثل مبادئ الرحمة الإيمانيـة والألفـة القلبيـة؛ بأنّ آيـة البغى طلبت مقاتلة البغاة، لكنّها لم تطلب الغلظة والحقد والكره لهم، فيمكن أن يريد القرآن محاربة البغاة رأفـةً بهم ومحبّـة، كالطبيب المجبر- حبّاً بالمريض وإرادة خير بـه- أن يخضـعه لعمليـة جراحية، ولعلّ فى سيـرة الإمام على ۷ فى

حرب الجمل وأسلوبه الرحيم فی التعامل مع أهل البصرة، وكذلك فی بعض خطب الإمام الحسين ۷ فی كربلاء .. ما يؤكّد إحساس الرحمة مع هؤلاء الذين يواجههم رغم ما فعلوه به وبأهل بيته، وهذا أشبه شیء بكلام ابن حزم الأندلسی- بعد ذكره آية: (رحماء بينهم) عند حديثه عن حدّ القذف-: «وقد أمر مع ذلک بإقامة الحدّ على من أمرنا برحمته» (۱۰).

هذه خلاصة موجزة ومدخل متواضع لقراءة أبرز أصول العلاقات الإسلامية- الإسلامية فی القرآن الكريم.

۱- محمد خير هيكل، الجهاد والقتال فی السياسة الشرعية ۶۳: ۱.

۲- ناصر مكارم الشيرازی، الأمثل ۵۳۶: ۱۶.

۳- الآصفی، الجهاد: ۱۲۹.

۴- الطبرسی، مجمع البيان ۱۹۹ : ۹؛ والأمثل ۵۳۵ : ۱۶؛ والكاشانی، الأصفی ۱۱۸۲ : ۲ - ۱۱۹۳؛ والصافی ۵۰ : ۵، ۵۱۹ : ۶؛ مؤسسة الهادی، وتفسير مجاهد ۶۰۶: ۲.

۵- انظر: التبيان ۳۴۶: ۹؛ والراوندی، فقه القرآن ۳۷۲: ۱؛ والأمثل ۵۳۴: ۱۶- ۵۳۵.

۶- الطبرسی، مجمع البيان ۱۹۹: ۹؛ وجوامع الجامع ۴۰۳: ۳.

۷- راجع القصة وقريب منها فی: الزمخشری، الكشاف ۵۶۳: ۳؛ وتفسير مقاتل بن سليمان ۲۶۱: ۳؛ والمجموع ۱۹۶: ۱۹؛ وبحار الأنوار ۵۳ : ۲۲ - ۵۴؛ ومسند ابن حنبل ۱۵۷ : ۳؛ وصحيح البخاری ۱۶۶ : ۳؛ وصحيح مسلم ۱۸۳ : ۵؛ والسنن الكبرى ۱۷۲ : ۸؛ وتفسير السمرقندی ۳۰۹: ۳- ۳۱۰؛ وتفسير الثعلبی ۷۸: ۹؛ والواحدی، أسباب النزول: ۲۶۳؛ وتفسير البغوی ۲۱۳: ۴؛ والسيوطی، الدر المنثور ۹۰: ۶؛ وسبل الهدى والرشاد ۴۱۹: ۳؛ والسيرة الحلبية ۲۵۰: ۲ و ..

۸- الطباطبائی، الميزان ۳۲۰: ۱۸.

۹- الآصفی، الجهاد: ۱۲۸، الهامش.

۱۰- ابن حزم، المحلّى ۲۹۵: ۱۱، ۳۴۵.

ص: ۶۹

ص: ۷۰

ص: ٧١

ص: ٧٢

ص: ۷۳

ص: ۷۴

الوحدة، قواعد ومعالم

سعيد المهاجر

قبل أن استعرض عدداً من القواعد التی أنشئ علیها مبدأ الوحدة فی الإسلام، لکی انتقل بعدها إلی ذکر معالم مهمة من معالم أعظم شعیرة عبادیة إسلامیة توفرت علی البعدین المادی والمعنوی، ألا وهی فریضة الحج کمثال وحدوی عملی .. وفضیلة هذه الفریضة وعظمتها لم یختلف علیها اثنان من المؤمنین، لما تترکه من ثمار ومنافع فی حیاتنا الدینیة والدنیویة ولما أعد الله تعالی لمؤدیها الأداء الأوفی من الأجر الجزیل والثواب الکبیر ..

فقبل أن أقف عند قواعد الوحدة التی یحبها الله تعالی ورسوله الکریم ۹ والصالحون، وذکر المعالم، أذکر سطوراً عن عالم ما قبل البعثة، لأدخل مباشرة فیما أعدت السماء ورسولها المصطفی من أسس وأعمدة ومعالم لبناء وحدة الأمة المسلمة.

عالم ما قبل البعثة کان یتمثل فی أمة جاهلیة فرقتها الحروب ومزقتها النزاعات وشتتتها العصبیات القبلیة والعنصریة، وظلت سنین طویلة بین طغاة ومستضعفین، وبین ظالمین ومظلومین، وسادة وعبید .. تطیح بهم حروب وغارات وغزوات وثارات مدمرة أنتجت اختلافاً قاتلًا وتمزقاً مخیفاً ونزاعا دامیاً أربک وضعهم الاجتماعی بکل مفاصله ..

وفی عالم هکذا مظاهره وفی أمة هذه حیاتها وهذه مسیرتها، شاء الله سبحانه وتعالی أن یبعث محمد بن عبد الله ۹ رسولًا .. وسراجاً:

(یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِیراً* وَداعِیاً إِلَی اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِیراً) (۱)

ورحمة:

(وَما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ).

وجاءت بعثته نعمة ومنقذة أنعم الله بهما علی البشریة:

(وَاذْکُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَیْکُمْ إِذْ کُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَکُنْتُمْ عَلی شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْها کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللهُ لَکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ) (۲).

فتحولوا من أعداء متحاربین إلی إخوان متحابین، ومن قبائل متفرقین إلی صفوف متراصّین ضد أعدائهم:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْواناً) (۳).

وهنا تتجلی عبقریة الرسول ۹ فی إنقاذ هذه الأمة وتحویلها من أمة ممزقة إلی أمة موحدة تمهیداً لوحدة الإنسانیة عبر إرسائه لقواعد توحیدهم بعد هدایتهم ..

۱- الأحزاب: ۴۵- ۴۶.

۲- آل‌عمران: ۱۰۳.

۳- الفتح: ۲۹.

ص: ۷۵

إن رسالة الإسلام الخالدة التى جاء بها نبى الرحمة محمد ۹ كانت رسالة رحمة ونعمة وإنقاذ وهداية لا لأهل مكة وما حواها، ولا للأمة التى عاشت زمن الرسالة السماوية، بل جاءت لكل الأمم والشعوب وفى كل الأزمنة، وراحت تؤدى مهمتها هذه من خلال مسارين:

- تخليص الأمة من العبادة المنحرفة من الكفر والشرك المتمثلة فى عبادة الأصنام والأوثان .. هذه العبادة التى هى السبب فى فرقتهم وتشتتهم .. ونقلها نقلة كبرى إلى عبادة الواحد الأحد، عبادة الله تعالى دون غيره، عبادة التوحيد الخالصة .. لتكون أمة حرة عزيزة أبية عصيّة على أعدائها ..

- بذل الجهود الكبيرة لإنقاذها من كل مظاهر الفرقة والتشتت والاختلاف، ثم تقويتها لتقف شامخة عالية صامدة أمام ما يحاك ضدها من مؤامرات ومخططات سيئة، غايتها تقويض أركانها وأسس تماسكها للإطاحة بها ..

كل هذا انطلاقاً من قاعدة التخلية ثم التحلية، تخليتها من أسباب الانحراف والنزاع والتخاصم ثم تحليتها عبر بنائها البناء المتين على أسس ثابتة رصينة ..

وبما أن الوحدة هى الإطار الحامى للأمة، فقد راح رسول الله ۹ يرسى دعائم الوحدة، يرسيها على قواعد صلبة وأرض متينة .. وكان توحيد العبادة عبادة الله تعالى وحده هو الأساس الأول والهدف الذى يصبو إليه رسول الله ۹ كما غيره من الرسل والأنبياء الذين سبقوه .. والقاعدة هى التوحيد بمعناه الروحى والعقدى والفكرى، فالتوحيد أى توحيد الله كان الأساس الأول لبناء الوحدة فى الأمة والأمة الواحدة، فلا وحدة بدون توحيد ولا توحيد بدون توحد ووحدة، فإذا وحدت الأمة ربها توحدت واتحدت، وإذا كفرت وأشركت تفرقت واختلفت، فالأخوة صنو الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (۱)

والتفرق والاختلاف أخو الكفر:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ) (۲).

وهكذا نجد أن الإيمان والتوحيد أساس الوحدة، والكفر على عكس ذلك هوعلة الفرقة والتشتت بل هو هما .. إن الاعتصام بحبل الله وتوحيد الله كانا هما الأساس الذى أقام عليه رسول الله ۹ دعائم الوحدة، وكان الحجر الأساس لبناء هذه الوحدة هو ما دعا إليه ۹ الناس من الإذعان والخضوع لله موحدين لا مشركين ..

(وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) (۳).

(وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (۴).

فالناس كلهم أبناء آدم فهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، وهم من أصل واحد، ومن نفس واحدة هذا على مستوى الخلقة والنشأة.

وهم على مستوى العبادة يعبدون خالقهم الذى خلقهم وبارئهم الذى برأهم، وخلق كل ما حولهم وكل شيء دون أن يكون له شريك ومعين ..

إن سعادة الأمة ورفعتها لا تكون إلا عن طريق وحدتها والتئام شملها، كما أن شقاءها وتلاشى عظمتها وذهاب ريحها إنما ينشأ عن اختلاف الكلمة وتضارب الأفكار وتباين المقاصد، ومن أجل هذا أراد الرسول ۹ من المسلمين أن يقيموا وحدتهم الإسلامية على أساس يجعلهم متحدين متوافقين فى كل شيء: فى العقيدة والعبادة والاتجاه والمقصد واللغة والوطن والأخلاق والثقافة والزى والعادات والتقاليد والدفاع المشترك والتضامن والتكافل حتى تصبح الأمة يداً واحدة تحقيقًا لقول الرسول:

«المسلمون أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

ولم تكن الوحدة التى دعا إليها النبى ۹ مجرد شعار رفعه ليجمع حوله قبيلته أو قومه أو مجرد نظرية قومية لتحقيق طموحات شخصية،

بـل كانت عقيـدة آمن بها ودعا إليها وأرسـى مبادئها بكل الوسائل، وهنا تتجلى عبقريته ۹ فى بناء الوحـدة، وإذا أردنا اليوم بناء وحدة إسلامية وإنسانية فلابد من تلمس خطى النبى ۹ فى هذا الاتجاه.

لقد كان التوحيد وإرساء العقيدة الصـحيحة هما الأساس الذى أقام عليه النبى ۹ صرح الوحدة، فوحدة العقيدة هى الحجر الأساس لبناء الوحدة، وهنا كان أول ما دعا إليه النبى ۹ هى كلمة التوحيد التى يدخل بها الفرد إلى الإسلام ومجتمع المسلمين، فكانت الشهادة هى الرابطة الأولى لجميع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم «أشهد أن لا إله إلا الله» فالرب واحد والخالق واحد والمعبود واحد، والمبعوث لهم واحد

«أشهد أن محمداً رسول الله».

والرسالة واحدة

۱- الحجرات: ۱۰.

۲- آل‌عمران: ۱۰۰.

۳- النساء: ۳۶.

۴- المؤمنون: ۵۲.

ص: ۷۶

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ) (۱).

(وَأَنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ ذلِکُمْ وَصَّاکُمْ بِهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ) (۲).

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِیعاً) (۳).

فلا فرقة ولا تنازع ما دام هناک اعتصام بحبل الله ودین الله.

إذن، فلاـ تفرق ولاـ اختلاـف أو هکـذا ینبغی أو یجب أن یکون حـال الأمـة المسـلمة وهی تحمـل هـذه المبـادئ وتلک القیم والثروة العظیمة من المواقف التی تدعو لوحدتها وتماسکها ..

فکیف یتفرقون وکیف یتنازعون وکیف یتقاتلون؟

إن اختلاف الأمة وتفرقها وتناحرها إنما یکون عندما تخبو أنوار التوحید فی نفوس المسـلمین، وحینما یترکوا الفکرة الواحدة والعقیدة الواحدة ویرحلوا إلی أفکار متضاربة وطرق مختلفة فتفرق بهم ..

لهـذا إذا رأینا المسـلمین الیوم متفرقین وأشـتاتاً متباعدین فرّقتهم الأهواء والشـهوات والتعصب البغیض نتألم ویداخلنا الأسـی والأسف، لأن هـذه الفرقـة دلیل وهن العقیـدة فی النفوس وضـعف الإیمان فی القلوب، کیف لأمـة ربها واحـد وعقیدتها واحدة، وقبلتها واحدة، ونبیها واحد، أن تختلف؟!

ولم تکن الـدعوة إلی وحـدة العقیـدة هی فقـط ما دعا إلیه النبی ٩ فقـد بعث ٩ والعرب یعـتزون بعروبتهم إلی درجـة التعصب البغیض والتفـاخر بالأنساب والأصول، فحارب النبی ٩ هـذه العصبیة، وهذا التحزب؛ لأن التعصب من عوائق الوحدة وأرشد الناس إلی ضـرورة عدم السـخریة بالآخرین رجالًا ونساءً، ونهاهم عن اللمز والتنابز بالألقاب والظن والتجسـس والغیبة، ودعاهم إلی التعارف وکان القرآن هو العلاج الربانی لتلک الأمراض:

(یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسی أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسی أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِیمانِ وَمَنْ لَمْ یَتُبْ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

(یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِیمٌ).

(یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَأُنْثی وَجَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاکُمْ إِنَّ اللهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ) (۴).

وبـدأ الرسول بنفسه فی تطـبیق هـذه المبـادئ وتلـک الأحکـام، فصـاحب الفقراء وتودّد إلیهم وأمر بلالًا الحبشـی أن یؤذن فی النـاس ویدعوهم إلی الصـلاة، وقربه منه وولاه شؤون أموال الدولة، وعلی یده تجری الجوائز للوفود من کبار القوم، وأتی بزید بن حارثة أحد موالیه فضـرب به عصبیة قومه فی الصمیم إذ اختاره صهراً له، وزوّجه بابنة عمته زینب بنت جحش، ثم ولاه قیادة جیش کان فیه الکثیر من أکابر الصـحابة وأعلام العرب، ثم ولی ابنه أسامة بعده قیادة الجیش، وهو شاب لم یتجاوز العشـرین، وهکذا بمثل هذه الممارسات صهر النبی ٩ الجمیع فی بوتقة الإسلام ومحضن الإیمان.

ولم یکتف الرسول بهـذا، بـل عمـل علی غرس بـذور الحب المتبـادل فی قلوب المسـلمین وإحکـام روابـط الأـخوة العامـة فیما بینهم، ونهاهم عن کل ما من شأنه أن یولد الضغائن والعداء فی النفوس أو یدعو إلی التحاسد.

وجاءت الأحادیث تؤکد هذه المعانی فقال ٩:

«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا یبع بعضکم علی بیع بعض، وکونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم، لا یظلمه ولا یخذله ولا یحقره ولا یکذبه. حسب امرئ من الشر أن یحقر أخاه المسلم. کل المسلم علی المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

ویقول: «مثـل المؤمنین فی توادهم وتراحمهم وتعـاطفهم، کمثل الجسـد الواحـد إذا اشـتکی منه عضو تـداعی له سائر الجسـد بالحمی

والسهر».

ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ويقول: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذیء».

ويقول: «ألا أخبركم بشراركم؟

قالوا: بلى، قال: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العيب».

إن معنى الوحدة الذى أكدته آيات القرآن وأحاديث النبى ۹ ومارسه النبى ۹ فى حياته يبنى أمة واحدة متحدة على الفكرة الواحدة والشعيرة الواحدة والقبلة الواحدة والقيادة الواحدة، وحدة بناها على الأساس المتين الذى يجمع ولا يفرق، أساس التوحيد وإخلاص العبودية لله سبحانه وتعالى.

۱- آل‌عمران: ۱۹.

۲- الأنعام: ۱۵۳.

۳- آل‌عمران: ۱۰۳.

۴- الحجرات: ۱۳.

ص: ٧٧

إن هـذه الوحـدة لهى المخرج ممـا يعـانيه المسـلمون اليوم من هوان وذلـة، ومـا تفرق المسـلمون اليوم إلاـ من بعـد ما جاءتهم الأفكار الوضعية واتبعوا السبل وترك سبيل الله، فوجهوا سهامهم إلى صدور إخوانهم ونسوا وصية نبيهم فى حجة الوداع:

«لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ألـم يحـدث أن تقـاتلت دول إسـلامية سـنين طويلـة، واسـتنزفت قواهـا ودمرت ثرواتهـا وخربت اقتصادهـا؟ ألم يحـدث أن كـثيراً من المسـلمين يضـرب بعضـهم رقاب بعض؟ إن لم يكن بالسـلاح فبالكلمـة والطعن والغمز واللمز والغيبـة والنميمة والعصبية التى قال عنها النبى ٩:

«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

وقال عندما رأى بعض أتباعه يتحدثون عنها:

«دعوها فإنها منتنة».

إن كثيرين يدعون إلى العصبية إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال، وليس هذا من هدى الإسلام ومبادئه وقيمه ولا من تعاليم النبى ٩ وأخلاقه الذى أرسله الله رحمة للعالمين، وخلافاً لما دعا الله تعالى إليه من المحبة والتعارف والتآلف ..

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (١).

وإذا كان هذا بين شـعوب مسلمة وغير مسلمة فإنها بين المسلمين بعضهم بعضاً أوجب وآكد. إن التحديات التى تواجه المسلمين اليوم لتوجب عليهم وتفرض عليهم أن يتوحدوا، فالوحدة فريضة إسلامية ..

هـذا باختصار شديـد أهم الـدعائم أو القواعـد التى أقيمت عليها وحدة المسـلمين، لننتقل إلى مثل عملى رائع لها نعيشه فى حياتنا كما عشناه فى ماضينا ونعيشه فى مستقبلنا حتى يحكم الله تعالى وهو خير الحاكمين:

إنه فريضة الحج المباركة!

فقـد جاءت شـعائر الإسـلام لتؤكـد معنى الوحـدة، ففى الصـلاة يتعلم المسـلمون معنى الوحـدة ومعنى الجماعـة ومعنى الصف الواحد المتآلف المستوى، والاستقبال الواحـد لهـدف وحيـد حيث يتجه المسـلمون على مـدار اليوم والليلـة إلى قبلة واحدة، فالمسـلمون فى الشمال والجنوب والشرق والغرب كلهم يتجهون إلى الكعبة:

(.. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ..) (٢).

وهكـذا فى كل الواجبات العبادية وفى المسـتحبات وفى التوجه بالدعاء وفى دفن موتى المسـلمين وفى ذبائحهم .. إنه التوجه الخالص نحو القبلة، الكعبة المباركة.

ثم كان الحـج إلى بيت الله الحرام إلى المسـجد الحرام إلى حيث الكعبـة المباركـة الجامعة، ليتخذ المسـلمون منها ومن أم القرى مكة مكانـاً لأـداء عبـاداتهم ومناسـكهم ومواطن لـدعائهم ومناجـاتهم .. وغـدت سوقاً علمياً وتجارياً وميـداناً لعقـد مؤتمرهم سـنوياً للتفاهم والتشاور وتبادل الرأى، وكل ما من شأنه أن يحكم روابط الأخوة والوحدة بين المسلمين ..

وما الأذان بالحـج إلا دعوة صـريحة للوحدة والتآلف والتعاون (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ) (٣).

وشـرع لهم من مناسك الحج ما يجمعهم ولا يفرقهم ويجعلهم يتعارفون فى عدة أماكن: وهم يطوفون بالكعبة، وهم يسعون بين الصفا والمروة، وهم يتواجـدون فى عرفات، ثم المزدلفـة فمنى والجمرات، وفى أماكن أخرى للزيارة حيث أضـرحة الشـهداء والصالحين فى مكـة والمدينـة، وعلى رأسـها الضـريح الطاهر لرسول الله ٩ فى المدينـة المنورة وأضـرحة أئمـة أهـل البيت: فى البقيع .. وزيـارة الآثـار الإسـلامية الأخرى .. كلها تدعوهم وتدعو الأمة للوحدة والتآزر والتآلف .. وما توحيد الزى بين المسـلمين فى الحج، إلا وصـفة أخرى

تلغى المزايا وتشعر بعظمة الأمة وتمام وحدتها ..

حقاً إنها الفريضة العبادية الوحدوية المباركة الكبيرة، والتظاهرة الإيمانية الحاشدة والتجمع النادر الرائع المتوفر على أطياف وألوان يوحدهم الهتاف الواحد ويجمعهم المنسک الواحد ويحدوهم الأمل الواحد، وتأخذ بأيديهم الغاية الواحدة وهى الانقياد إلى الخالق الواحد والالتزام بأوامره والابتعاد عن نواهيه وتوحيدهم ضد أعدائهم وشياطين الإنس والجن ..

ولعل من أهم أهداف الشريعة ووظائفها الموكلة إليها من قبل السماء إزاء الساحة المسلمة هو إدخال الأمة عملياً فى تجربة التوحيد والوحدة، توحيد الله تعالى ووحدة الصف، لأهميتهما وخطورة التخلّف عنهما، فجاءت فريضة الحج تجربة عملية وميداناً تطبيقياً لهما، غير مكتفية بمجرد الدعوة إلى التوحيد والوحدة وإلى مجرد الحث عليهما، وفلسفة هذا الأمر، أن الشرک وبالذات الخفى منه يمكن أن يتسرب إلى النفوس فى أى وقت فتفترق الطرق وتضل القلوب ويقع المحذور فى الساحة بعد أن فقدت منبع توحيدها وقوتها وسلامة موقفها ..

۱- الحجرات: ۱۳.

۲- البقرة: ۱۴۴.

۳- الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۷۸

ولعل الآية المباركة: (وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (۱) تشير إلى مسألة الشرك الخفى (۲).

إذن دواعى الفرقة والاختلاف متوافرة وعلى الدوام فلا بد من استمرار مقاومة تلك الدواعى .. ومناسك الحج التى تتكرر سنوياً تعد أقوى عنصر مضاد وناف لأسباب ودواعى الابتعاد عن الدين وما يأتى تبعاً لذلك الابتعاد من فرقة وتشتت ..

فالمشاعر والمواقيت والمناسك كالطواف والسعى والإفاضتين تلغى أى مظهر من مظاهر الفرقة والتحزب المتأتية من فوارق الجنس واللون والمذهب والانتماء والمكانة السياسية والاجتماعية .. لتجعل منهم أناساً يعبدون الله تعالى ويخلصون فى عبادتهم وهم يقفون على صعيد واحد وهم على مستوى واحد، وتقف السماء منهم على مستوى واحد أيضاً، فلا تفرق بينهم فى عطائها وأجرها ورضاها ما داموا على مستوى واحد فى التقوى، وإن تمايزوا فيها تمايزت أجورهم وهم لا يظلمون.

ومن هنا نفهم مراد وهدف العديد من الروايات عن أهل البيت: التى جاءت تنص على عدم جواز تعطيل الكعبة عن الحج وتحث على وجوب إجبار الناس على الحج، ويحمل بعضها وعيداً لمن عطله:

عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحجال، عن حماد، عن أبى عبد الله ۷ قال: «كان على صلوات الله عليه يقول لولده: يا بنى! انظروا بيت ربكم فلا يخلون منكم فلا تناظروا».

وعنه، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن حنان بن سدير، عن أبيه قال: ذكرت لأبى جعفر ۷ البيت فقال: «لو عطلوه سنة واحدة لم يناظروا». وفى حديث آخر: لنزل عليهم العذاب.

وعن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن أبى المعزا، عن أبى بصير- يعنى المرادى-، عن أبى عبد الله ۷ قال: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة».

عن محمد بن على ما جيلويه، عن عمه محمد بن أبى القاسم، عن محمد بن على الهمدانى، عن على بن أبى حمزة، عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله ۷ يقول: «أما إنّ الناس لو تركوا حج هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا».

وعن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن ميمون، عن أبى عبد الله ۷ قال: «كان فى وصية أمير المؤمنين ۷ قال: لاتتركوا حج بيت ربكم فتهلكوا، وقال: من ترك الحج لحاجة من حوائج الدنيا لم تقض حتى ينظر إلى المحلقين».

محمد بن الحسين الرضى فى نهج البلاغة عن أمير المؤمنين ۷ فى وصيته للحسن والحسين:: «أُوصيكما بتقوى الله- إلى أن قال- والله الله فى بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا».

محمد بن على بن الحسين بن بابويه بأسانيده عن حفص بن البخترى وهشام بن سالم ومعاوية بن عمار وغيرهم، عن أبى عبد الله ۷ قال: «لو أنّ الناس تركوا الحج لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبى ۹ لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين» (۳).

وختاماً:

لا بد لى من أن أذكر بعض معالم التوحيد- وهى تتجلى فى جميع العبادات التى تعبدتنا السماء بها- فى فريضة الحج، التى تعد ركناً عبادياً مهماً من أركانِ الإسلام وهى ما يدور حولها كلامنا:

- وهذه المعالم أول ما تبدأ بالنية ويشترط فيها أن تكون خالصة لله عز وجل، وعندئذ تكون بعيدة عن الرياء والجاه انطلاقاً من الآية: (وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).

ومن قول رسول الله ۹ الذى أطلقه فى بداية مناسكه:

«اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة».

- الإحرام، وهو معلم توحيدى ظاهر للجميع، فالكل فى لباس واحد عبارة عن قطعتين إزار ورداء أبيضين لا غير، حتى لا يتميز غنيهم

ولا سیدهم ولا زعیمهم ولا عالمهم عن غیرهم، کلهم جمیعهم سواء، إنه مظهر عملی لتوحیدهم وإشعارهم بسواسیتهم ..

– التلبیهٔ، وهی کما قال النبی ۹:

«لَبَّیْکَ اللهُمَّ لَبَّیْکَ لَبَّیْکَ، لَا شَرِیکَ لَکَ لَبَّیْکَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَهَٔ لَکَ وَالْمُلْکَ، لَا شَرِیکَ لَکَ».

وقد جاء صریحاً فی حدیث جابر الأنصاری فی صفهٔ حج النبی ۹ أنه قال: «فأهلّ بالتوحید».

۱– یوسف: ۱۰۶.

۲– انظر: الشیخ جوادی آملی فی وجیزهٔ فی أسرار الحج: ۱۲۹.

۳– انظر کتاب وسائل الشیعهٔ، الحر العاملی رحمه الله تعالی ۲۰: ۱۱.

ص: ۷۹

وهذه التلبية النبوية فيها تحقيق التوحيد، حيث تجعل الله واحداً لا شريك له، بخلاف تلبية المشركين فى جاهليتهم حيث كانت تلبيتهم تتضمن الشرك بالله عز وجل إذ كانوا يقولون: «لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك».

- توحيد العبادة فى الحج، فقد أمرت الشريعة بالطواف بالبيت سبعة أشواط، انطلاقاً من قوله تعالى:

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

- ركعتا الطواف، فإنه يستحب للحاج أن يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة (قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ) وفى الثانية يقرأ سورة الإخلاص، لما تشتمل عليه هاتان السورتان من توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية، ففى السورة الأولى البراءة من دين المشركين وإفراد الله بالعبادة، وفى السورة الثانية إفراد الله بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص، وبذلك يعرف العبد ربه ويخلص له العبادة، ويتبرأ من عبادة ما سواه من خلال هذا الدرس العملى العظيم.

ومن المعالم التوحيدية: السعى بين جبلى الصفا والمروة سبعة أشواط ذهاباً وإياباً، وهى بحق مسيرة إيمانية واضحة:

(إِنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ) (۱).

ويسن للساعى أن يقول فى بداية كل شوط كلمة التوحيد:

«لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ..» ويقرأ الآية: (إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ ..).

«الحج عرفة» كما ورد، والوقوف فى عرفات هذا الوقوف المهيب وفيه أعظم الذكر الذى يقال فى يوم عرفة:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».

وقال رسول الله ٩:

«خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».

فى هذا المجمع العظيم وفى هذا اليوم المبارك، يأتى هذا الإعلان الصريح لتوحيد العبادة من خلال النطق بهذه الكلمة وتكرارها؛ لأجل أن يستشعر الحاج مدلولها ويعمل بمقتضاها فيؤدى أعمال حجه خالصة لله من جميع شوائب الشرك.

وهكذا الوقوف فى المشعرالحرام وفى منى طيلة أيامها وعبر مناسكها، وما شرعه الله فى يوم العيد وأيام التشريق من ذكره وحده، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (۲).

وذكر الله فى هذه الأيام يتجلى فى الأعمال العظيمة التى تؤدى فى أيام منى، من الحلق أو التقصير وذبح الهدى ورمى الجمار الثلاث وأداء الصلوات فى هذه الأيام المباركة ..

قال تعالى: (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ) (۳).

وقال تعالى: (وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (۴).

ومن هنا يتعلم المسلم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله؛ لأن الذبح عبادة وإتيان العبادة لغير الله يعدّ شركاً، ولهذا قال جل علاه:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ) (۵).

وكم يحمل هذا المشروع من بر للمحتاجين وإعانة للمستضعفين ومعروف موصول يسدى إليهم، وكم فى هذا العمل الواسع الضخم

من تأليف للقلوب، وتقريب للنفوس، وتطييب لها، قربت من الأماكن المقدسة أو بعدت عنها! ..

كل تلك من أصول ودعائم التوحيد الذى يستتبعه توحيد الطاقات والصفوف والمواقف، وكل هذه المعالم والمشاريع والأعمال التى تستتبعها الآثار الطيبة التى تتركها على الساحة المسلمة فى حاضرها ومستقبلها .. كلها جميعاً تعد مشاريع جميلة جليلة تثمر قلوباً زكية ترفض البغضاء والحقد .. ونفوساً أبية قادرة على البناء والتطور والتوحد ..

حقاً إن الحج جاء كما وصفته سيدة النساء الزهراء ٣ تشييداً للدين: «وجعل الحج تشييداً للدين ..» (۶).

۱– البقرة: ۱۵۸.

۲– البقرة: ۲۰۳.

۳– الحج: ۲۸.

۴– الحج: ۳۶– ۳۷.

۵– الکوثر: ۲.

۶– ابن طيفور: بلاغات النساء: ۲۸.

ص: ۸۰

حقاً إنها فريضة ربانية هادفة رائدة، مائدتها زاد دائم، وعطاؤها عطاء غير مجذوذ! ..

ص: ۸۱

شیء مما قرأته عن الحج

حسن الحاج

هذه مجموعة قراءات عن الحج وحدةً وتآلفاً وآمالًا وأنشطة وآراء وأقوالا مما وفقنی ربی لقراءتها وإعادة صیاغة بعضها أو تلخیصها لتکون أکثر مناسبةً وجمعاً ونفعاً، ونحن نطل علی ضیافة مبارکة فی أمکنة مبارکة وأیام معدودة، وعبر مناسک مقدسة تضمّها فریضة ربانیة دائمة یقوم فیها الناس بعبادة خالصة، عبادة ما أجملها وأعظمها وأطهرها! وقد ارتضتها السماء للناس وحددتها بمفاصل موقوتة .. إنها فریضة الحج تلک الرحلة المبارکة، والمناسبة المیمونة، والسیاحة المحمودة، والتجارة الرابحة .. حتی غدت ثمارها یانعة، فوائدها متعددة، برکاتها متنوعة، دروسها مفیدة، أسرارها بدیعة، آدابها عظیمة، أخلاقها قویمة، قیمها جمة .. یحسن بالحاج أن یقف علیها، ویجمل به أن یأخذ بها، لیکون حجه کاملًا مبروراً، وسعیه مقبولًا مشکوراً، ونافعاً فی إرساء دعائم الوحدة بینهم .. هذه طاقة مما قرأت:

وجیزة تأریخیة

فی قراءة تأریخ فریضة الحج یتبین لنا مدی الانحراف الذی أصاب سلوک الناس والافتراق والتنازع بینهم حینما انحرفت مسیرتهم عن المسیرة الحقة لمناسک الحج، والغایة التی کان الإسلام یهدف إلیها وهو یعید الناس إلی معرفة تلک المناسک وأدائها کما أرادها الله تعالی، والمتمثلة بوحدتهم ومنفعتهم وبقائهم .. وها نحن نشیر إلی شیء من ذلک الانحراف .. والعلاج الذی أمر به الإسلام لیعود بالفریضة إلی وضعها الطبیعی، لکی یؤدی الحج دوره السلیم فی تأثیره فی الناس تأثیراً إیجابیاً یترک بصماته فی حیاتهم بعیداً عن التجبر والتعالی عن الآخرین مهما کان وضعهم الاجتماعی .. وقد قرأت:

إن فریضة الحج تعود إلی عهد نبی الله إبراهیم الخلیل ۷، فهو أول من بنی البیت علی التحقیق، وأول من طاف به مع ولده إسماعیل ۸، وهما اللذان سألا ربهما سبحانه وتعالی أن یریهما أعمال الحج ومناسکه، قال تعالی:

(وَإِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَإِسْماعِیلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ* رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَیْنِ لَکَ وَمِنْ ذُرِّیَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَأَرِنا مَناسِکَنا وَتُبْ عَلَیْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ).

إذن تعبد الله تعالی ذریة إسماعیل بهذه المناسک وظلت باقیة فی العرب إلی عهد الإسلام الحنیف، غیر أن العرب لما نسوا التوحید وداخلهم الشرک، وتبع ذلک تحریف وتغییر فی أعمال هذه العبادة، شأنهم فی ذلک شأن الأمم إذا فسدت سری الفساد فی نواحی حیاتهم، ودب فی کل شیء منها وضلت عقائهم ..

ثم جاء الإسلام لیعیدهم إلی منابع هذه التشریعات ومقاصدها حتی تتحقق لهم منافعها ومنها وحدتهم، وما یستحقونه من الثواب الجزیل حیث قال:

(ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ) (۱).

(فَإِذا قَضَیْتُمْ مَناسِکَکُمْ فَاذْکُرُوا اللَّهَ کَذِکْرِکُمْ آباءَکُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِکْراً) (۲).

وکما تدل هاتان الآیتان دلالة واضحة علی أن هذه العبادة کانت موجودة قبل الإسلام، تدل أن قریشاً کانت تقف فی الحج موقفاً دون موقف سائر العرب الحجاج الذی یقفونه، وکانت تفیض من مکان غیر الذی یفیضون منه، وکل هذا کان ابتعاداً عن الأداء الصحیح للمناسک وتعالیاً علی الناس .. وبالتالی تفقد الشعیرة هدفها ویحل مکانه الفرقة والتشتت.

نعم، ما أن أقر الإسلام الحج، وتمکن من تطبیق مناسکه بعد سنة من فتح مکة (سنة ۸ هجریة) أی فی السنة التاسعة هجریة حتی أمر المسلمین بالعودة إلی أن یؤدوا مناسکهم بشکلها الصحیح وبالمساواة فی الموقف والإفاضة، فقال تعالی:

(ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ).

وحیث کانوا یجتمعون فی الحج بالموسم للفخر بالأحساب، وذکر شرف الآباء والأنساب، کانوا یذکرون أیامهم وأنسابهم تفاخراً بها .. فأمر الإسلام أتباعه أن یستبدلوا بذکر الآباء ذکر الله ذی الفضل والآلاء .. قال تعالی:

(فَاذْکُرُوا اللهَ کَذِکْرِکُمْ آباءَکُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِکْراً) (۳).

بواعث طیبة

وحتی یحقق الحج غایاته وأهمها توحید الصفوف المؤمنة وتآلفها .. وحتی یتم کل هذا وغیره من قیم الحج ومنافعه لا بد من الالتفات ثم الالتزام بما یبعث لتحقیق ذلک، ومن تلک البواعث التی قرأتها وأعجبت بها:

أولًا: أن یکون الحاج حریصاً علی اصطحاب الرفقة الطیبة التی تعینه علی الخیر إذا تذکر، وتذکره بالخیر إذا نسی، والتی یستفید من جراء صحبتها العلم النافع، والخلق الفاضل، وأن یرفق بهم، وأن یستشیرهم، وأن یحسن عشرته لهم .. وأن یقوم الإنسان علی خدمتهم بلا منَّة ولا تباطؤ،

۱- البقرة: ۱۹۹.

۲- البقرة: ۲۰۰.

۳- انظر أسباب النزول للواحدی: الآیتان.

ص: ۸۲

وأن يشكرهم إذا قاموا بالخدمة، وأن يتحمل ما يصدر من الرفقة من جفاء وغلظة ونحو ذلك، وأن يرى أن لأصحابه عليه حقاً، ولا يرى لنفسه عليهم حقاً؛ فذلك من كريم الخلال ومن حميد الخصال، ومما ترفع به الدرجات، وتحط به السيئات ..

وأن يبتعد الحاج عن مشاجرة الأصحاب، ومخاصمتهم، فإن حصل شيء من ذلك فليبادر إلى الاعتذار، وإذا تعذر الاجتماع فالأولى أن يفترقا؛ لتسلم القلوب، ويتمكن كل واحد منهما من أداء مناسكه دونما تشوش أو قلق، وبعد ذلك تهدأ العاصفة، ويحصل الائتلاف.

وأن يحرص الحاج على ملاطفة أصحابه، وإدخال السرور عليهم خصوصاً الضعفة والنساء ..

وأن يحرص الحاج على الالتزام بالمواعيد، وأن يتلطف بالاعتذار إن حصل خطأ أو تأخير، أو خلل، وأن يتحمل ما يصدر منهم من عتاب إذا هم عاتبوا، وأن يتقبل العذر من غيره إذا هم أخطؤوا بتأخر أو خلل، فذلك دليل سمو النفس، وبُعد الهمة، وحسن المعاشرة، فالعاقل اللبيب الكريم هو من يتحمل أذى الناس، ولا يحمّلهم أذاه .. وأن يلزم السكينة، ويستعمل الرفق معهم فقد ورد عن رسول الله ٩ أنه قال: «أيها الناس! عليكم بالسكينة».

وقال ٩ أيضاً: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

وعلى الحاج أن يحرص كل الحرص على راحة إخوانه الحجاج، وأن يبتعد عن كل ما فيه أذى لهم ويحذر أيضاً من أن يكون سبباً في أذاهم، كأن يرفع صوته، أو أن يزاحمهم، أو يضيّق عليهم، أو نحو ذلك.

ومما يجمل به أيضاً أن يحب لإخوانه الحجاج ما يحبه لنفسه، وأن يكره لهم ما يكرهه لنفسه، فيتحمل أذاهم، ويصبر على بعض ما يصدر منهم من زحام، أو تصرفات مقصودة أو غير مقصودة؛ فالإنسان الكريم يصبر على أذى ضيوفه حرصاً على إكرامهم، فكيف بضيوف ربه؟! إن إكرامهم أولى ثم أولى، وإنه لدليل على إجلال الله وتوقيره، وإنه لدليل على كمال العقل، ومتانة الدين؛ لأنه لا أحسن من درء الإساءة بالإحسان.

وأن يحفظ لسانه وذلك بتجنب فضول الكلام، وسيئه، والبعد عن الغيبة والنميمة، والسخرية بالناس، وبالحذر من كثرة المزاح أو الإسفاف فيه، وبصيانة اللسان من السب والشتم.

ومن ذلك أن يحذر الحاج من المماحكة، وكثرة المماكسة، وأن يحذر من المخاصمة والجدال إلا إذا كان جدالًا لإحقاق الحق، وإبطال الباطل بالتي هي أحسن.

وعليه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، كل ذلك حسب القدرة، والاستطاعة مع لزوم الرفق، واللين، والحكمة، والموعظة الحسنة، والرحمة بالمدعوين والتلطف بهم، والصبر على بعض ما يصدر منهم.

وإعانة الحجاج وذلك بقدر المستطاع، كأن يرشد ضالهم، ويعلّم جاهلهم، ونحو ذلك من الإعانات المتعددة.

والاستكثار من النفقة ليواسي المحتاجين، وليرفد إخوانه إذا احتاجوا، وليبادر إلى إعانتهم إذا شعر بأنهم في حاجة ولو لم يطلبوا.

ثانياً: استشعار عظمة الزمان والمكان؛ فذلك يبعث الحاج لأداء نسكه بخضوع لله، وإجلاله له تعالى:

(ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (١).

ثم إن ذلك يصبره على بعض ما يلقاه من نصب أو تعب أو أذى.

ثالثاً: على الحاج أن يغتنم وقته بما يقربه إلى الله تعالى من ذكر أو دعاء، وقراءة للقرآن، وذلك في أي مكان من تلك البقاع المباركة، فذلك سبب لمضاعفة أجره، ولانشراح صدره، وإمداده بالقوة والطاقة كفرد، وبالتالي تعم هذه الصفات الجماعة المؤمنة.

حسرات وأماني صادقة!

ها هي وفود الحجيج التوحيدية قد انطلقت .. وها هي جموع الحجيج الموحدة قد حزمت حقائبها، مهاجرة إلى الله تعالى في رحلة

قدسیة مبارکة .. أفواج تلو أفواج تنسل من بین الأهل والأحباب مولیةً وجهها شطر المسجد الحرام .. قد خلفوا الدنیا وراء ظهورهم، وانخلعوا عن زینتهم متهیئین للقاء الله تبارک وتعالی عبر ضیافة طیبة کریمة، ضیافة أکرم الأکرمین وأرحم الراحمین، إنهم ضیوف الرحمن!! وکلما طهرت هذه المجامیع، کلما اقتربت من مقاصد هذه الفریضة، وأولی مقاصدها هو توحید الصف الإسلامی والساحة الإسلامیة والأمة الإسلامیة ..

وها أنا ذا قرأت:

تحت شعار جلیل تنطق به جموع الموحدین، وقد راح یدوی فی فضاء ساحة الحج:

«لبیک اللهم لبیک» انطلقت القلوب محلقة فی سماء الطاعة، لتخفف من أثقال الدنیا .. وما أرق القلوب والأرواح حین تقتبس من أنوار الکعبة المشرفة قبسات وقبسات .. تنفعها وهی تشق طریقها نحو فضاءات الخیر والثبات والتعاون والتوحد والتآزر ..

۱- الحج: ۳۲.

ص: ۸۳

صديقى العزيز .. أراك تنظر إليهم كاسف البال حزيناً، وقد حرمت من رفقتهم فى أطهر رحلات العمر .. وكأنى بك تتوق شوقاً لأن تزور بيت الله الحرام، لتتزود من معانيه الكبيرة وأنت تتحرك هنا وهناك داعياً إلى الخير والعطاء .. راغباً فى الثواب والأجر .. ولكن أنّى لشاب مثلى ومثلك أن يملك الزاد والراحلة، وهو ما زال فى أوائل حياته يصارع الدنيا وتصارعه ..

نعم .. أشعر بك صديقى .. وأقرأ ما بداخلك من حسرة وألم .. أرى الحزن بادياً على قسمات وجهك .. وأسمع زفرات الأسى تتصاعد من جوفك ..

كم أشفق عليك .. وأكبر فيك حرصك على اغتنام فرص الخير، والتعرض لنفحات المولى عز وجل ..

فهل تريد حقاً أن تنال شرف الحج إلى بيت الله الحرام؟!

وهل ترجو أن تنال أجر الحجيج وأنت قاعد فى مكانك؟!

إن أردت ذلك فاسمع منى تلك البشرى .. إنها لأمثالك ممن حبسهم عذر ضيق ذات اليد، ومنعهم عدم الاستطاعة من رفقة الوافدين على الرحمن تبارك وتعالى.

لما رجع رسول الرحمة ۹ من غزوة تبوك قال لأصحابه:

«إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم حبسهم العذر» أى شاركوك فى الأجر! إنها النية الصادقة، والعزم المخلص الأكيد .. فلئن كان العذر قد حبسنا، ولئن كان فقدان الزاد والراحلة قد أقعدنا فإن صدق النية مع الله عز وجل هى زادنا وهى رأس مالنا الذى لا ـ ينضب ولا ـ يبور .. ولئن كان الحجيج قد امتطوا رواحلهم، وسافروا بأبدانهم .. فهلم صديقى نسابقهم فى تلك الرحلة النورانية بأرواحنا وهممنا وقلوبنا .. أوما علمت أن الطريق إلى الله تعالى تقطع بالقلوب لا بالأبدان؟!

صديقى ... لئن عجزت عن بلوغ البيت المطهر .. فلا ـ تنسى أن لله بين جنبيك بيتاً لو طهرته لأشرق ذلك البيت بنور ربه وانشرح .. ولئن حبست هذا العام عن الحج .. فارجع إلى جهاد نفسك لا يحبسنّك عنه الشيطان .. ولئن كان البيت الحرام بعيداً عنك .. فاقصد رب البيت الحرام .. فهو أقرب إليك من حبل الوريد .. وعش مع الحجيج بقلبك وروحك فى كل منسك من مناسك الحج.

فإذا أحرم الحجيج من الميقات .. فليحرم قلبك عن كل ما يغضب الله تعالى من حسد وحقد وغل ورياء، واخلع مع الحجيج ثياب الزور والغش والمعصية، وتحلّ بلباس التقوى وطاعة الرحمن (وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ).

وحين يطوف الحجيج بالبيت .. فليعرج قلبك وروحك لتطوف مع الملائكة الكرام حول البيت المعمور مستعلية على سفاسف الدنيا وحقارتها.

وحين يسعى الحجيج بين الصفا والمروة، لا يكفّ قلبك عن السعى على أمر الله تعالى، والقيام بحق عبوديته، متنقلًا من طاعة إلى طاعة ومن قربة إلى أخرى.

وحين يقف الحجيج على عرفات، رافعين أكف الضراعة إلى الله عز وجل، يصعد قلبك على أبواب السماء، ويخر ساجداً لله سجدة انكسار وفقر وتذلل، لا يرفع منها إلى يوم القيامة.

وحين يتزاحم الحجيج لرمى الجمرات .. يرمى قلبك كل ما علق به من وساوس الشيطان وهو أحبسه .. وتطرد روحك كل ما يطاردها من همزه ونفخه ونفثه.

صديقى الحبيب .. أراك الآن وقد تهلل وجهك، وانفرجت أساريرك .. وبرقت عيناك فرحة وسروراً، وكأنى بروحك قامت تسابق الحجيج فى أداء المناسك، وتزاحمهم فى كل مشعر من المشاعر .. كأنى بك هناك أتخيل شبحك بين الوافدين، أشعر بروحك تتجول فى الطرقات والميادين .. أتنسم عبير أنفاسك الطاهرة فى كل موقف من مواقف الزائرين.

نسأله تعالى أن يرزقنى وإياك حجة مبرورة إلى بيته الحرام، فلعلها ترفع الغل من قلوبنا، وتطهر نفوسنا، وتحسن أخلاقنا، وتجمعنا مع

إخوة لنا فی أجواء روحیة خالصة، وفی تظاهرة إیمانیة صادقة علی صعید واحد، تعطی صورة مشرقة لموقف موحد، وتحرک موحد، وشعار موحد، یکون مثلًا واعداً لوحدة أکبر بعیدة عن الفوارق الطبقیة واللونیة والإقلیمیة والعرقیة، کما هو حال الطائفین والقانتین والرکع السجود فی موسمنا المبارک هذا!

وثیقة أمن وسلام

الحج فریضة عبادیة، ووثیقة أمن، ومعاهدة سلام، تستفید الأمة منه، وتخرج منه بأکبر قدرٍ من الفوائد والمنافع التی تترک بصماتها القیمة علی مختلف نواحی حیاتنا، کما تنعکس آثارها ونتائجها علی سلوک وعلاقات الإنسان فرداً ومجتمعاً مع من حوله ..

ولعلّ من أبرز الأبعاد لفریضة الحج فی هذا الخصوص ما سجلته لکم من قراءة:

ص: ۸۴

إن علی کل مسلم یأتی حاجاً أو معتمراً إلی هـذه البقاع المقدسة أن یعظم حرمات الله وأن یعرف لهذه المشاعر حقها، فیخلص العبادة فیها لله وحده لا شریک له، وأن یعلم أنه بدخوله الدیار المقدسة إنما یدخل فی معاهدة سلام مع الوجود کله؛ لأن الله تعالی أمر عباده بـأن یکون حرمه أمنـاً، والمعنی أن من دخله کـان آمنـاً علی نفسه وعرضه ومـاله؛ ولیس هـذا فحسب، بـل إن الحیوان والنبات وما فی حکمهما له مکان فی هذه المعاهدة الأمنیة التی یؤکدها قوله تعالی:

(وَمَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً) (۱).

وهـذا فیه أکثر من بعد تربوی إنسانی یفرض علی الحاج والمعتمر أن یکون فی رحلته إلی هذه الدیار المقدسة عاقداً العزم علی تعظیم حرمات الله تعالی، وعدم إیذاء من فیها من الکائنات، وما فیها من المکونات ..

لقد جاء الوعید الشدید بالعذاب الألیم لمن یقترف الخروقات لأمن المقدسات، وما یترتب علی عمله هذا من أضـرار جسـیمة للسـلامة العامة، وهو ما جاء فی قوله تعالی:

(وَمَنْ یُرِدْ فِیهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ) (۲)

وبتحقق الأـمن والسـلام تخلق أرضـیة مناسـبة لتواد الحجـاج وتحـاببهم تمهیـداً لوحـدتهم، التی من أهم عناصـر انبثاقها، وبقائها الحب والصدق والأمن والسلام ..

حسن التعامل

الحـج عبادة تربویـة تعلیمیـة تـدخل الإنسان الحاج کشـخص وکأمـة. فی دورة أخلاقیة رائعة لیربیّ نفسه ویروضـها علی کیفیة التعامل الواعی مع إخوته المؤمنین، وأیضاً مع نظرائه فی الإنسانیـة، وقد صـنف الإمام علی ۷ الناس الذین نعیش معهم صـنفین حیث یقول: «.. فإنهم صنفان: إما أخ لک فی الدین أو نظیر لک فی الخلق» (۳).

وقد قرأت لکم:

فی أیـام الحـج بُعـد تربوی أخلاقی یفرض علی الحـاج والمعتمر والزائر أن یحسن التعامـل مع إخوانه، وبالتـالی مع من حوله ومع من یتعـایش معهم، وأن یتخلّق معهم بالأخلاق الحسـنة، وأن یحسن مصاحبتهم ومعایشـتهم، وأن یتحمل ما قـد یحصل منهم من أخطاء أو نحو ذلک، بأن یتعامل مع الموقف فی حـدود وضوابط الأخوة الإیمانیة التی جمعتهم جمیعاً فی هذه البقاع الطاهرة ضـیوفاً للرحمن فی حرم الله الآمن، یطلبون رحمته ویسألونه غفرانه ..

وبعد آخر وهو تربیة الحاج علی حب الخیر للجمیع انطلاقاً من مبدأ:

«أحب لأخیک ما تحب لنفسک واکره له ما تکره لها».

محبـة المسـلم لأخیه المسـلم هدف فیه ما فیه من السـعادة للأمة .. والعمل الدؤوب علی إتاحة الفرصة لآخرین من المسـلمین الذین لم یسبق أن تیسـرت لهم فرصـة أداء مناسک الحـج والعمرة والزیارة، والـذین هم فی شوقٍ شدید وحاجة ماسة إلی مساهمة إخوانهم فی تحقیق هذا الأمل الذی تنشده أنفسهم، وتهفوا إلیه أفئدتهم.

وهـذا فیه بعـد تربوی دینی اجتماعی یتمثل فی تحقیق انتماء الفرد المسـلم إلی مجتمعه الإسـلامی الذی یعیش فیه، ویتفاعل مع من فیه وما فیه، فیفرح لفرحهم ویتألم لألمهم، وینشط لمساعـدتهم فی بناء ما یصـبون إلیه من آمال .. حقاً تتجلی الأخوة الإیمانیة خصوصاً فی دائرة هـذه الفریضـة- فریضـة الحـج- عبر وسائل عدیدة، منها تربیة المسـلم نفسه علی حسن التعامل مع إخوانه الذین تربطه بهم رابطة الأخوة الإیمانیة المتمثلة فی قوله تعالی:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

الحج عبادة أمة

تتجدد فريضة الحج فی حياتنا الإسلامية حتی قيام الساعة، ومن قبل ذلك منذ أمر تعالی نبيه إبراهيم ۷ أن يؤذِّن فی الناس بالحج ..
وأمة الإسلام هی أمة الحج، فإذا كان الحج فرضاً علی المسلم المستطيع:
(مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) مرةً فی العمر، فإنه فريضةٌ سنويةٌ علی الأمة فی مجموعها العام، فهی أمةٌ تحج كل عام ..
وقد قرأت:

۱- آل‌عمران: ۹۷.

۲- الحج: ۲۵.

۳- انظر: نهج‌البلاغه، مما كتبه لمالك الأشتر.

ص: ۸۵

هو مؤتمر المسلمين الشعبى الأول، ولعله المؤتمر الشعبى العالمى الأوحد الذى يتكرر فى سنواتنا الأخيرة بنفس العدد وحجم التجمع- بعد تحديد أعداد الحجاج سنوياً- وفى كيفية اللقاء وقدسيته، وهو مؤتمر شعبى حقيقى حاشد، تُخرج فيه الشعوب سفراءها الحجيج ليتلاقوا ويجتمعوا ويتعارفوا ويتآخوا تمسكاً بالآية الكريمة: (وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) (۱).

وهو مؤتمر عالمى موسع، لا يقتصر على إقليم جغرافى دون إقليم، أو قارة دون قارة، يحضره سفراء الشعوب من كل قارات العالم ودوله، ويمتد التمثيل الشعبى فيه ما امتدت رقعة الإسلام فى كل بقاع الأرض، ولا يقتصر فى ذلك على العالم الإسلامى ودوله؛ إذ يلتقى فيه المسلم الأسترالى مع المسلم الأمريكى، وكذا المسلم الأوروبى مع المسلم الهندى والمسلم العربى .. فهو مؤتمر يتجاوز بطبيعته الآفاق السياسية؛ لأنه مؤتمر شعبى بقرار ربانى، ويتجاوز الحدود والفواصل الجغرافية، ويتجاوز كذلك الإطار الإقليمى للعالم الإسلامى.

فليس الحج عبادةً فرديةً يخرج فيها كل مسلم متجرداً إلى ربه يؤدى المناسك ثم يعود من حيث أتى، ولكنه عبادة جماعية واجتماعية كبرى، ومناسبة ضخمة للتجمع؛ من أجل هذا حدَّد له المولى- عزَّ وجل- أياماً وأوقاتاً معلومةً ومحددةً بكل دقة ليجتمع كل الحجيج فى لحظة واحدة فى صعيد واحد .. الأمر الذى يتحقق فى أجلِّ صورِه فى يوم الحج الأكبر عند الوقوف بعرفة؛ ولعل هذا الاجتماع الفريد المتجدد واحدٌ من تلك المنافع الكبرى للحج التى نكَّرها المولى- عز وجل- فى قوله تعالى: (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) (۲)، لتشمل كل منفعة كبرى تعود على الأمة وعلى الحجاج فرادى وجماعات.

معادلة جميلة بين التوحيد والوحدة

موسم الحج موسم حاشد، ومؤتمر جامع، ومناسبةٌ مركزة واعية لإعلان التوحيد، هو موسم التوحيد الخالص، شعاره الخالد «لبيك لا شريك لك»، موسم تلتقى فيه الأرض قاطبةً بالسماء على التوحيد عبر ممثليها المحتشدين بالمشاعر المقدسة وعبر ذويهم المعلَّقة قلوبهم بتلك المشاعر، وبإخوانهم الذين سبقوهم إليها، ما أروعه من موسم .. وما أجملها من أيام تلك التى تنطلق فيها الألسنة من كل حدب وصوب تعلن كلمة التوحيد، وترتبط فيها القلوب بإله واحد، وتتطلع فيها العيون إلى السماوات العلى، وترتفع فيها الأكفُّ إلى خالق السماوات والأرض؛ طلباً للرضا والقبول، ليكون مؤتمر التوحيد الحاشد فى مكة مركز الأرض، بينما تنطلق أشعة شمس التوحيد منها إلى دائرة محيطها ألا وهو محيط الأرض كلها ..!! لتتعلم من ذلك كيف تتوحد صفوفها، وتتفق كلمتها، وتتعاضد أيديها ..

وهذه قراءتى

ويجب أن يكون موسم التوحيد الخالص هذا موسم التوحد، محققاً لمعادلة قرآنية:

(إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).

لقد ربط الله تعالى بين وحدانيته وبين وحدة الأمة، فالأمة المسلمة أمة واحدة عمادها الأول توحيد الرب تعالى وإفراده بالعبادة، والأمة التى تجتمع على أسمى معنى تلتقى عليه الإنسانية، بل يلتقى عليه أقطاب الكون جميعاً .. من ملائكة وجن وإنس ودواب وشجر وحجر .. وهو معنى توحيد الله وإفراده بالعبادة:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (۳)

(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

هى أمة يجب أن توحدها عظمة الغاية وشرفها؛ امتثالًا لأمره تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا) (۴).

وأن تحقق معنى الأخوة الإنسانية الإسلامية تحقيقاً لقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (۵).

والوحـدة والأخوة الإسـلامية العالميـة تتجلى فى أبرز صورها وأعظم مظاهرها فى فريضـة الحج .. تتجلى بين الشـعوب فى شـعاب مكة والمدينة، ولو تآكلت أو بهتت صورتها على الصعيد السياسى والرسم.

فى موسم الحج نلمح معنىً من معانى قوله تعالى:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِی الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) (۶).

إن الألفة الإسلامية والرباط الإسلامى حقيقة حتمية خلقها المولى عز وجل الذى أمرُه بين الكاف والنون، حقيقة كونية ثابتة، مثلها مثل حقيقة الخلق والحياة والموت .. حقيقةٌ واقعةٌ لا تحتاج إلى قانون ولا إلى جهد بشـرى .. انظر إلى تآخى المسـلم مع المسـلم فى موسـم الحج، ثم انظر إلى السياسات العالمية، والأموال المتدفقة لفصم تلك العلاقة الحتمية الأبدية تجد نفسك تُردد قوله تعالى:

۱- الحجرات: ۱۳.

۲- الحج: ۲۸.

۳- الإسراء: ۴۴.

۴- آل‌عمران: ۱۰۳.

۵- الحجرات: ۱۰.

۶- الأنفال: ۶۳.

ص: ۸۶

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (۱).

هكذا ينبغى أن تكون

فى مناسك الحج ومواقفه حققت الأمة- وهى تؤدى تلك المناسك المباركة- وحدتها العاطفية ووحدتها العقائدية والأخلاقية وأخوّتها الإسلامية بفضل من الله عز وجل دون تعب منها ودون مشقة، فهل تستفيد الأمة من هذه النعمة الربانية الكبرى وتنطلق من هذه إلى وحدة أخرى ..؟

وقراءتى عن هذا:

هكذا ينبغى أن تكون الأمة أن تنطلق مما أنعم الله تعالى عليها من توحيد عقيدتها إلى أن تتوحد فى الأهداف العليا لحياتها وفى غاياتها الكبرى وإطارها العام؛ بحيث يؤمن الناظر إلى الأمة المسلمة على امتداد جغرافيتها واختلاف حدودها ولغاتها وألوانها .. أنه أمام أمة واحدة القصد والهدف والتوجه والمصير والمصلحة، لا يمكن ضرب وحدتها ولا تضاد مصالحها ولا اختلاف منهج التلقى الأول لديها ولا تحويل أصولها وثوابتها، ولا ضرب بعضها ببعض؛ لأنها تسير فى مسار واحد نحو هدف واحد وإن تعددت السبل وكثرت المنافذ واختلفت الوسائل والآليات ..

فهذا التعدد حاله حال النفرة إلى عرفة وهو نموذج رائع يعد هدفاً واحداً محدداً تتعدد له الأساليب وتكثر الطرق وتختلف الوسائل، فمن يأتى عرفات ماشياً ومن يأتيها راكباً، فالطرق إلى عرفة عديدة لكنها كلها تصب فى الموقف فى الهدف المراد ..

كما أن الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تحقق وحدة الدولة والكيان تحت راية واحدة قبل أن تحقق وحدة الهدف ووحدة المصير ووحدة الشعور ووحدة الاقتصاد ووحدة الشعوب ووحدة المصالح ..

وما سقوط الدولة الإسلامية وتفرق شعوبها إلا بعد أن فقدت هدفها وتآكل النفوذ الروحى الذى يجمع المسلمين، ويوم تحقق الأمة وحدتها الفكرية ورباطها الروحى القائم- بعد وحدة العقيدة والشعور- على وحدة المصالح والمصير، تستطيع أن تحقق بذلك عودة القوامة الفكرية والاجتماعية للأمة، وهى أهم وأعمق بكثير من الخلافة السياسية الرمزية التى ترمز فى النهاية إلى وحدة الكيان الإسلامى ..

وهو دور تستطيع أن تنجزه الأمة من خلال شعوبها وعلمائها وكوادرها الفاعلة فى مختلف المجالات وإن اختلفت أهواء الساسة ومشاربهم .. وليس هناك مناسبة أضخم من موسم الحج لتحقيق هذا الأمل، فالأمة باعتبارها الكيان المدنى الذى يقابل السلطة أو ما يعرف فى العصر الحديث بمصطلح مؤسسات المجتمع المدنى، هى وحدها المؤهلة للقيام بهذا الدور ..

جديد القراءة

إن الحديث عن العبادة وعن الشعائر والمناسك وما يتعلّق بها غدا حديثاً ناقصاً وقد يكون مملًا لدى الكثيرين ... لأنه حديث توقف أو كاد عند عتبة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، أو تحت مظلّة الشكليات التى تقيم هيكل العبادة دون أن تبثّ الروح فيها فهو غدا حديثاً بلا- روح ... ممّا أورث تصوراً خاطئاً عن العبادة يتلخص أنها- أى العبادة وما يتعلق بها- صارت أشبه ما يكون بالطقوس فى الأديان الاخرى ...

ومن هنا ينبغى إعادة قراءة هذه العبادات والشعائر، قراءة تستوحى معانيها الجميلة، وأهدافها التربوية، وأبعادها النفسية، ومفرداتها العملية، ووظيفتها التربوية والاجتماعية والسياسية والتنظيمية ... وأصبحت ضرورة يلح الواقع الإسلامى بل الإنسانى عليها ..

وقد قرأت لكم:

(وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا).

التعارف بشكله الواسع والمتصف بالديمومة سنوياً لم يكن ليقع لولا التزام المسلمين بهذه الشعائر، ولولا تلبيتهم لنداء السماء المبارك لأداء فريضة الحج؛ ذلك أنّ فى تعارف الشعوب الإسلامية وتبادلها الآراء وطرحها لمشاكلها ما يقرب شقّة الخلاف إن كان هناك خلاف، وإذا انعدم الخلاف، عمّ التفاهم، ووحدت الغايات، واتحدت المناهج.

إن النهوض بالشخصية المسلمة الواعية بما تتركه من آثار فى النفس الإنسانية، وبالمجتمع الإسلامى بما تمليه من قواعد تنظيمية وتكافلية وتضامنية، أمر مطلوب وملح ... فمعرفتها بالصورة المقنعة المتوازنة بين الطرح المتكرّر والمفرط لشكلياتها ... وبين الجانب الغائب ما وراء هذه الشكليات جدير بأن يعزّز المسير فى اتجاه الوعى الإسلامى النهضوى المتوازن والمتكامل.

ومما يؤكد هذه القراءة وضرورتها أنها تمثّل قراءة وفهماً لركن أساسى من أركان الإسلام، إذ إن الحج يعد ثورة موظّفة لمعنى يتجلّى من وراء تقنينها بالسلوكيات والشكليات والرمزيات ... ثورة ضد التقليد الذى يسير عليه الإنسان بجميع أشكاله ليعيش نمطاً جديداً من الحياة فى أيام، فحمل من إيحاءاتها ما يثقل وزنه فى سلوكه ووجدانه ...

فمثلًا عبر هذه الممارسة يتأكد عنده الرغبة الجادة فى فهم واع لمن حوله من أجناس البشر تمهيداً للتفاهم معهم فبناء أواصر المحبة والمودة كأسس لوحدة الكلمة والموقف، وكتعبير محسوس عن هذا الاندماج بغيره من إخوانه تخليه الواعى الممنهج عن اللباس والطيب وأسباب الزينة وملذّات الدنيا ...

۱– الأنفال: ۳۶.

ص: ۸۷

وليس رداءً وإزاراً أبيضين غير مخيطين يمثّلان الاستسلام لله طواعية، قبل الاستسلام له كراهية عند الموت في لباس شبيه ...

إقبال على الله بفتح صفحة جديدة من العمل محفوفة بالأمل الذى لا يلغى من حسبانه ساعة الموت، الذى هو صفحة جديدة أيضاً ولكن من حساب قديم ...

والمناسك التالية لهذه الخطوة تأكيد لها، وتسديد لمستقبلها المنشود فى حياة جديدة منتظمة قائمة على منهج الله، وتكرس فى نفس صاحبها روح الخير والبذل والعطاء من خلال ما يغدقه الحاج فى سبيل هذه الفريضة ومناسكها، وتعود على النظام والجدية والمسؤولية فى الحياة بالتزامه بنظام دقيق شامل لجميع شؤون الفرد لباساً وطعاماً وجسداً وزماناً ومكاناً ومجتمعاً ...، إنّها «حركة شمولية ذات أبعاد تربوية حقيقية، استعملت فيها أساليب الحسبة والتجريدية والممارسات التجريبية بكل ما تعنى من عمق فى قدرة الحج على التغيير بطريقة تخلو من كل السلبيات فى العملية التربوية على العموم ... فالحج فريضة متعددة الجوانب والاطر: إجتماعية، تربوية، سياسية، علمية، عقلية، وجدانية، بدنية، فنية ..».

إن الحج تدريب عملى للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التى جاء بها الإسلام، فقد أراد دين الله أن لا تكون تعاليمه ومبادؤه مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعبادته وشعائره ربطاً وثيقاً، حتى تكون سلوكاً تطبيقياً فى حياة المسلم وفى علاقته مع الآخرين .. يتضح ذلك من خلال كل أنشطة وفعاليات هذه الفريضة، بدءاً بالإحرام ونيته مروراً وانتهاءاً بالمناسك الأخرى ..

إذن، الحج ثورة على ما اعتاده الناس القادمون لأداء هذه الفريضة، كما أنه ترسيخ لقيم التواضع والمحبة والمساواة والتعاون، وهذه كلها أعمدة الوحدة بينهم باعتبارهم شريحة واسعة جمعتها هذه المواقف والمناسك، وبالتالى يسجلون لأنفسهم أنهم النموذج لتعاون أكبر وتآلف أوسع فى الإطار الإنسانى الأشمل ..

لمكة وللحج والحاج كلمة

وفى ختام هذه القراءات المنتقاة والمختصرة، أرى من الضرورى أن اختم هذه بقراءة أخيرة لمشهد الحج ومهامه وآفاقه المأمول تحققها أو على الأقل الإعلان عنها بشكل صريح وواضح ومسموع من قبل جميع من فى الأرض، خصوصاً ونحن فى عصر يكاد يكون العالم قرية واحدة بفضل وسائل الاتصالات التى دخلت كل بيت، بل ولا تترك شاردة ولا واردة إلا ووضعت يدها عليها صورة وصوتاً ..

دعوا مكة تقول كلمتها، ودعوا الحج يقول كلمته، ودعوا الحاج يقول كلمته ومن هو أكثر جدارة من مكة مكاناً، ومن الحج مناسك وأهدافاً، ومن الحاج نفسه الكادح من أجل الله تعالى وثوابه ومغفرته ورضوانه .. أن ينطق بكلمة؟! وهذه قراءتى الأخيرة أرجو أن أكون موفقاً فيها وفى قراءاتى التى خلت:

ومن أجدر من مكة أن تكون لها هذه الكلمة كل عام، وهى التى تحتضن أعظم وأقدم وأخلد مؤتمر سنوى عالمى، يتوافد إليه الناس من كل جنس وعرق ولون؛ رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، منذ أذَّن فيهم بالحج إليها أبو الأنبياء إبراهيم (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ) (۱).

ومن غيرها أولى وهى تضم (وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ) جعله الله حراماً ليكون للناس قياماً: (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۲).

وليكون لهم مثابة وأمناً (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً) (۳) يقيمون فيه مؤتمرهم السنوى، مخبتين إلى الله، متحدين تحت لواء أصلهم الإنسانى الواحد، متبرئين من كل ما يمكن أن يفرق بينهم من لون أو عرق أو لسان أو مال، أو لباس، أو رياش؟! ومن غير المسلم الحاج يملك خطاباً إنسانياً شاملًا، مرتكزاً إلى قيم ربانيةٍ تهفو إليه الفطر الإنسانية السليمة، لا يصدر عن شخصٍ مهما علت مكانته الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، ولا عن هيئة أو حزب أو سلطة مهما كانت صفتها محلية أو إقليمية أو دولية، إنما يصدر عن

مؤتمر شعبی عالمی عریق راسخ لا یخضع لشیء من مؤثرات الزمان والمکان؟ وهل یحتشد ملیونا مسلم کل عام فی مکة، یهرعون إلیها من کل أنحاء الأرض یتکبدون لها المشاق والمتاعب والنفقات، لمجرد أداء طقوس تخصهم، بمعزل عن القضایا الإنسانیة الکبری؟! أهکذا کان حج رسول‌الله ۹ یوم خطب الناس فحرم دماءهم وأموالهم، ووضع عنهم ربا الجاهلیة، وأوصاهم بالنساء خیراً، فتناولت خطبته أخطر جوانب حیاتهم التشریعیة والاقتصادیة والاجتماعیة؟ (۴)

ألیس فی تجاهل المشکلات التی تعانی منها البشریة- ما کان منها متعلقاً مباشرة بالمسلمین، وما لم یکن له بهم علاقة مباشرة- بعداً عن مقاصد الحج التی قدم الله تعالی فیها شهود المنافع علی ذکر اسمه: (لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَیَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیّامٍ مَعْلُوماتٍ) ونکوصاً عن أداء المهمة التی أناطها الله تعالی بالمسلمین، إذ جعلهم أمة وسطاً وأشهد علیهم الرسول ۹ لیکونوا بدورهم شهداء علی الناس: (وَکَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَیَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً) (۵).

ثم هل تضاءلت المعانی الکبیرة للحج، والمثل العلیا التی ینطوی علیها، والرموز السامیة الرفیعة التی یحفل بها، لتقتصر علی خبر عابر عن فریضة الحج وانعقادها لا- یحرک فی المشهد الدولی ساکناً، ولا یبلغ رسالة الإسلام جاهلًا، ولا یصحح من ضلالات الإعلام العالمی خطأً، ولا- یحقق للإسلام والمسلمین فی المحافل الدولیة حضوراً؟ وتتوالی مواسم الحج عاماً بعد عام، وتنفتح الثقافات الإنسانیة علی بعضها إثر ثورة الاتصالات العارمة التی أخذت تغمر العالم بالمعلومات، وتضعنا علی تماس مباشر مع جمیع الثقافات .. فیکبر السؤال: ألم یأنِ أن یکون لنا منبر نبلغ منه رسالتنا ونوضح قضیتنا، ونصحح المفاهیم المغلوطة عن دیننا؟ وهل غیر الحج ذی القیم الکثیرة والمبادئ العالیة والأهداف الکبیرة التی هی

۱- الحج: ۲۸.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- البقرة: ۱۲۵.

۴- انظر خطبة رسول الله ۹ فی السیرة النبویة ۲۵: ۴؛ حجة الوداع وفی غیرها من المصادر.

۵- البقرة: ۱۴۳.

ص: ۸۸

بمتناول العدید من الحجاج المفکرین والقادرین والناشطین، کما أنها متیسرة بشکل أو بآخر للکثیرین من المسلمین الحجاج وحسب مستویاتهم .. یصلح لأن یکون هذا المنبر؟ آن أوان تبلیغ رسالة الإسلام إلی العالم أجمع- من أسلم نفسه منه لله ومن لم یسلم- وأن ندوة الحج هی المنبر، وأن موضوعها السنوی المتخذ- بشیء من التطویر- هو الرسالة. لا شک أن تحقیق هذا الحلم الطموح تعترضه صعوبات جمة.

فالناس المخاطبون، تختلف ألسنتهم وألوانهم وأمزجتهم ودیاناتهم، ومستویاتهم العلمیة، واهتماماتهم الثقافیة، وخصائصهم البیئیة .. ولکن الداعیة المسلم الواعی نفسه وبمؤسساته العلمیة المتطورة والقدرات الواعدة یمتلک أکثر أنواع الخطاب قدرة علی النفاذ إلی قلوب جمیع الناس، واستنهاض فِطَرهم السلیمة، للقیام بسعی إنسانی مشترک من أجل إقامة العدل ورفع الظلم وتحریر الإنسان من ربقة شهواته وأثرته، انطلاقاً من الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر الذی أناطه الله تعالی بخیر أمة:

(کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) (۱).

وبهذا وبغیره نعرف أی منبر نرتقیه، وأی مناسبة نعیشها ونستقی منها معارفنا .. وأی جمهور نخاطب، وأی عدد یمکن أن نبلغه رسالة الحج بالبلاغ المباشر الحی عن طریق الفضائیات، وبالبلاغ المنقول فی الأثیر عبر أجهزة الإعلام المتنوعة مکتوبة ومرئیة ..

وعن طریق الحجاج العائدین وهم کثر إلی أوطانهم وأهالیهم أیضاً، فالحجاج قادرون علی أن یکونوا مبلغین ناجحین لرسالة الحج ولرسالة الإسلام لأسرهم وأبناء بلدتهم وقبائلهم «فرب مبلَّغ أوعی من سامع ..» وعلینا أن لا نستهین بأی جهد مهما صغر ..

ولعرفنا بعد ذلک أی تفریط بحق منبر الحج نرتکبه فی عدم توظیفه التوظیف الأمثل والأجدی .. وأی مسؤولیة نتحملها جراء تقصیرنا فی تبلیغ رسالة الله تعالی إلی الإنسانیة الظمأی إلیها، التی لم تکن فی یوم من الأیام أحوج إلیها من أیامها هذه التی تغرق فیها فی بحر الأنانیة المادیة الشهوانیة وضلالاتها، التی ابتعدت بها عن طریق الله تعالی، وأبطأت بها عن وتیرة الکدح الإنسانی المرسوم للإنسان فی سعیه للتحرر من الفساد وسفک الدماء

(یا أَیُّهَا الإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ) (۲).

ونتحملها کذلک کتماناً للشهادة التی ائتُمنا علیها

(وَمَنْ یَکْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) (۳).

ونتحملها صمتاً مطبقاً إزاء الحملات الإعلامیة المغرضة التی یشنها أعداء الإسلام علیه، یلبسون بها الحق بالباطل، ویستهدفون تشویه تعالیمه السمحة، وطمس حقائقه الناصعة:

(یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَیَأْبَی اللهُ إِلَّا أَنْ یُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ) (۴).

(کَأَنَّهُمْ بُنْیانٌ مَرْصُوصٌ) مظهر الحج نموذجاً!

إن الحجّ إذا ما أداه الحاج المؤمن کما هو مرسوم له من قبل السماء وکما هو الحج الإبراهیمی الصحیح، فلا نستغرب إذا ما استعنت بهذا التشبیه الرائع الوارد فی الآیة المبارکة: (کَأَنَّهُمْ بُنْیانٌ مَرْصُوصٌ).

فأقول: إنه یمکن أن یستفاد منه فی وصف المؤمنین وهم فی مواقف الحج وساحته بما یحملونه من قیم السماء بأن یکونوا کما هم فی میادین جهادهم لأعدائهم، وکما ینبغی أن یکونوا فی ساحات القتال بنیاناً مرصوصاً، بنیاناً متیناً بقیمه ومبادئه أن یکونوا- هکذا- صافین أنفسهم متضامنین متکافلین متماسکین محکمین فی أخلاقهم ومواقفهم وآرائهم وأهدافهم کأنهم قطعة واحدة فقط لا اثنتین أو أکثر، لا فرجة فیها تخترق، ولا ثغرة فیها تستغل من قبل الآخرین أو تعطی صورة سیئة لهذا المشهد، وهو یعیش معناه العبادی الواسع ..

إنه بنیان أخلاقی دقیق نظیف لأمناء منهج السماء فی الأرض ینأی هذا البنیان المبارک بنفسه عن عصبیات عدیدة عصبیة اللون وعصبیة الجنس وعصبیة القبیلة والعشیرة والنسب وعصبیة المال والجاه .. ویعد هذا حلقة من حلقات التربیة الصالحة السلیمة للحجاج،

وهم يمثلون أمتهم الأوسع والأكبر في كل موسم حـج، ففريضة الحج تجربتهم التي من خلالها يمارسون عملياً ذلك البنيان ويتدربون عليه، والحج كما نعلم دورة تدريبية لكل معاني الدين ومفاهيم الحياة ...

لعلي أكون موفقاً في اختياري واقتباسي عنواناً من الآية الكريمة الرابعة من سورة الصف- التي سميت السورة بالصف انطلاقاً من الآية المذكورة وتأكيداً على أهمية الصف المتماسك- لوصف ما هو مطلوب ويهدف إليه من قبل مناسك الحج ذات المظاهر الوحدوية العديدة، وهي ما أكثرها وأعظمها مظاهر الوحدة في موسم الحج وهي تتجلى في كل مواقيته ومناسكه وأنشطته ..

فإضافة إلى أن موسم الحج بحد ذاته أيامه رائعة جميلة وملتقى تعارفي جليل نافع فهو يبني هيبة له في النفوس، وجلالة له في القلوب، ويشكل مسيرة نادرة قلّ مثيلها بل انعدم، ويترك مظهراً رائعاً للحجيج وهم يقفون تلك المواقف المهيبة، وقد اتحدوا مكاناً وزماناً ولباساً .. وهم يتحركون جميعاً من ميقات إلى آخر، ومن منسك إلى آخر، ومن منزل إلى آخر، ومن أثر الى آخرفالمشاعر والمواضع كلها هدف لوحدة المشاعر وهدف

۱- البقرة: ۱۱۰.

۲- الانشقاق: ۶.

۳- البقرة: ۲۸۳.

۴- الصف: ۸.

ص: ۸۹

للتوحید. وقبل أن نستعرض ما فی هذا الموسم وهذه الفریضة مما یتیسر لنا من مظاهر وعوامل توحید الصف، لا بد من کلمة أضیفها إلی ما ذکرت:

إن مما لا ـ ریب فیه أن الاجتماع والاتفاق توحید للصف وسبیل إلی القوة والبقاء، وأن التفرق والاختلاف تمزیق للصف وطریق إلی الضعف والانهزام، ولا خلاف فی أنه ما ارتفعت أمة من الأمم وعلت رایتها إلا بتوحید صفوفها وتوحید جهودها والتعاون والتلاحم بین أفرادها ..

وهنا نحاول أن نلقی أضواء علی فریضة الحج، وهی – وکما نراها – خیر دلیل علی وحدة الصف المؤمن، الذی یظهر لنا وهو یؤدی مناسک الحج المتعددة وکأنه فعلًا بنیان مرصوص لا تجد فیه خللًا ولا شائبة ولا نقصاً، ما أروعه من کیان متماسک متین، وما أجله من جمع هائل تبارکه العقول، وتهابه النفوس، وتهتز له المشاعر والعواطف فخراً واعتزازاً ..

تعال معی أخی المؤمن! حتی نری ما یحمله الحج من معان جمیلة استحق معها أن یحتل المکانة الأکبر والمنزلة الأعظم دینیاً وأمنیاً واجتماعیاً وسیاسیاً واقتصادیاً ... لیؤسس رصانة فی المواقف، وثباتاً فی المبادئ، وعظمة فی المظاهر الموحدة ..

فالحج بدایة (نموذج) یعد مبدءاً عظیماً یدور حول إطاعة الله سبحانه وتعالی والرسول ۹ لأن هذه الطاعة هی أساس کل خیر للأمة، وبدایة کل خیر، وأول الخیر هو وحدتها .. والآیات القرآنیة والسنة النبویة الشریفة تدعو إلی تلک الطاعة، وتحذر هذه النصوص من الاختلاف والتنازع، لأن هذه الأمراض إن وقعت تنخر کیان الأمة وتجعله هشیماً متفتتاً، قال تعالی:

(وَأَطِیعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِیحُکُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِینَ) (۱).

وفی صحیح مسلم عن أبی مسعود رضی الله عنه أنه قال:

«کان رسول الله ۹ یمسح مناکبنا فی الصلاة، ویقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبکم».

والحج یشکل فی کل عام موسماً عبادیاً عظیماً، تتجسد فیه تلک الطاعة لله سبحانه وتعالی ورسوله ۹ عبادة وأخلاقاً وسیرة، وتنبثق بسببها وحدة المسلمین وقوتهم فی أحسن مظاهرها وأبهی حللها، حیث تذوب الفوارق، وتتلاشی الحواجز، ویجتمع المسلمون فی مشهد رائع أخاذ، یبعث علی السرور، ویسعد النفوس، ویبهج الأرواح والقلوب.

والحج کما صر ح القرآن الکریم، والأحادیث الشریفة، إلی جانب کونه عبادة وتقرباً إلی الله سبحانه، وإلی کون العبادة ظاهرة واضحة تحیط أجواءه وساحاته ومعالمه، فإنه لا یلغی ولا یقلّل ما یتضمنه من منافع اجتماعیة وفوائد ثقافیة، واقتصادیة، وسیاسیة، وتربویة، تساهم فی بناء المجتمع الإسلامی، وتزید فی وعیه وتوجیهه، وتساهم فی حل مشاکله، وتنشیط مسیرته .. بل علی العکس یوجدها وینمیها ویدعو إلیها ویحث علیه ..

والحج یذکرنا بمن سار علی تلک البطاح المبارکة من أنبیاء الله تعالی ورسله صلوات الله تعالی علیهم، ویذکرنا بعباده الصالحین وبالشهداء؛ ویتذکر الصحابة الغرّ المنتجبین رضی الله عنهم، وما لاقوه من البلاء فی سبیل نشر هذا الدین الحنیف. فیشعر کل منا بأنه امتداد لتلک السلسلة المبارکة، وذلک الرکب المیمون. ویتذکر أن هذا البیت الذی یطوف حوله، والمسعی الذی یسعی فیه، والمعالم الأخری ما کانت لتصل إلیه لولا إرادة الله عز وجل وجهود الأنبیاء والأئمة والشهداء والصالحین ..

والحج موسماً وفریضة هو ذلک النموذج الفذ، والذی یعد مظهر وحدة المسلمین وقوتهم، فهم یشهدون فی موسم الحج أروع مظاهر المساواة والتواضع والأخوة الإنسانیة، عبر إلغاء کل ما من شأنه التمیز والطبقیة والتعالی، وعبر خلع أسباب الظهور الاجتماعی کالأزیاء مثلًا ثم الظهور باللباس العبادی الموحد، حیث یحس الجمیع أنهم بلا فوارق وبالتالی یحسون بوحدتهم وبالأخوة والمساواة ..

والحج تظاهرة إیمانیة رائعة تشترک فیها صنوف متعددة من الأجناس والفئات والطبقات والقومیات علی موعد واحد، وفی أرض واحدة، یرددون هتافاً واحداً، ویمارسون شعاراً واحداً، ویتجهون لغایة واحدة، وهی الإعلان عن العبودیة والولاء لله وحده، والتحرر من

كل آثار الشـرك والجاهلية، بطريقة جماعية حركية، تؤثر فى النفس، وتشـبع المشاعر والأحاسـيس بالإيمان وآثاره، وبمداليل التوحيد وثمارها ..

والحـج يستشـعر فيه المسـلمون وحـدة البشـر ووحـدة الأرض، فتنهار بينهم الحـدود التى صـنعتها الأنانيات والأطماع الإقليميـة والقومية والعنصـرية .. فهم يـأتون من كل فـج عميق، من كل طريق بعيـد ومكان ناء، يقطعون آلاف الأميال، ويخترقون كل الحواجز والحـدود والبحار والمحيطات، ويجتازون كل الموانع التى صـنعها الأعـداء على أرض الله سـبحانه وتعالى، اسـتجابة لنـداء العقيدة، وتلبية لهتاف الإيمان، وتلبية لدعوة شيخ الأنبياء إبراهيم ٧ الحية الباقية الخالدة ..

والحـج يلتقى فيه المسـلمون بمؤتمرهم الكبير، فيتـذاكرون فى شؤونهم، ويتشـاورون فى أمور حيـاتهم وعقيـدتهم، ويتبادلون الخبرات والتجارب والآراء والعادات الحسـنة، ويتعرف بعضـهم على مشاكل بعض، ويطلع بعضهم على رأى بعض، ويتعرف بعضهم على أخبار بعضـهم الآـخر، فيزداد الـوعى، وتنمـو المعرفـة، وتشـحذ الهمم من أجـل الإصـلاح والتغيير والاهتمـام بشؤون الأمـة والعقيـدة، فتخطط المشاريع، ويفكر فى الأعمال، وتؤسـس المراكز الفكرية والسياسـية والاجتماعية والاقتصادية، ويسـتعين بعضـهم ببعض، وكأنهم جسد واحد، وروح واحدة، وكيان واحد ..

فللحـج إذن وقت محـدد، ومكان معين، ومناسك وإن تعـددت فهى واحدة، وزى موحد ونداء واحد، يجتمع فيه المسـلمون ليؤدوا فيه مناسكهم، وقد تحدث عن هذا القرآن الكريم:

۱- الأنفال: ۴۶.

ص: ۹۰

(أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِی الْحَجِّ) (۱).

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْیَ وَالْقَلائِدَ).

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

هكـذا إذن حـددت الآيات زمناً وعينت مكاناً لهذه الفريضة المباركة، وهما يشـكلان وغيرهما مظهراً مهماً من مظاهر الوحدة، فتوحيد الزمن والموضع من توحيد الهدف.

كمـا أن الكـل مطـالب بـأداء مناسك الحـج من أماكن محـددة بـدءاً بالإحرام من المواقيت المعروفـة من غير تجاوز، والطواف بالبيت المحـدد دون غيره، والسـعی بين الصـفا والمروة، والوقوف بعرفـة، ثم المزدلفـة والمبيت بمنی ليلتين أو ثلاثـاً لأـداء أعمالها من الـذبح والحلق أو التقصير ورمی الجمار ...

لا فقط إذن الظرف الزمنی محدد والظرف المكانی معين والمواقيت، بل حتی المناسك والأنشطة التی يكلف بها الحجاج هی الأخری محـددة، فكلهم يقومون بنفس الأعمال مما يجسـد ويعمق المساواة بينهم، تمهيـداً لبناء الأخوة والمحبة، ويجعل الوحدة بينهم متجددة فی كـل ساعـة وفی كـل مكـان وفی كـل عمـل يقومون به ويؤدونه، وتعيش معهم فی كل خطوة يخطونها وفی كل ساعـة يقضونها .. وبالتالی جميع هذا يعد دليلًا علی الترغيب الملح، والتشجيع فی توحيد الصفوف وتحقيق ما فی الوحدة من قوة وصلابة ..

الحـج- كما هو واضح من وظائفه ومهامه وأهدافه- يفسح المجال ويعطی الفرصة ويهيؤها للمسـلمين لمواساة بعضـهم بعضاً من خلال لقاءاتهم المتكررة، وتقارب آمالهم وآلامهم وهذا مقوم مهم لقوتهم ووحدتهم .. وهذا أيضاً من مظاهر هذه الفريضة المباركة.

الحـج يعـد موسـماً كبيراً واعيـاً رائـداً واعـداً لاجتمـاع العلماء والمفكرين والـدعاة إلی الله والمصـلحين، وهم أهل الـذكر والفكر وهم القـادرون علی التشاور بينهم، لأنهم الأجـدر فی البحث بشأن هموم الـدين ومشاكل الأمـة والعمل علی إيجاد حلول لها وجمع شـملها، والبحث فی الوسائل والأساليب المعينة علی ذلك ..

والحـج موسم لاجتمـاع الأغنياء بالفقراء، والعمل علی مواساتهم والتعرف علی آلامهم وحاجاتهم ثم التخفيف عنهم، مما يجسـد مبـدأ التضامن والتلاحم بين أفراد هذه الأمة المرحومة ...

الحج تواجد واعد فی تلك البقاع المباركة لأيام وإن كانت قليلة، ويعد اختباراً لآمال الأمة وإرادتها وبوتقة لأنشـطتها ولما يشغل بالها، حيث يتطلعون جميعاً إلی عهـد زاهر تتظافر فيه جهودهم، ليشـكلوا وحـدة شاملة، ترفعهم فوق الأمم، وتعيد لهم تلك الريادة والسـيادة التی ضاعت من أيديهم بسبب الفرقة والنزاع، ويتم الله تعالی وعده لهذه الأمة بالاستخلاف الموعود ..

والله غالب علی أمره، وهو يتولی الصالحين يقول سبحانه وتعالی فی محكم كتابه العزيز:

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِی لا يُشْرِكُونَ بِی شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) (۲).

انطلاقاً من بركات هذا البيت الأول والمعمور ومن هداه ومن خصائصه وآياته البينات الأخری:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدیً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ ومَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً).

والحج تتحقق فيه وحدة العبادة ووحدة الأخوة الإسلامية بكل معانيها ومظاهر هذا واضحة جلية: فالرب واحد، والقبلة واحدة، والمشاعر واحـدة، واللباس واحـد، والمناسك واحـدة، والزمان واحـد، والمكان واحد، كل شـیء يتسم بالوحدة ويؤشـر عليه. فكل هذه المظاهر تجتمع فی الحـج، وهی مـدعاة للإحساس بوحـدة الشـعور، وموجبـة للتآخی، والتعارف، والتعاون علی مصالـح الـدين والدنيا، كيف لا يكون كذلك والكعبة هی الجامعة وهی عنوان التوحيد، عنوان الدين، عنوان الإسـلام، وهی كما جاء فی صـحيح أبی بصـير، عن أبی عبد الله ٧ أنه قال:

«لا یزال الدین قائماً ما قامت الکعبة».

فالکعبة تمثل العنوان الخارجی للإسلام فما دامت الکعبة المشرفة قائمة یؤمها المسلمون فی جموع کبیرة فی حجهم، ویطوفون بها ویعظمونها ویتوجهون إلیها فی عبادتهم فالدین قائم.

کما أن الکعبة أول مظاهر الوحدة فهی إضافة إلی أنها قبلة المسلمین التی یتوجه إلیها فی کل یوم خمس مرات أکثر من ملیار مسلم، تلخص عنوان دعوة الرسل إلی توحید الله ووحدة المسلمین أی کلمة التوحید ووحدة الکلمة ووحدة الموقف، وحتی تظهر هذه المشابهة بین الکعبة المشرفة ودعوة الرسل هو أن الکعبة کانت ولا تزال أهم العوامل لقیام الناس فی توحید الله وتعظیمه وعبادته ..

ففی الحج یجتمع المسلمون من أقطار الأرض حول الکعبة، حول البیت العتیق، الذی یتجهون إلیه- کما قلنا- کل یوم خمس مرات، بل فی کل فرض ومستحب ودعاء، البیت الذی یقصدونه بقلوبهم وأفئدتهم من خلال صلواتهم وهم فی بلادهم الشاسعة البعیدة، هم الآن یجتمعون حوله ویری

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- النور: ۵۵.

ص: ۹۱

بعضـهم بعضـاً، يتصـافحون، ويتشـاورون، ويتحـابون، خلعوا تلك الملابس المختلفـة والمتباينـة من على أجسادهم، ووحـدوا لباسـهم، ليجتمع بياض الثياب مع بياض القلوب، فهو صفاء في صفاء، صفاء في ظواهرهم وصفاء في بواطنهم ..

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الفريضة فيها من المعاني الروحية التي لا تعطيها أو لا تتأتى لعبادة أخرى- وهي أيضاً من أسـمى مظاهر هذه الفريضة- وأن تقديس تلك الأماكن المعظمة والاهتمام بها والتواجد فيها والاستزادة من معانيها ومضامينها له الأثر البالغ في تربية الحجاج وتطهيرهم وتوعيتهم .. وعلى رأس تلك الأماكن الشـريفة، الكعبة المعظمة زادها الله شرفاً، فهي أول بيوت العبادة التي وضعها الله لعبادته:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ) (۱).

بعد أن بوأه الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم ٧:

(وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (۲).

والله تعالى هو ربه:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (۳).

وهو صاحب هذا البيت دون غيره، وهي أي الكعبة أصل الأرض، كما في رواية عن أهل البيت::

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا لَهُ رَبٌّ وَسُكَّانٌ يَسْكُنُونَهُ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّهُ لَا رَبَّ لَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ وَهُوَ الْحُرُّ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ قَبْلَ الْأَرْضِ ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِ فَدَحَاهَا مِنْ تَحْتِهِ».

«عَنْ أَبَانِ بْنِ عُثْمَانَ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ٧ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لِمَ سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقَ؟ قَالَ: هُوَ بَيْتٌ حُرٌّ عَتِيقٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَمْلِكْهُ أَحَدٌ».

وقد راحت الأحاديث المباركة تبين أهمية الكعبة المشرفة وأنها أحبّ البقاع إليه تعالى، وراحت تربط الناس بالكعبة وتشدهم إليها عن طريق بيـان مـا للإنسـان المرتبـط بها بأي نوع من الارتباط، سواء في الطواف أو في غيره من الثواب العظيم، وقوة دافعـة لثبات الموقف وتوحيـد الصـفوف. كمـا راحت هـذه الروايـات وغيرهـا عن أهـل البيت: تؤكـد بكـل وضوح أن الترابط بينهم وبينها وثيق، ولا يمكن الفصل بينهما.

عَنْ زُرَارَةَ، قَالَ: كُنْتُ قَاعِداً إِلَى جَنْبِ أَبِي جَعْفَرٍ ٧ وَهُوَ مُحْتَبٍ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا عِبَادَةٌ. فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَجِيلَةَ يُقَالُ لَهُ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ لِأَبِي جَعْفَرٍ ٧: إِنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْكَعْبَةَ تَسْجُدُ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي كُلِّ غَدَاةٍ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ٧: فَمَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ؟

فَقَالَ: صَدَقَ الْقَوْلُ مَا قَالَ كَعْبٌ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ٧: كَذَبْتَ وَكَذَبَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ مَعَكَ. وَغَضِبَ ٧.

قَالَ زُرَارَةُ: مَا رَأَيْتُهُ اسْتَقْبَلَ أَحَداً بِقَوْلِ كَذَبْتَ غَيْرَهُ.

قَالَ: مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بُقْعَةً فِي الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا، ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْكَعْبَةِ وَلَا أَكْرَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا لَهَا حَرَّمَ اللهُ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فِي كِتَابِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ لِلْحَجِّ شَوَّالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَشَهْرٌ مُفْرَدٌ لِلْعُمْرَةِ رَجَبٌ».

في الصحيح عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ٧ قَالَ:

«أَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَكَّةُ وَمَا تُرْبَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تُرْبَتِهَا وَلَا حَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ حَجَرِهَا وَلَا شَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ شَجَرِهَا وَلَا جِبَالٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جِبَالِهَا وَلَا مَاءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ مَائِهَا».

وفي النظر إليهـا جـاء في الصـحيح عَنْ حَرِيزٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ٧ قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْإِمَامِ عِبَادَةٌ». وَقَالَ: «مَنْ نَظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ».

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ٩ قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ حُبّاً لَهَا يَهْدِمُ الْخَطَايَا هَدْماً».

ورُوِيَ أَنَّ «النَّظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى الْمُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام عِبَادَةٌ».

وجاء في الصحيح عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ٧ قَالَ:

١- آل‌عمران: ٩٦.

٢- الحج: ٢٦.

٣- قريش: ٣- ۴.

ص: ۹۲

«إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعَالَى جعَلَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ عِشْرِينَ ومِائَةَ رَحْمَةٍ مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ».

وعن الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ عَنْ أَبِی عَبْدِاللهِ ٧ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ٧:

«إِذَا خَرَجْتُمْ حُجَّاجاً إِلَى بَيْتِ اللهِ فَأَكْثِرُوا النَّظَرَ إِلَى بَيْتِ اللهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ مِائَةً وَعِشْرِينَ رَحْمَةً عِنْدَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ».

وعَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ الْخَزَّازِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ ٧ قَالَ:

«إِنَّ لِلْكَعْبَةِ لَلَحْظَةً فِی كُلِّ يَوْمٍ يُغْفَرُ لِمَنْ طَافَ بِهَا أَوْ حَنَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا أَوْ حَبَسَهُ عَنْهَا عُذْرٌ».

وفی الترابط بينها وبين أهل البيت: ولما لهذا الترابط والصلة من جذب للناس نحوها من أهمية ووقع على النفوس وما يستحقه من الثواب جاء فی الخبر عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ ٧ قَالَ:

«مَنْ نَظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَعْرِفَةٍ فَعَرَفَ مِنْ حَقِّنَا وَحُرْمَتِنَا مِثْلَ الَّذِی عَرَفَ مِنْ حَقِّهَا وَحُرْمَتِهَا غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَكَفَاهُ هَمَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

هذا، وإن للحج أسراراً بديعة، وحكماً متنوعة، وبركاتٍ متعددة، ومنافع مشهودة، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الأمة، قال الله تبارك وتعالى فی محكم التنزيل: (وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) (١).

الحج ميدان فسيح يتدرب فيه الحاج عملياً على اكتساب الأخلاق الجميلة والآداب الحميدة على الحلم، والصبر، والمداراة، وكظم الغيظ من جراء ما يلقى من الزحام، والتعب، والنصب سواء فی الطريق إلى الحج، أو فی الطواف، أو فی السعی، أو فی رمی الجمار، أو غيرها من المناسك؛ فيتحمل الحاج ما يلقاه من ذلك؛ لعلمه بأن الحج أيام معدودة، ولخوفه من فساد حجه إذا هو أطلق لنفسه نوازع الشر، ولإدراكه بأن الحجاج ضيوف الرحمن؛ فإكرامهم، والصبر على ما يصدر من بعضهم دليل على إجلال الله عز وجل.

فإذا تحمل الحاج تلك المشاق فی أيام الحج صار ذلك دافعاً لأن يتخلق بالأخلاق الجميلة بقية عمره.

والحج يذكر أصحابه ومريده بالآخرة؛ فازدحام الناس وهم يموج بعضهم فی بعض، وهم فی صعيد واحد، وبلباس واحد، وقد حسروا عن رؤوسهم، وتجردوا من ثيابهم، ولبسوا الأردية والأزر، وتجردوا من ملذات الدنيا، ومتعها، تذكر يوم حشرهم على ربه؛ فيبعثهم ذلك إلى الاستعداد للآخرة، ويقودهم إلى استصغار متاع الحياة الدنيا، ويرفعهم عن الاستغراق فيها، ويكبر بِهِمتهم ويتركوا كل ما يدعو إلى السوء والبغضاء وحب الأنا .. فيقترب كل واحد منهم من محبة إخوانه الآخرين ويستغرق بعضهم فی مودة بعضهم الآخر ويتم الاطلاع على مشاكلهم وحاجياتهم، وهذا مدعاة لحب الوحدة وتقوية الصف المسلم والساحة المؤمنة ..

والحج يعد تجمعاً بشرياً ضخماً، يستقطب الملايين من المسلمين، من مختلف الأقطار والأمصار، فهو ينتج حركة بشرية هائلة، يتبعها تحرك اقتصادی ومالی ضخم، عن طريق النقل، والاستهلاك، وحمل البضائع وتبادل النقود، وشراء الأضاحی والحاجيات ومستلزمات الحج والإقامة والسفر والتنقل، فينتفع العديد من المسلمين بذلك، ويشهد مجتمعهم حركة اقتصادية وتجارية ومالية نشطة يكون هذا سبباً فی تعارفهم وتآلفهم وتعاونهم.

الحج مدرسة يتعلم فيها الحاج، يتعلم الكرم، والبذل، والإيثار، والبر، والرحمة، وذلك من خلال ما يراه من المواقف النبيلة الرائعة التی تجسد هذه المعانی؛ فهذا سخی يجود بالإنفاق على المساكين، وذاك كريم بخلقه يعفو عمن أساء إليه، وأخطأ فی حقه، وذاك رحيم يعطف على المساكين ويتلطف بهم، وذاك حليم يصبر على ما يلقاه من أذى، وذاك برّ بوالد ه يحمله على عاتقه، وذاك يحوط أمه العجوز بلطفه ورعايته.

بل ويكتسب الإنسان الحاج الأخلاق الجميلة عند رؤيته من لا يدركون معنى الحج، وهم الذين يغضبون لأدنى سبب، وتطيش أحلامهم عند أتفه الأمور، كيف يكون اكتسابه؟ بتجنبه ما هم عليه من خلق لا يليق بآداب وأخلاق هذا الموسم .. فإذا رأى العاقل

البصير سوء فعال هؤلاء انبعث إلى ترك الغضب، وتجافى عن مرذول الأخلاق، ونأى عمّا هم عليه.

إذن، الحج إعداد وتربية لسلوك الفرد ونوازعه بل هو إعداد وتربية لسلوك الجماعة ونوازعها، وبالتالى إعداد وتربية لسلوك الأمة ونوازعها، ففيه تتعود كل هذه المفاصل بدءاً بالفرد الحاج مروراً بالجماعة الحاجة فالأمة الحاجة، الصبر وتحمل المشاق وحسن الخلق بدءاً باللطف والتواضع واللين وحسن المحادثة مروراً بالكرم والتعاطف والتراحم، وانتهاءاً بالامتناع عن الكذب والغيبة والجدال والخصومة والتكبر وغير ذلك.

والحج دورة ميدانية يتعود الإنسان الحاج- فرداً كان أو جماعة أو أمة- الألفة والتعارف عن طريق السفر والاختلاط فتنمو لديه الروح الاجتماعية وتتهذب عنده الملكات الأخلاقية، كل هذا وهو يشارك فى كل الممارسات التربوية، ويساهم فى التفاعل البشرى الرائع، الذى يشهده فى الحج فى حضره وفى سفره، فى سكنه وإقامته وفى ترحاله وبأرقى درجات الالتزام والاستقامة السلوكية.

وقد تحدث الإمام جعفر الصادق ۷ عن منافع الحج وفوائده، بإجابته البليغة عن سؤال أحد أصحابه، وهو هشام بن الحكم، فقد سأله: ما العلة التى من أجلها كلف الله سبحانه وتعالى العباد بالحج والطواف بالبيت؟

۱- الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۹۳

فقال ۷: «إن الله خلق الخلق ... وأمرهم بما یکون من أمر الطاعة فی الدین، ومصلحتهم من أمر دنیاهم، فجعل فیه الاجتماع من الشرق والغرب لیتعارفوا ولینزع کل قوم من التجارات من بلد إلی بلد، ولینتفع بذلک المکاری والجمال، ولتعرف آثار رسول الله ۹ وتعرف أخباره ویذکر ولا ینسی» (۱).

وقول الإمام علی بن موسی الرضا ۷ یتطابق مع تعلیل الإمام الصادق ۷ وتحلیله لمنافع الحج وآثاره الاجتماعیة التی یجنیها الفرد والمجتمع حین قال: «إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلی الله عز وجل، وطلب الزیادة، والخروج من کل ما اقترف العبد، تائباً مما مضی، مستأنفاً لما یستقبل، مع ما فیه من إخراج الأموال، وتعب الأبدان، والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاخصاً فی الحر والبرد، ثابتاً علی ذلک دائماً، مع الخضوع والاستکانة والتذلل، مع ما فی ذلک لجمیع الخلق من المنافع، لجمیع من فی شرق الأرض وغربها، ومن فی البرّ والبحر ممن یحجّ وممن لم یحجّ، من بین تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وکاسب ومسکین ومکار وفقیر، وقضاء حوائج أهل الأطراف فی المواضع الممکن لهم الاجتماع فیه، مع ما فیه من التفقه، ونقل أخبار الأئمة: إلی کل صقع وناحیة، کما قال الله عزّ وجل: (فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ کُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِیَتَفَقَّهُوا فِی الدِّینِ وَلِیُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ)» (۲).

لقد شاء الله تعالی أن یکون الحج محراباً للعبادة ... ومدرسة للتربیة والتوجیه، وموسماً للمنفعة وتحقیق المصالح الاجتماعیة .. وساحة مبارکة لتوحید الصفوف المؤمنة والأمة المؤمنة، بما ذکرناه مما فهمناه وعرفناه وقرأناه عنه .. لتنال بذلک حب الله تعالی ورضاه، ولتحقق ما تصبو إلیه من خیر عمیم، وکرامة وعز لا یضام .. وهکذا هو الحج وهکذا هی مظاهره وهکذا هی معانیه ومفاهیمه وأبعاده وآثاره وعطاءاته ... (... وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَکْبَرُ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ) (۳).

إنه بحق خیر فریضة وأعظم میدان وأصدق ساحة تطبیقیة لمبدأ التعارف الجمیل الذی صدعت به الآیة الکریمة:

(یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَأُنْثی وَجَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) (۴).

۱- راجع: وسائل الشیعة.

۲- وسائل الشیعة ۷: ۸.

۳- التوبة: ۷۲.

۴- الحجرات: ۱۳.

ص: ٩٤

ص: ۹۵

الحج رحلة حضارية وحدوية طيبة!

محمد سليمان

إن الرحلة إلى البقاع المقدسة- مكة والمدينة- رحلة ذات آثار طيبة فى حياتنا سواء على المستوى الفردى أم الاجتماعى، ووحدة الأمة المسلمة وهى الأهم، وهو ما نجده فى كل ما حملته هذه المقالة من مميزات الرحلة للحج وفى الأبعاد والحكم .. ولهذا تعد من أشرف وأنفع الرحلات، التى يقوم بها الإنسان المؤمن منذ أن راح أذان سيدنا نبى الله إبراهيم ٧ يدوى فى الآفاق قبل أربعة آلاف سنة تقل قليلًا أو تزيد وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فهى رحلة الإجابة والتلبية و التزود بالتقوى فهى زاد الإنسان وهو يغادر بيته وأهله وأتباعه وما يملكه من سلطان ومال وعمل حيث فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ليؤدى خير الأعمال وأنبل الأنشطة وأعظم المناسك وأشرفها فى أطيب الأماكن وأقدس البقاع وأحبها على الله تعالى لهذا تعبد الناس بها لحكم قد ندرك شيئاً منها ويغيب الكثير الكثير منها، والله أعلم بالذى تحمله من حكم وأبعاد وصفات ..

إن الرحلات تتسم بالاستمرار لأنها حركة، والإنسان لا يكفّ عن الحركة؛ لأن التوقف عن الحركة يعنى التأخر أو توقف الحياة أو الموت.

فالإنسان ليس كتلة جامدة كالجبال والمدن، فله حركة تتم بشكل طبيعى لا إرادة له فيها (مواليد ووفيات)، أو تتم بشكل يخططه الإنسان بنفسه أى

ص: ۹۶

حركة إرادية تتمثل بسعيه الدؤوب فى مناكب الأرض والضرب فيها سواء أكان هذا الإنسان فرداً أم جماعة، أم أسرة أم كياناً، أم حزباً ودولة وأمة .. وهذه الحركة هى ما تعرف بالرحلة عند الجغرافيين من أجل الاستكشافات هنا وهناك فى المعمورة أو زيارة مقدس أو عزيز، أو طلب العلم، والرزق والتجارة، وللراحة والاستجمام، وأسبابها عديدة كما أن هذه الحركة التى سميتها رحلة قد تكون داخلية، بين مدن الدولة الواحدة، أوتكون خارجية لدول أخرى، وقد تكون هذه الرحلة فردية أو جماعية، وقد تكون دائمة أو مؤقتة، موسمية أو يومية، وأيضاً قد يكون الإنسان مجبراً عليها أو تتم باختياره وإرادته ..

ثم إن حركة المواليد والوفيات إذا كانت تعمل على توزيع السكان فإن الرحلات بأنواعها المختلفة تؤدى لإعادة هذا التوزيع. المهم أن الرحلات لها منافع كثيرة قد لا يمكن الإلمام بها .. ومن أفضل هذه الرحلات وأعظمها بركة وخيراً لدنيا الإنسان ولآخرته هى الرحلة التى أنعم الله تعالى بها على الناس والتى تتمثل فى الانطلاق نحو بيته المبارك والمواقف المشرفة عرفة والمزدلفة ومنى .. وحيث الأضرحة المباركة لرسول الرحمة محمد ٩ ولأهل بيته سلام الله عليهم، والصالحين من الصحابة والشهداء رضوان الله تعالى عليهم .. حقاً إنها رحلة مباركة طيبة لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ.

وإننا إنما اخترنا التسمية انطلاقاً من الرحلات العديدة التى قام بها العديد من العلماء الذين دوّنوا ما رأوه فى رحلاتهم عبر العالم، ومن ذلك رحلتهم إلى الديار المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونكتفى بذكر أسماء بعضها ... وقبل ذلك وقبل التعرض لبعض مميزاتها وحكمها وأبعادها المقترنة بها أو ذكرت لها .. هذا معناها فى اللغة:

الرحلة فى اللغة

الرحلة لغة: من رحل عن المكان رحلًا ورحيلًا وترحالًا، ورحلة: سار ومضى ... والرحلة بتشديد الراء وكسرها: الارتحال جمعها رحل بكسر الراء وفتح الحاء وفى التنزيل العزيز: رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ. والرحلة بضم الراء وتشديدها: ما يرتحل إليه، ويقال: الكعبة رحلة المسلمين، وأنتم رحلتى، وعالم رحلة: يرتحل إليه من الآفاق، كل هذا بضم الراء من رحلة، ...

والترحال والارتحال: انتقال أناس من مكان إلى مكان آخر ...

الأول: مميزات رحلة الحج

كما قلنا، إن الرحلة إلى الحج تفترق كثيراً عن باقى الرحلات الأخرى، لأنها رحلة عبادة بالمعنى الأوسع للعبادة، رحلة إلى الله سبحانه وتعالى أى للحصول على رضاه ورحمته ومغفرته وعفوه، لهذا حظيت رحلة الحج بمميزات كثيرة، فبماذا تمتاز رحلة الحج؟

الرحلة الأعظم: إن الحج مما لا شك فيه يعد رحلة من أعظم الرحلات بل وأنبلها وأشرفها، فهى رحلة ربانية تعد أساس قوام مصالح الناس فى الأرض بل فى الدنيا والآخرة جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ (۱)، ولا بد من الإشارة إلى موسمية العمرة فى شهرى رجب ورمضان المباركين- وإن جاز أداؤها فى باقى الأشهر- كحركة سكانية ربانية لا تقل فى أهميتها واتساعها عن الحج نفسه ..

الحركة الأصدق: ليس الحج حركة اعتباطية، بل هى حركة منتظمة تسجلها جموع كثيرة من أماكن هى الأخرى كثيرة، قريبة من مكة أى داخل بلد الحرمين مكة والمدينة أو بعيدة من أطراف مترامية من فجاج وطرق بعيدة، عبّر القرآن عنها: مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ تأتى إلى البقاع المقدسة يدفعها الشوق والود والصدق والإخلاص فى النوايا لأداء مناسك الحج والعمرة غير مبالية هذه النفوس بما تلاقيه من أتعاب وآلام وجوع وعطش خصوصاً فى تلك الأزمنة التى انعدمت فيها وسائل النقل المريحة المتوفرة فى زماننا هذا ..

حتى ورد أن أحدهم وهو محمد بن ياسين قال: قال لى شيخ فى الطواف: من أين أنت؟

فقلت: من خراسان، قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. قلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب فاكتهلت: قلت: والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة. فقال:

زر من هويت وإن شطت بك الدار

وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد عن زيارته

إن المحب لمن يهواه زوار (۲)

إذن، الدوافع والنوايا تلعب دوراً مهماً في هذه الرحلة، فتجعلها رحلة ربانية بحق وبها يمتاز الحج وأيضاً العمرة عن الرحلات والهجرات السكانية العادية الجغرافية في الدوافع .. فلا يوجد شيء يحرك الناس إلى الحج إلا الدوافع الدينية والروحية البحتة، فأشواق الروح وعامل الجذب الديني هو الذي يدفع بالمسلمين من كل بقاع المعمورة إلى البقاع المقدسة وهدفهم:

... وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ ...

۱- المائدة: ۹۷.

۲- انظر تفسير وبيان مفردات القرآن: ۳۳۵ إعداد الدكتور محمد حسن الحمصي.

ص: ۹۷

لَيسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۱).

إن صدق النية ونزاهتها من كل شائبة أو شرك فى هذه الرحلة العبادية فى أن تكون خالصة لوجه الله تعالى فى مناسك الحج سبب أدعى للقبول وأرجى للأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى القائل:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (۲).

و قال الرسول ٩:

«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ...».

القدوم المختلف: ويختلف القدوم إلى الحج عن الرحلات الأخرى بطبيعة الناس القادمين لأداء فريضة الحج من حيث العمر ومن حيث السلامة والصحة والقابليات ..، فهو حركة سكانية تمتاز بتقارب نسبة الذكور والإناث، لأن أفواج الحجيج لا تكون من الذكور وحدهم كما هو شأن حركات السكان غالباً بدافع العمل أو لأغراض معرفية أو سياسية واقتصادية وتجارية .. بل يشترك فى الحج الذكور والإناث معاً. كما أن التركيب العمرى للحاج لا يكون من الشباب وفئات السن المتوسطة القادرة على العمل والإنتاج كما هو شأن الرحلة العادية، بل تشمل حركة الحجاج الشباب والشيوخ والكهول، وبعض العجزة غير القادرين الذين يتمنون لو انتهت بهم رحلة الحياة فى الأراضى المقدسة، ويفدون على الله تعالى بلباس إحرامهم .. هذه هى أمنية عباد الله الصالحين، وكم استشهد على الطريق من الحجيج فى عصر كان الحاج يودعه أهله وفى حسابهم ألا يعود من هذه الرحلة.

فريضة العمر: واجب على كل مسلم يمتلك الاستطاعة من الزاد والراحلة أن يرتحل إلى مهبط الوحى ومواقع النبوة، ويعيش فترة من عمره فى إطارين محددين وهما الزمان والمكان كانا وعاء لحركة الإسلام الأولى، حيث بدأت الخطوات من غار حراء وامتدت حتى تبلغ الناس كافة. والمسلمون عموماً مطالبون بين وقت وآخر بالعودة إلى المنابع الأولى للمراجعة والتصويب، وللتأكد من صحة اتجاه المسير الذى هم عليه. إن وفود الحجيج السنوية وهى تأتى من شتى أنحاء العالم الإسلامى إلى موطن الدعوة الأولى، والعيش على الأرض التى بزغ فيها فجر الإسلام تتواصل مع الجذور التاريخية الممتدة للنبوة، وتتجاوز حواجز التاريخ والجغرافيا لتشرف على خط التوحيد، بدءاً من إبراهيم ٧ الذى أمره الله سبحانه ببناء البيت وتطهيره من الشرك والوثنية، ومناداة الناس إلى الحج.

الرحلة الأنفع: ولا يمنع الإسلام الحجاج من التجارة فى الحج والاستفادة من هذا التجمع البشرى لممارسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة؛ حيث يمكن للحجاج أن يمارسوا التجارة مع إخوانهم القادمين من شتى بقاع الأرض: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ

الممارسة التطبيقية: وهذا يعنى أن الإسلام فرض على المسلمين وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (۳). ممارسة هذه الرحلة عملياً ولو مرة واحدة فى العمر، ليطبق أحكام السفر الفقهية، ويمارس المسلم خلالها تجارب متعددة، ويعايش أصنافاً من البشر ويتعرف عليهم ويتعارف معهم فيصقل خبرته وتجاربه، ويكتسب علماً ومعرفة، وهو فى الطريق لأداء ركن الإسلام الخامس الحج إلى بيت الله الحرام.

والمتأمل فى إحصائيات الحجيج لا يجد قارة فى العالم إلا وقدم منها عدد من الحجاج من أقوام شتى، مهما بعدت المسافات أو طال زمن الرحلة، وغلت أثمانها وتكاليفها، فيتحقق الهدف الأسمى بين الناس ألا وهو التعارف بين الحضارات، وهو مصطلح قرآنى جميل لا الصراع بين الحضارات ولا الحوار بين الحضارات كما يعبر عنه، إنه التعارف بين الحضارات وما أجمله من مصطلح، وخير مصداق له وميدان له هو الحج ميدان عملى للتعارف بين المسلمين، يتعلم فيه المؤمنون كيف تكون الانطلاقة نحو التعرف على حضارة الآخر المختلف والتعارف معها .. انطلاقاً من الآية الكريمة:

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۴).

إن لهـذه الرحلـة المباركـة وهـذه الهجرة إلى الله تعالى أبعاداً ومقاصـد عديدة ثمينة ينبغى للإنسان المؤمن التعرف عليها، ووعيها وعياً نافعاً ليستثمرها فى حياته الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية .. ليخرج من الحج وقد ملئت روحه إيماناً وتقوى ومعرفة واطلاعاً ...

الثانى: الأبعاد

البعد التأريخى للحج

من المعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام سبق ظهور الإسلام بحوالى خمسة وعشرين قرناً، حين فرض على إبراهيم ۷ بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بإقامة قواعد البيت وتطهيره من رجس الأوثان، قال الله تعالى:

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (۵).

وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (۶).

۱- البقرة: ۱۹۸.

۲- البقرة: ۱۹۶.

۳- آل‌عمران: ۹۷.

۴- الحجرات: ۱۳.

۵- الحج: ۲۶.

۶- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۹۸

فجاءت فريضة الحج بعد إقامة البيت، قال الله تعالى مخاطباً نبيه إبراهيم ٧:

وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَعَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ (۱)

فراح الحنيفيون يتوارثون تلبيـة ذلـک النـداء، وأداء ذلک الفرض العظيم وبقى البيت طاهراً حتى جاء عمرو بن لحى الخزاعى، فـدنّس طهر البيت بالأوثان، ودخلت الشوائب على عقيـدة التوحيـد، ومع ذلک ظل العرب يؤدون الحـج، ويعظمون البيت برغم ما تسـرب إلى المناسک من مظاهر الوثنية؛ وأشرق فجر الإسلام ومکث النبى ٩ ثلاثة عشر عاماً يقرر التوحيد ويحارب الشرک فى العصر المکى ..

إنه حقاً تقرير واتباع لملة ابراهيم ٩ مِلَّةَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۲).

وواصل دعوته بعد هجرته ٩ إلى يثرب التى سماها «المدينة المنورة برسول الرحمة ٩ وبدينه السماوى الحنيف، ثم نصره الله تعالى على أعـدائه المشـركين، فتم فتـح مکة فى العام الثامن للهجرة، وأعيد التوحيد الخالص إلى رحاب البيت العتيق، ليبقى هذا البيت کما أراده إبراهيم- بل أرادته السماء- مبارکاً وهدى للعالمين، مثابة للناس وأمناً، ثم قبلة ومصلى .. وفى حجة الوداع يعلن النبى ٩ عالمية الإسلام فى عرفات عام ١٠ هجرية.

وها قد مضـى على الحج قرابة خمسة عشـر قرناً من عمر الإسـلام تضاف إلى عمر فريضة الحج فى بعدها الزمنى، لتشـکل عمراً مبارکاً مديـداً لها لا يقل عن أربعين قرناً، وفى طول هذه المدة قطعت الملايين من الحجاج الأرض من کل فج عميق إلى مکة المکرمة رجالًا ورکباناً على الإبل والخيل والسـفن والبواخر فالسـيارات و الطائرات، وبشتى الوسائل المتاحـة فى رحلة سـنوية موسـمية تحتضن فيها أم القرى أبناء الإسـلام فترة من أعمارهم، يستشعرون فيها عظمة العقيدة الإسلامية، وعالمية الدين الحنيف، ودفء الأخوة الإسلامية، وقيم التواضع والمسـاواة والبـذل والصبر والتطهر والوفـاء، والتزود من معـانى التطواف بأقـدس البقـاع وأحبهـا إليه تعالى .. يسألون الله تعالى رضاه ومغفرته، وهم يؤدون ما أمروا به من مناسک فى هـذه الرحلـة المفروضـة على المسـلمين مرة واحدة فى العمر فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ تخصـص من عمر کـل مؤمن مسـتطيع وَلِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْـتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا يقضـيها فى جوار ربه، متعبـداً بشعائر مبارکة فرضها عليه فى بيته المبارک ذى الآيات المبارکة وفيما حوله من مشاعر مبارکة أيضاً:

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَهُدیً لِلْعالَمِینَ* فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِیمَ وَمَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً ...

وهـدفهم الکبير يحدوهم: .. لِیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ وأيضاً لِیَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ ..

البعد الحضارى للحج:

فى ذلک المؤتمر العالمى الجامع بأرض المناسک، حيث يشـکل أروع مجتمع بشـرى من کل جنس ولون، يجمعهم التوحيـد فى وئام ومحبـة، ثم يفترقون وأعينهم تفيض من الـدمع بعـد أن تکونت علاقات اجتماعيـة واقتصاديـة وثقافيـة بينهم، تنبض بها شـرايين الأمـة، وتناقلتهـا دروب الحجيـج التى امتلأت عبر التاريخ، وکـان لهـا أثر لاـ يمکن إغفـاله فى حيـاة المسـلمين، وقـد اکتسـبوا منـافع معرفية وحضاريـة لاـ حصـر لهـا، يشـهد لهـا ما ترکه المسـلمون من تراث جغرافى وتاريخى وعمرانى فى ميادين المعرفـة، فنشأ سـجل معرفى أحدث مصاهرة بين البيئات والحضارات حتى برز العديد من الرحالة الذين أغنوا بما کتبوه المکتبات الثقافية وميادين المعرفة.

ففى الشرق من العالم الإسلامى برز من الرحالة الباحثين:

اليعقوبى، والمسعودى وناصر خسرو، وأبو إسحاق الحربى و ابن حوقل، وياقوت الحموى، والخوارزمى، والبيرونى، وابن خرداذبة وابن رستة ...

وفى الغرب: ابـن جـبير، وابن بطوطـة، والبکرى، والإدريسـى، والتجيبى، وابن رشـيد الأندلسـى، والمقريزى، والجزائرى، وأبـو القاسـم الزيانى.

وفی الجنوب: الهمدانی، وعرام بن الأصبع و الینبعی.

وفی الشمال: المقدسی عبدالغنی النابلسی، وابن فضلان.

هذا علی مستوی الرحلات وأما اللقاءات بین علماء الفقه والتفسیر والحدیث واللغهٔ والأدب والثقافهٔ فی أرض المناسک وعلی دروب الحج فلا ـ یستطیع أحد من الناس الإحاطهٔ بها، فقد تبودلت أفکار وآراء، وکتبت إجازات وبحوث ومؤلفات کانت تشکل ثقافات متنوعهٔ تهب علی کل دیار المسلمین فی عصر ما قبل ظهور الطباعهٔ.

إن الحج باب من أبواب ینفر إلیه کل عام طائفهٔ ممن یحمل هموم المسلمین تنقل صورهٔ الواقع الحقیقی للأمهٔ المسلمهٔ بالرؤیهٔ المباشرهٔ بعیداً عن صور الزیف والتضلیل الإعلامی والسیاسی. فعلی الرغم من تباین النظرهٔ السیاسیهٔ، والتفرق والتمزق خلف الحدود جعلت المسلمین شیعاً وأحزاباً، یؤکد لقاء الحج سنویاً أن العقیدهٔ أقوی من السیاسات، وأن ما یجمع المسلمین کشعوب أکثر من فلسفات الفرقهٔ التی تبتکرها أباطیل السیاسهٔ، وتلافیف متاهاتها المظلمهٔ.

۱- الحج: ۲۷.

۲- البقرهٔ: ۱۳۵.

ص: ۹۹

إن الحج رحلة باتجاه قراءة السيرة والتاريخ، وعودة للتزود من المنبع الأصلي، ومشاهدة لأرض النبوة، ورصد لحركة الدعوة عن قرب، واستعادة للتألق التاريخي لنقاط الارتكاز التي قام عليها المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية مما ينشط الذاكرة ويجددها، ويعيد الفاعلية للجوانب الضامرة من عاطفة الإنسان وفكره بعد رحلة زمنية بعيدة.

إننا نسمع اليوم عن مجموعات من المؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع والأديان، يحاولون التوغل في العمق التاريخي، ويستحضرون الظروف والملابسات التي رافقت الأحداث، وذلك لتخليص المسار الحضاري مما علق به؛ في محاولة للوصول إلى الحقيقة، وبعث الأمجاد، وشحذ الهمم من خلال العيش في نفس الظروف التاريخية. فهناك عدد من الرحالة الأوروبيين يحاولون السير على نفس الطريق الذي سارت عليه الحملات الصليبية، ويلبسون لباس تلك الفترة، كما نسمع عن آخرين يشدون الرحال لاقتفاء آثار المكتشفين الجغرافيين، وما ذلك إلا ليتوفر للفكرة التي يعيشها الإنسان الظروف التي نبتت وترعرعت فيها تلك الفكرة.

ولكن هذه العودة إلى الماضي وإن كانت ضرورية فيجب أن تقدر بقدرها؛ فإذا كان التشبث بالتاريخ واللجوء إليه للوقوف أمام العواصف التي تحاول اقتلاع الجذور ضرورياً، فلا يعني ذلك الغياب في الماضي على حساب الحاضر والمستقبل، لأن تلك الغيبوبة تصبح موتاً مع وقف الدفن وإساءة للماضي نفسه، وحكم عليه بالعجز وعدم الصلاحية لإفادة الحاضر وتشكيل المستقبل، وتلك هي الأزمة المستعصية التي وقع فيها أولئك الذين أسقطوا الحاضر والمستقبل، فانسحبوا من الساحة نهائياً يعيشون على ذكريات الماضي وأمجاده وانتصاراته، مع إصرار شديد على تأكيد الوجود التاريخي من الحضور المعاصر.

إن المسلم عندما يتهيأ لأداء فريضة الحج ينبغي أن يعرف أن أول الحج الفهم- فهم موقع الحج من الدين- ودراسة أعمال الحج ودراسة أسرارها ورموزها حتى يشعر بالشوق والعزم وإزالة الموانع واتخاذ أسباب السفر. والمتأمل في أعمال الحج يشعر بالحكم العظيمة فيه ..

قال ابن دقيق العيد في شأن أعمال الحج وأسراره: «وفي ذلك من الحكم تذكر الوقائع الماضية للسلف الكرام، وفي تذكرها مصالح دينية، إذ يتبين في أثناء كثير منها ما كانوا عليه من امتثال أمر الله تعالى، والمبادرة إليه، وبذل النفس في ذلك، وبهذه النكتة يظهر لك أن كثيراً من الأعمال التي وقعت في الحج، ويقال فيها: إنها تعبدية فقط ليست كما قيل، ألا ترى أنا إذا فعلناها وتذكرنا أسبابها حصل لنا من ذلك تذكر الأولين، وما كانوا عليه من احتمال المشاق في امتثال أمر الله فكان هذا التذكر بامتثالنا على مثل ذلك، ومقرر في أنفسنا تعظيم الأولين، وذلك معنى معقول، مثاله:

السعي بين الصفا والمروة، إذا فعلناه وتذكرنا أن سببه قصة هاجر مع ابنها، وترك الخليل لهما في ذلك المكان الموحش، منفردين منقطعي أسباب الحياة بالكلية، مع ما أظهره الله تعالى لهما من الكرامة، والآية في إخراج الماء لهما، كان في ذلك مصالح عظيمة، أي في التذكر لتلك الحال،

وكذلك رمي الجمار إذا فعلناه وتذكرنا أن سببه رمي إبليس بالجمار في هذه المواضع عند إرادة الخليل ذبح ولده، يحصل من ذلك مصالح عظيمة في النفع في الدين» (۱).

البعد الوحدوي لرحلة الحج

قلنا: إن البعد الوحدوي نجده في كل أبعاد هذه الرحلة ومميزاتها وهي تصوغ الإنسان المؤمن روحياً وسلوكياً وأخلاقياً، فتجعل منه قاعدة لوحدة مجتمعه ثم أمته، ومع هذا جعلت هذه المقالة هذا البعد بعداً مستقلًا لفائدته ولتوضيحه بمقطع مختصر:

إن اجتماع الحجيج من أرجاء المعمورة وهم يهللون بالتوحيد، تجمعهم عقيدة واحدة وشريعة واحدة، أضاف الحج إليهم رابطة ثالثة حسية ملموسة هي وحدة الأرض والوطن أرض الوحي والموطن لأمة الإسلام قاطبة، فالمسلمون مهما تباعدت أقطارهم وتباينت ألسنتهم وألوانهم هم أمة واحدة تجمعهم رابطة الدين والعقيدة، وهم الأمة الوسط في موقعها الجغرافي وفي بعدها الروحي والديني،

وهذه الوحدة كافية للتغلب على تلك الفوارق السطحية بين شعوب المسلمين فى ألسنتها وألوانها وعاداتها لتجعل من المسلمين أمة واحدة تتجانس مناهجها وخططها وطرق تفكيرها، لتكون الأمة الأقوى والأرغد عيشاً والأتم عزة ومنعة، قال الله تعالى:

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٢).

ففى الحج يكتسح المسلم فرديته الضيقة ينتقل إلى رحاب الإسلام التى تغطى الكرة الأرضية، مستشعراً الأخوة الإسلامية وهى تجمع الكل فى أسرة واحدة وبيت واحد ومجتمع واحد يشد بعضه بعضاً، ويتيقن الحاج أن الحج هو الخطوة الأولى لبناء الوحدة الإسلامية على أساس الدين والعقيدة متجاوزين الحدود الجغرافية والقومية والإقليمية، والذى ينظر من أعلى إلى صعيد عرفات إلى تلك الجموع الهادرة تعلن التوحيد والتلبية والتكبير، لا يتخيل للحظة واحدة أن مثل هذه الأمة قد تهزم وتضعف وتذل وتكون تابعاً لغيرها من الأمم.

فالحج أرغم كل مسلم فى الأرض على التفكير فى قوة أمته ووحدتها وخيراتها وقدراتها قال الله تعالى:

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ (٣).

البعد الفردى لرحلة الحج:

إن الحج له آثاره القيمة على الفرد المسلم، وهو ما نذكره هنا وفى الفقرة الآتية فقرة حكم الحج، الإصلاح الفردى:

١- حامد بن محمد العبادى، من حكم الشريعة وأسرارها: ١٧٠- ١٧١.

٢- الأنبياء: ٩٢.

٣- الحج: ٢٨.

ص: ۱۰۰

إن الحج رحلة باتجاه الماضى على مستوى النفس للقيام بالمراجعة والمحاسبة، واستعراض الأخطاء وجوانب التقصير حيث يتاح للسلوك والعقل والفكر التوبة من المعاصى، وقطع العهد عن البيت العتيق ليولد المسلم من جديد، ويدع الماضى بكل ما فيه ويتجه إلى المستقبل نقياً من الذنوب، قال ٩:

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». حتى قيل بهذا الخصوص: «إن الطواف بعكس عقارب الساعة لعله اتجاه إلى الماضى لمحو الآثار وتعفيتها، وطمس معالم الذنوب السابقة فى النفس البشرية. إن الحج رحلة باتجاه الماضى على مستوى النفس ومحاسبتها ..

إن المسلم الذى يدرك الحج بأنه طاعة وامتثال لله وفهم لهذه الحكم إنما يدفعه الشوق والعزم لأداء هذه الفريضة لثقته المسبقة بأن أول مكاسبه هو التطهر من ذنوبه السالفة وسيرجع من رحلته إلى الحج وكأنه ولد من جديد،

قال ٩: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» «والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة».

يرجع المسلم بعد الحج بعيداً عن موبقات الرجس وهواجس الإثم، وتقوم نفسه اللوامة بإحصاء سيئاته والتوجه مباشرة إلى الله عز وجل بطلب المغفرة والعفو؛ وذلك لأنه فى موسم الحج وصل بيت الله تائباً، وكلما وصل مشعراً من مشاعر الحج دب دبيب إيمانه، فصدع بالتلبية والتكبير وصمم بنفسه على التوبة النصوح والعهد القاطع ألا يعود إلى المعصية.

موقف عرفة وازدحام الناس فيه أعظم مشاهد الحج ومناسكه، ففى ذلك الموقف بازدحام الخلق فيه، وارتفاع أصواتهم، واختلاف لغاتهم مع اتحاد لباسهم وزيهم، يتذكر المسلم عرصات القيامة ووقوف الأمم مع أنبيائهم، واتباع كل أمة نبيها، طامعين فى شفاعتهم، متحيرين بين الرد والقبول، أمم متعددة الألوان والألسنة جاؤوا من كل فج عميق، يبتهلون إلى الله عز وجل شعثاً غبراً، تجردت قلوبهم وأجسامهم من زينة الدنيا، وامتدت أعناقهم وأيديهم، وشخصت أبصارهم إلى خالقهم العظيم سبحانه الذى تجلى عليهم فى ذلك الموقف، يباهى بهم ملائكته ويشهدهم أنه جل شأنه غفر لأهل الموقف.

فى هذا الجو الروحى الذى لا- يمكن أن تكون السماء الأقرب إلى الأرض فى موضع سواه، تنكشف الهواجس عن صاحب النفس اللوامة شيئاً فشيئاً فيحس بنسيم منعش يداعب صفحة وجهه، ويدب إلى رئتيه فينشرح صدره، فإذا آنس ذلك من نفسه أحس أن طوراً ثقيلًا كان يجثم على صدره، راح يتزحزح شيئاً فشيئاً، ومع مواصلة التفرغ والخشية يتخفف الحاج من أوزاره وأثقاله ليرجع كيوم ولدته أمه حتى إذا انشرح وثب من مكانه ظافراً منتصراً فقد هزم إبليس وجنده، وهزم أشباح المعصية فى حياته، ويلح فى الدعاء موقناً بالآية الكريمة، قال الله تعالى: أَدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ (۱).

فيشعر الحاج بالراحة النفسية التى عجزت نظريات الطب وعلم النفس عن منحها للعصاة المذنبين فلا عجب أن نسمع دعوات علماء الاجتماع والصحة النفسية إلى توظيف العبادات- وعلى رأسها الحج- لمقاومة الانحرافات السلوكية، وسائر أنواع الإدمان من خلال إيجاد نوع من العلاج النفسى والاجتماعى ذى الوجهة الإسلامية، بعد النجاح الكبير الذى لاحظه علماء النفس والاجتماع للعبادات الإسلامية فى مجال التهذيب والإصلاح والتقويم.

ومما يكتسبه الحاج فى رحلته الروحية إلى الحج زيادة إيمانه بنبيه ٩ حيث يرى بعينيه هذه البقاع الطاهرة التى سار عليها النبى ٩ فكانت مسرحاً لجهاده فى نشر الدعوة، فيتذكر عند الصفا صعوده ٩ عليها داعياً قومه عندما أذن الله له بالجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من السرية والكتمان، ويذكر عند العقبة اجتماعه بالأنصار فى بيعة العقبة الأولى والثانية، ويرى جبل النور وقد ارتفع عليه (حراء) بشمم وسمو يستقبل أول نزول الوحى بالقرآن الكريم، وعندما يرى عرفات يتذكر حجة الوداع وجموع الصحابة رضى الله عنهم تأتم بالنبى ٩ فى مناسكهم، وهم يستمعون إلى حجة الوداع، حيث خطب النبى ٩ أبلغ خطبة حفظت حقوق الإنسان وكرامته قبل أن تعرفها الشعوب الغربية بألف عام.

إن التأمل في غار حراء وصعوبة الارتقاء إليه في جو لاهب من الحر والريح الجافة، لتؤكد للناس عبر القرون أن النبي ٩ كان مؤيداً بعناية رب العالمين، عندما ينقطع في الغار لا يعبأ بالوحشة والانفراد، ولا يتسلل إلى نفسه الشريفة خوف، مما يجعل انقطاعه ٩ بالغار معجزة مستقلة تؤكد صدقه ٩ وصبره على تلقي هذا الأمر العظيم من الوحي والنبوة والتبليغ.

إن أبلغ آثار الحج في نفس المؤمن التائب هو ولادته الجديدة بعد عودته الخاشعة، نظيفاً من الذنوب والآثام، يستأنف حياة جديدة من الاستقامة والسمو، فيحاسب نفسه في خواطره الصامتة إذا حدثه الشيطان بسوء قائلًا:

لقد حججت البيت فحافظ على طهرك ونقائك، ولا ـ تدري أتعيش لعام قادم أو لا تعيش؟! وفرصة الحج ثانية قد لا تعود فاحذر الخطيئة والإ ـثم، ويقف الحج فاصلًا منيعاً بين الماضي والحاضر المشرق، ويدفع الحاج دفعاً كيلا ينكص على عقبيه ويحافظ على السلوك المستقيم.

وتساعد نظرة المجتمع إليه بعد عودته على المزيد من التقوى والإستقامة، فالحرص على السمعة والمروءة ليس رياء، بل هو مبالغة في التقوى والحرص على الطهر والنقاء، إن نظرة المجتمع في إيجابيتها لا ـ تقل أهمية عن الوازع الداخلي عند المسلم في تقوية حس المراقبة والمحاسبة.

إن الحج تطهير للنفس، وغرس لبذور الفضيلة والاستقامة، وصلة قوية بمنابع الإسلام الأولى، ستظل ذكرياتها محفورة في الذاكرة تؤجج الشوق إلى تكرار الحج والعمرة عدة مرات، وإذا حالت بعض الموانع دون تكرار الرحلة سيكون العزاء الشافي هو الثبات على العهد والتزام السبيل المستقيم.

الثالث: حِكَم الحج

۱- غافر: ۶۰.

ص: ۱۰۱

أما حكمة أو حكم فرض الحج، وما قصده الشارع بهذا التكليف من مصالح، وما الذى يجنيه المسلمون كل عام من احتمال هذه المشقات البدنية والمالية، فهذه موضوعات لا يكثر التساؤل عنها، ولا تلقى من الحجاج العناية التى تلقاها أحكام المناسك، مع أن الشارع الحكيم ما قصد بفرض الحج، ولا ـ بأى فرض فرضه، مجرد هيكله الظاهرى وصورته المادية، وإنما قصد الهيكل والروح والصورة والمعنى، وأراد بالعبادات وبالفرائض أن تكون وسائل لمقاصد ومصالح، والواجب على المسلمين أن يقوموا بالوسائل وأن يحققوا المقاصد، التى فرض الحج من أجلها ويجنوا ثماره ومنافعه وخيره وعطاءه السخى، وكلها جاءت لتحقق مصالح الإنسان وإلا فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۱).

إن الناظر فى آيات القرآن وسنن الرسول ٩ يتجلى له أن الشارع الحكيم، ما فرض على كل مكلف من المسلمين والمسلمات أن يحج البيت الحرام مرة فى عمره إلاـ لتحقيق مصالح اجتماعية لشعوب المسلمين وجماعاتهم، وأيضاً لتحقيق مصالح فردية للحاج نفسه. فالحج من حيث ما قصد الشارع به من مصالح له ناحيتان ولا يكون أداء هذه الفريضة كاملًا إلّا إذا عمل المسلمون على تحقيق هاذين الناحيتين:

۱- الإصلاح الاجتماعى

فقد أرشد الله سبحانه إليها بقوله: وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ‌اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى مارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعام.

فقوله سبحانه: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ بيان لأن المقصود من الحج وفود المسلمين من الرجال والنساء إلى مكان واحد هو الكعبة، أن يشاهدوا ما فيه نفع لهم وخيرهم ومصلحتهم، وقد أطلق سبحانه «منافع لهم» ليدل على المقصود كل ما فيه نفع لهم فى دينهم ودنياهم، فى العلم أو فى التجارة، أو فى السياسة، أو فى الاقتصاد، أو فى كل ناحية من نواحى النفع والإصلاح، ومن أظهرها وأهمها تقوية وحدتهم وأخوتهم، ووضع خطط تعاونهم وتناصرهم.

وذلك أن الأساس الذى بنى عليه الإسلام دعوته، والشعار الذى جعله عَلم المسلمين وعنوانهم هو وحدة المسلمين وتآخيهم وتضامنهم وتناصرهم، وتغليب جامعتهم الإسلامية على ما بينهم من فروق فى الجنسية أو القومية أو اللغة أو الإقليم، ولهذا نطقت نصوص القرآن والسنّة بأن المؤمنين إخوة، وبأن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وبأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وقرر علماء المسلمين أن دار المسلمين دار واحدة، وإن اختلفت ملوكهم وجيوشهم ولغاتهم وأجناسهم، وأنه لا يتحقق بين مسلم ومسلم اختلاف فى الدار، وإن تباينت التبعية السياسية وتباعدت الأقطار.

ومن أجل هذا شرع الله من العبادات وفرض من الفرائض ما يقوى هذه الوحدة، ويغذى هذه الأخوة، ويمكن المسلمين من جنى ثمار وحدتهم وأخوتهم، فسن الجماعة فى الصلوات الخمس فى كل يوم؛ ليتعارف أهل المنطقة الواحدة، وفرض الجمعة فى كل أسبوع ليتعارف أهل المناطق فى البلد الواحد، وفرض الحج مرة فى العمر ليجتمع المسلمون من مختلف الأقطار مرة فى كل عام حول بيت الله الحرام وفى مهد الإسلام ومهبط الوحى، ليتذكروا مبدأ أمرهم، وما سادت به دولتهم ودعوتهم، ويتدارسوا شؤونهم .. ويقف كل شعب على حال سائر الشعوب، وبهذا التعارف والتفاهم يضعون الخطط لمبادلاتهم التجارية والصناعية والعملية، ولتناصرهم وتعاونهم على من يعتدى عليهم أو على مصالحهم.

وقد ورد فى حديث عن الإمام جعفر الصادق ٧ فيما حدّث به هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبدالله جعفر الصادق ٧ فقلت له: ما العلّة التى من أجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟

فقال: «إنّ الله خلق الخلق ...- إلى أن قال- وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع

من الشرق والغرب ليتعارفوا، ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمّال ولتعرف آثار رسول الله ٩ وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسى، ولو كان كل قوم إنما يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا على ذلك، فذلك علّة الحج».

وعن الفضل بن شاذان عن الإمام على الرضا ٧ قال: «إنما أُمروا بالحج لعلّة الوفادة إلى الله عزوجل، وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً ممّا مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان، والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس [الأنفس] عن اللذات شاخصاً فى الحرّ والبرد ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلّل مع ما فى ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من فى شرق الأرض وغربها، ومن فى البرّ والبحر، ممّن يحج وممّن لم يحج، من بين تاجر وجالب وبائع ومشتر وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف من المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقُّه ونقل أخبار الأئمة إلى كل صقع وناحية، كما قال الله عزّوجل: فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ و لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ».

يقول العلامة السيد فضل الله: إننا نستوحى من هذين الحديثين، أن الإسلام أراد للحج أن يكون ملتقىً للمسلمين جميعاً فى شرق الأرض وغربها، من أجل تحقيق التعارف والتواصل بينهم، وتحصيل المنافع الاقتصادية والاجتماعية لمن حجّ ولمن لم يحج، وتبادل التجارب والخبرات المتنوّعة، التى يملكها كل فريق من خلال أوضاعه العامة والخاصة، وتسهيل حركة الدعوة إلى الله بالانطلاق من موسم الحج للاتصال بكل المناطق الإسلاميّة التى تتمثّلُ بأفرادها، الذين يقصدون بيت الله الحرام لأداء الفريضة فيما يتعلّمونه من ثقافة الإسلام وشريعته، وفيما يتعاونون فيه من مشاريع وأعمال وخطط على أساس المصلحة الإسلاميّة العليا، لينطلق العمل الإسلامى من قاعدة مركزيّة واسعة، فى أجواء الإسلام التاريخية التى

١- النمل: ۴۰.

ص: ۱۰۲

شهدت مولد الدعوة وعاشت حركيتها، وحقّقتْ أهدافها الكبيرة في جهادها المرير الصعب، فيكون التحرك في الخط من موقع الفكرة والجوّ والخبرة المتبادلة والمعاناة الحاضرة.

وهكذا يعيش الناس فيما يقصدونه من مزارات أجواء الإسلام الأولى، التي يعيشون معها الإحساس بالانتماء الروحي والعملي لهذا التاريخ، مما يوحي لهم بأن الإسلام الذي ينتمون إليه يمتدّ إلى تلك الجذور العميقة الطارئة في أعماق الزمن، وبأن عليهم أن يعطوا هذا التاريخ امتداداً من خلال جهادهم ومعاناتهم ... (۱).

فهذا الحج هو مؤتمر إسلامي سنوي ينعقد بدعوة إلهية، وتلتقي فيه وفود الأمم الإسلامية وممثلوها، في أطهر مكان بأصفى نفوس مؤيدين بمعونة الله؛ ليرسموا خطة تعاون المسلمين، ويقرروا ما يحقق آمالهم، ويعالج أمراضهم، ويوحد كلمتهم.

ولو عنى المسلمون بهذا المؤتمر الإلهي السنوي، وأوفد كل شعب إسلامي إليه بعوثاً من خيرة ما عنده من علماء السياسة والصناعة والتجارة وسائر شؤون الدين والدنيا، وكان هناك عمل على تنظيم اجتماعات لهذه البعوث المختلفة، وتيسير السبيل لتعارفهم وتباحثهم؛ لكان للمسلمين في كل عام صوت إصلاحي إجماعي، يُسمع دويه في العالم، ويترقبه المسلمون كل عام بآذان صاغية، وقلوب واعية.

ولكن مما يؤسف أن ألوف المسلمين بمكة بالمسجد الحرام يستقبلون قبلة واحدة، ويؤمهم إمام واحد، ويؤمنون بإله واحد، ولكن لا تفاهم بينهم ولا تعارف، ولا تبادل الحديث في شأن ديني أو دنيوي، وهم في مكان واحد يلتقون، وكأنهم لا تجمعهم جامعة، ولا تربطهم أخوة؛ لأن كل واحد منهم لا يفهم لغة أخيه، ولا يستطيع مبادلته أي حديث. ولهذا أرى واجباً على كل شعب إسلامي أن يجعل اللغة العربية مادة أساسية في مدارسه يتعلمها الناشؤون، وينشؤون على النطق بها والكتابة بها، فهي اللغة التي اختارتها السماء ونزل بها الكتاب المبين القرآن الكريم، وهذه أول خطوة لتفاهم المسلمين وتعارفهم، واستثمار وحدتهم وأخوتهم ..

لا بد من الانتفاع بهذا المؤتمر الإسلامي السنوي الذي ينعقد بدعوة من الله، وتهرع إليه الوفود بإيمان وإخلاص ابتغاء مرضاة الله، فلتكن وجهة المسلمين أن ينتفعوا كل عام بقرارات هذا المؤتمر، ونتائج جهود هؤلاء البعوث وصفاء نفوسهم حول الكعبة وفي مهد الإسلام ومهبط الوحي بالقرآن.

۲- الإصلاح الفردي

فقد أرشد إلى هذا رسول الله ٩ بقوله: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وبقوله: «إذا لقيت الحاج فسلِّم عليه وصافحه ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له». فكما أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن من الخطايا، والزكاة طهرة للمزكي من الشحّ والحرص والقسوة والأنانية، والصوم طهرة للصائم من الاسترسال في الشهوات واتباع النفس الأمارة بالسوء، فالحج طهرة للحاج من ذنوبه وآثامه، يغسل نفسه، ويزيل ما ران على قلبه، ويجعله دائماً على ذكر من ربه، وذلك أن الشارع الحكيم شرع كل نسك من مناسك الحج بمثابة طور من أطوار التطهير للنفس من ذنوبها وآثامها، حتى إذا أتم الحاج مناسك حجه مرت نفسه بعدة أطوار تطهيرية، فينتهي حجه، وقد غسل نفسه، وطهر قلبه، وعفا الله عنه وغفر له.

فأول ما يبدأ به الحاج: الإحرام، وهذا أول درس رياضي تهذيبي لنفس الحاج، فإن الحاج إذا تجرّد من ثيابه ورأى نفسه عاري الرأس شبه الحافي، ورأى الملوك والسوقة والأغنياء والفقراء والمخدومين وخادميهم بزي واحد هانت في عينيه مظاهر الدنيا، وتذكر مبدأه ومعاده، وآمن بأن العظمة لله وحده، وإذ ذاك يذكر معاصيه وسيئاته، ويضرع إلى ربه، ويلهج لسانه: لبيك اللهم لبيك!.

فإذا وصل بهذه الحال إلى مكة، وصل بنفس خاشعة ضارعة باكية آسفة، فيجد الضالة التي ينشدها، والفرصة التي يغنمها وهي الكعبة، فيطوف بها داعياً مستغفراً، مهللًا مكبراً، مؤمناً بأنه في أكرم مكان عند الله، فيه تقبل التوبة وتغفر الذنوب.

وإذا انتقل من الطواف بالكعبة إلى السعي بين الصفا والمروة، كرر دعاءه واستغفاره. وإذا وقف بعرفات، وذكر وقفة الرسول ٩ بحجة

الـوداع يخطب خطبـة الوداع، وواجه جبـل الرحمـة .. هنالـك تفيض العين بالـدمع، وينبض القلب بالتوبـة، ويلهـج اللسـان بالاسـتغفار، واعتقد أنه نال رضا ربه، وخرج من ذنوبه، وانتصـر على هواجس نفسه، ووساوس الشيطان، فيرمز لهذا الانتصار برمى الجمرات، ويعود من مناسک الحج، وقد ألقى أوزاره، واعتقد أن الله قد غفر له.

هـذه المعـانى الروحيـة والرياضـة التهذيبيـة لمناسـک الحـج تقتضـى من کل حاج أن يفکر فيها، وأن يعمل على تحقيقها، فإن الشارع الحکيم ما شـرط الإحرام لمجرد أن يکشف الإنسان رأسه، وأن يتجرد من ثيابه، وما فرض الطواف لمجرد أن يـدور بأحجار، ويتمسـح بأستار، وما أوجب السعى بين الصفا والمروة لمجرد أن يجرى عدة أميال، ولا فرض الوقوف بعرفة لرحلة جبلية، وإنما شرع هذا سبحانه لإصلاح نفسى، ورياضة تهذيبية.

وعلى الحجيـج أن يترکوا کل ما يلهيهم ويبعدهم عن التفکير فى حکمة تشـريع الحج وما يراد فيه من إصـلاح النفوس، وليعلم الجميع أن الله سـبحانه مـا قصـد بأيـة عبـادة من العبـادات مجرد صورهـا وأشـکالها، وإنمـا قصـد حکمها وروحها وآثارها فى إصـلاح الأفراد والجماعات والمؤسسات والکيانات والأمة بکاملها ..

الرابع: البُعد التذکيرى

١- انظر: مجلة ميقات الحج ٢٧: ١- ٢٨.

ص: ۱۰۳

من منافع الحج أنه خير مذكّر للإنسان الحاج، فهو يزيح عنه الغشاوة، ويفتح عينيه على ما لم يستطع معرفته وهو بعيد عن دائرة مناسك هـذه الفريضـة، فكلما قرب منها وكلما عاش أجواءها وتـذوق طعمها، تركت فى نفسه بصـماتها، وراحت تفتـح له آفاقها ليسـتفيد منها ويعيش ذكراها وهو يؤدى مناسكها بصدق وإخلاص .. ولهذا تراها تذكّره فيتذكر:

۱- يتذكر بسفره إلى الحج سـفره إلى الله والدار الآخرة، وكما أن فى السفر فراق الأحبة والأهل والأولاد والوطن؛ فإن السفر إلى الدار الآخرة كذلك.

۲- فكما أن الإنسان فى سفره الـدنيوى يسـتعد له بإعـداد الزاد .. فالسـفر إلى الـدار الآخرة كذلك وهو أعظم منه بمراحل يحتاج إلى الزاد الأعظم والأكثر نفعاً؛ لأن أمام الإنسان النزع والموت والقبر والحشـر والحساب والميزان والصـراط ثم الجنـة أو النار، وكل هـذه يحتاج إلى العدة .. وأسعد إنسان هو الذى ينجو من عذاب يومئذ ولا ينجو إلا إذا أحسن زاده وأتقن عمله فهو رفيقه الوحيد فى رحلته هذه.

۳- الـذاهب فى هـذا السـفر يتزود من الزاد الذى يبلّغه إلى الديار المقدسة، فليتذكر أن سـفره إلى ربه ينبغى أن يكون معه من الزاد ما يبلّغه مأمنه، وفى هذا يقول الله تعالى: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى (۱).

۴- ودخوله لبيت الله الحرام الذى جعله الله أمناً للناس يتذكر به العبد الأمن يوم القيامة، وأنه لا يحصـله الإنسان إلا بكد وتعب، وأعظم ما يؤمن الإنسان يوم القيامـة التوحيـد وترك الشـرك بالله، وفى هـذا يقول الله تعالى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (۲).

۵- وفى طوافه يتـذكر أباه إبراهيم ۷، وأنه بنى البيت ليكون مثابـة للناس وأمناً، وأنه دعاهم للحـج لهذا البيت، فجاء نبينا محمد ۹ ودعا الناس لهذا البيت أيضاً، وكذا كان يحج إليه موسى ويونس وعيسى:، فكان هذا البيت شعاراً لهؤلاء الأنبياء وملتقىً لهم، وكيف لا وقد أمر الله تعالى إبراهيم ۷ ببنائه وتعظيمه.

۶- وإذا لبس المحرم ثوبى إحرامه فلا يذكر إلا كفنه الذى سيكفن به، وهذا يدعوه إلى التخلص من المعاصـى والذنوب، وكما تجرد من ثيابه فعليه أن يتجرد من الـذنوب، وكما لبس ثوبين أبيضـين نظيفين فكذا ينبغى أن يكون قلبه وأن تكون جوارحه بيضاء لا يشوبها سواد الإثم والمعصية.

۷- وإذا قال فى الميقات: «لبيك اللهم لبيك»، فهو يعنى أنه قد اسـتجاب لربه تعالى، فما باله باقٍ على ذنوب وآثام لم يستجب لربّه فى تركها ويقول بلسان الحال: «لبيك اللهم لبيك» يعنى: استجبت لنهيك لى عنها وهذا أوان تركها؟

۸- وتركه للمحظورات أثناء إحرامه، واشـتغاله بالتلبيـة والـذكر يـذكره بحال المسـلم الـذى ينبغى أن يكون عليه، وفيه تربية له وتعويد للنفس على ذلـك، فهـو يروض نفسـه ويربيهـا على ترك مباحـات فى الأصـل لكـن الله حرمهـا عليه هـا هنـا، فكيـف أن يتعـدى على محرمات حرمها الله عليه فى كل زمان ومكان؟!

۹- وتقبيله للحجر الأسود- وهو أول ما يبدأ به من المناسك- يربى الزائر على تعظيم السـنّة، وأن لا يتعدى على شرع الله بعقله القاصر، ويعلم أن ما شرع الله للناس فيه الحكمة والخير، ويربى نفسه على عبوديته لربه تعالى ..

۱۰- وشـربه لماء زمزم يـذكره بنعمـة الله تعالى على الناس بهـذا الماء المبارك والذى شـرب منه ملايين الناس على مدى دهور طويلة ولم ينضب، ويحثه على الدعاء عند شربه، وقد نسب إلى النبى ۹ قوله: «إن ماء زمزم لما شرب له».

۱۱- السـعى بين الصـفا والمروة يذكره بما تحملته هاجر أم إسـماعيل وزوجة نبى الله إبراهيم الخليل ۷ من الابتلاء، وكيف أنها كانت تتردد بين الصـفا والمروة بحثاً عن مغيث يخلصـها مما هى فيه من محنة وخاصة فى شـربة ماء لولدها الصغير- إسماعيل-، حتى أورثتنا هذا الإرث العظيم.

إنه ركن من أركان الحج «السعى بين الصفا والمروة» فإذا صبرت هذه المرأة على هذا الابتلاء ولجأت لربها فيه فأن يفعل المرء ذلك أولى وأحرى له، فالرجل يتذكر جهاد المرأة وصبرها فيخفف عليه ما هو فيه، والمرأة تتذكر من هو من بنات جنسها فتهون عليها مصائبها.

۱۲- الوقوف بعرفة يذكر الحاج بازدحام الخلائق يوم المحشر، وأنه إن كان الحاج ينصب ويتعب من ازدحام آلاف، فكيف بازدحام الخلائق حفاة عراة فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۳)؟!

۱۳- رمى الجمار يعوّد المسلم على الطاعة المجردة ولو لم يدرك فائدة الرمى وحكمته، ولو لم يستطع ربط الأحكام بعللها، وفى هذا إظهار للعبودية المحضة لله تعالى.

۱۴- ذبح الهدى يذكره بالحادثة العظيمة فى تنفيذ أبينا إبراهيم لأمر الله تعالى بذبح ولده البكر إسماعيل بعد أن شبّ وصار معيناً له، وأنه لا ـ مكان للعاطفة التى تخالف أمر الله ونهيه، ويعلمه كذلك الاستجابة لما أمر الله بقول الذبيح إسماعيل: يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۴).

۱۵- فإذا ما تحلل من إحرامه وحلَّ له ما حرمه الله عليه، رباه ذلك على عاقبة الصبر، وأن مع العسر يسراً، وأن عاقبة المستجيب لأمر الله الفرح والسرور، وهذه فرحة لا يشعر بها إلا من ذاق حلاوة الطاعة، كالفرحة التى يشعرها الصائم عند فطره، أو القائم فى آخر الليل بعد صلاته.

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- الأنعام: ۸۱.

۳- المعارج: ۴.

۴- الصافات: ۱۰۲.

ص: ۱۰۴

۱۶- وإذا انتهى من مناسك الحج وجاء به على ما شرع الله وأحب، وأكمل مناسكه، رجا ربه أن يغفر له ذنوبه كلها، كما وعد بذلك النبى ۹ بقوله:

«مَن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

ودعاه ذلك ليفتح صفحة جديدة فى حياته خالية من الآثام والذنوب.

۱۷- وإذا رجع إلى أهله وبنيه وفرح بلقائهم، ذكّره ذلك بالفرح الأكبر بلقائهم فى جنة الله تعالى، وعرفه ذلك بأن الخسارة هى خسارة النفس والأهل يوم القيامة، كما قال تعالى:

قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱).

۱- الزمر: ۱۵.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَبّع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹